

د. محمد عمارة

الإسلام بين التنوير والتزوير

دار الشروق—

تَمْهِيد

مع تصاعد ظاهرة الإحياء الإسلامى ، ونمو التيار الجماهيرى المنعطف للالتزام بكامل الإسلام ، عقيدة وشريعة ومنهاجا شاملا لكل مناحى العمران الإنسانى . . ومع تراجع الأيديولوجيات الوضعية ، ذات الجذور والأصول والمنابت الغربية ، والتي استقطبت عقول قطاع كبير من النخبة والصفوة ، فى حقبتى الاستعمار الغربى والهيمنة الغربية فى وطن العروبة وعالم الإسلام . . فى ظل هذه الظاهرة - تصاعد « الجامع الدينى » . . وتراجع « الأيديولوجيات الوضعية » - شهدت العقود الأخيرة فى حياتنا الفكرية حدة فى الاستقطاب الفكرى بين المفكرين والمثقفين حول « هوية المرجعية الفكرية » لمشروع النهضة المنشودة ، لم يسبق لها مثيل فى تاريخنا ، القديم منه والحديث . .

صحيح أن تاريخنا القديم قد شهد انقساماً فى العقل المسلم حول الموقف من « الوافد الفكرى » . . والوافد اليونانى على وجه الخصوص . . وصحيح أن مقولات الفلسفة اليونانية قد استنفرت الذين كتبوا عن [مقالات الإسلاميين] حتى غدت هذه العبارة عناوين مؤلفات عدة - للبلخى ، أبو القاسم ، [٣١٩ هـ - ٩٣١ م] ، ولأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ، ٨٧ - ٩٣٦ م] ، وغيرهما . . لكن « الدولة » ومؤسساتها كانت يومئذ ملتزمة ، مع الأمة ومذاهبها الكبرى - الكلامية . . والفقهية - بالمرجعية الإسلامية فى مختلف مناحى العمران ، بينما ظلت الفلسفة اليونانية خيار نخبة من الفلاسفة محدودة العدد والتأثير . . ذلك أن هذا « الوافد اليونانى » قد استدعته هذه النخبة

طواعية واختيارا، بل ووظيفته - في الأغلب الأعم - في معركة الدفاع عن عقائد الإسلام ضد خطر « الباطنية الغنوصية » الفارسية، فلم يكن هذا الوافد سلاحا في يد قوة غازية ومهيمنة تبتغى به إزاحة فكرية الأمة من الميدان! . . . كذلك، لم تكن الأمة يومئذ في حقبة « التراجع والاستضعاف »، وإنما كانت في عنفوان حيويتها الحضارية، الأمر الذى جعل انفتاحها انفتاح صاحب « المعدة » القوية القادرة على تمثيل المفيد من أى وافد، مع لفظ الضار والغريب! . . . فكان تأثير الوافد المرفوض محدودا، حتى لقد وقفت سلبياته عند ما أثاره من ردود أفعال تمثلت في تيارات الانغلاق والجمود والتقليد! . . .

لكن حالنا مع « الوافد الغربى »، الذى نعيشه منذ قرنين من الزمان، ليس على ذلك المنوال . . . فلقد جاءنا فى ركاب غزوة استعمارية، جعلت منه سلاحا علقت عليه الآمال فى تأييد وتأييد النهب الاقتصادى، والإلحاق العسكرى . . . وكانت أمتنا فى حقبة التراجع والاستضعاف، الأمر الذى أعجزها، فى كثير من الأحيان، عن فرز وتمييز « النافع » من « الضار » و« الملائم » من « الغريب »، لأن « الهوية » و« المعايير » كانت قد تشوهت فى حقبة التراجع الحضارى، التى كرستها عسكرة الدولة فى حقبة الممالك والعثمانيين . . .

فلما بدأت حقبة « الاستقلال الوطنى - القطرى »، ظلت الهيمنة الغربية تزكى تحكم هذا الوافد فى الواقع الحياتى وفى فكر المؤسسات التى قامت إبان الحقبة الاستعمارية، والتى سيطرت عليها الصفوة والنخبة التى تبنت المرجعية الغربية - ليبرالية . . . أو شمولية - سبيلا للاستقلال والنهوض . . .

لقد ظلت جماهير الأمة مع الموروث . . . على حين انحازت « الصفوة المؤثرة » إلى المناهج الغربية الداعية إلى عزل الموروث عن أن يكون الحاكم لهوية النهضة المنشودة . . . فلما استنفدت هذه « الصفوة » طاقاتها، وجربت فى الأمة كل مذاهب الغرب فى النهوض، دون أن تحدث تقدما حقيقيا على هذا الطريق، بل وضاع منها جوهر الاستقلال الوطنى، الذى بذلت الأمة فى

سبيله غالى الدماء ، تبلورت للموروث « صفوته ونخبته » ، وبدأت تتخلق في الحياة الفكرية معالم مشروع بديل للاستقلال والنهوض ، يتخذ من المرجعية الإسلامية هوية متميزة عن المرجعية الوضعية الغربية ، التي عجزت عن الفعل في واقعنا . . والتي تصادف سقوط نماذج منها وتراجع نماذج أخرى على المستوى العالمى . . وكان من ثمرات هذه المتغيرات - الداخلية والعالمية - تزايد انعطاف الجماهير انعطافا واعيا ومتحركا نحو الالتزام بالمرجعية الإسلامية لمشروع النهضة . . ونمو حجم « النخبة الإسلامية » التي زاحمت وتزاحم « النخبة العلمانية » في المؤسسات والنقابات والجمعيات والأحزاب الأهلية والطوعية . . فإلى جانب « الشارع الإسلامى » تخلق « عقل إسلامى » ، على حين أصيبت المؤسسات والأحزاب العلمانية « بالجفاف الجماهيرى » ، حسب تعبير أحد المثقفين اليساريين العلمانيين!! . .

لكن هذه المتغيرات ، التي بدلت موازين القوى في « واقع الأوضاع الداخلية » بوطن العروبة وعالم الإسلام ، لم تحسم الصراع الفكرى ، بل ولم تقترب بنا من ساعة حسمه لحساب الإسلاميين . ذلك ، لأن تصاعد هيمنة « الغرب - الشمال » على كل حضارات الجنوب ، وعلى العالم الإسلامى بالدرجة الأولى والأخص والأشد ، قد انتقل بـ « العامل الخارجى » و« التحديات الدولية » إلى قلب « الأوضاع الداخلية » في وطن العروبة وعالم الإسلام . . فلم تعد « النخبة العلمانية » وحدها في المواجهة مع المشروع الإسلامى ونخبته وجماهيره . . ولم تعد « مؤسسات الدولة القطرية » - التي صنعها الاستعمار وأورثها « للنخبة المتغربة » - هى التى تحمل وحدها عبء مواجهة « الحركات الإسلامية » ومؤسساتها الوليدة . . وإنما دخلت « التبعية » التى تشد الدول القطرية إلى الغرب ، فى هذا الصراع ، الأمر الذى زاد من حدة الاستقطاب بين « العلمانيين » وبين « الإسلاميين » ، على نحو غير مسبوق ، حتى أصبح التمييز بين « الداخلى » و« الخارجى » ، فى كثير من الأحيان ، صعبا ، أو غير ميسور . . فلم يعد الخلاف - كما كان فى أغلبه من قبل - بين خيارات ذاتية

داخلية واجتهادات محلية حول الأنفع والأصلح في تحقيق « الاستقلال » و« النهضة » . . وذلك عندما خلط البعض - وهم ليسوا بالأكثرية والحمد لله - بين ماهو « داخلي » وماهو « خارجي » في « غابة هذا الصراع » !! . .

لقد أصبحنا - وتلك حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها - أمام درجة من حدة الاستقطاب في حياتنا الفكرية والثقافية، تقترب من « الطائفية الثقافية »، ومن « الغلو » الذي تقطع أطرافه كل الحبال مع « الآخر »، وتغلق في وجه هذا الآخر كل القنوات، الأمر الذي يهددنا جميعًا بنزيف داخلي شديد الإنهاك وطويل المدى، يحرسه « الخارج »، الذي لا يرى إلا مصالحه وهيمنته، ولايقنع بأقل من التبعية له والذوبان فيه!! . . أى أنه صراع ونزيف لاغالب فيه ولا مغلوب، بمقاييس « استقلالنا الوطني » و« وحدتنا القومية » و« نهضتنا الحضارية »، أيا كانت « هوية » هذا « الاستقلال » وتلك « الوحدة » وهذه « النهضة » . . الأمر الذي يستدعى وقفة مع « الذات » . . أى مع كل التيارات الفكرية المنتسبة حقا إلى هذه « الذات » الوطنية . . والقومية . . والإسلامية . . تتغيا « حوارا وطنيا وقوميا وإسلاميا » لاكتشاف معالم « عقد الاستقلال الوطني والقومى والحضارى » . . فلا بد من الاتفاق على تحقيق استقلال الوطن أولا، ليتمكن، بعد ذلك، كل صاحب أيديولوجية من التبشير بأيديولوجيته في هذا الوطن المستقل، إذ بدون « الزورق » غير المُخترَق يكون عبثا التفكير في « الرحيل » عليه نحو أى اتجاه!! . .

والأمر المؤكد، أن الاجتماع على جعل معايير « الاتفاق . . والاختلاف » و« الولاء . . والبراء » - بين تيارات الفكر في بلادنا - هى معايير « الاستقلال . . والتبعية »، سيقود فرقاء الفكر وتياراته إلى اكتشاف « أنواع » و« أحجام » و« أوزان » الفكر والمرجعية الفكرية الأقدر على دعم هذا الاستقلال وعلى تحريك الأمة في مشروع النهوض، « موروثة » كان هذا الفكر أو « وافدا » . .

وإذا كان السبيل إلى هذه « الغاية » - التى هى المنطلق الحقيقى والوحيد إلى النهوض - هو حوارا فكريا « موضوعيا - وجادا - وصبوراً »، نعالج به هذا

الانقسام الفكرى غير المسبوق فى تاريخنا، من حيث « الحجم » و« الحدة »، ومن حيث « التحديات الخارجية » الفاعلة فيه، والمتربصة بالكثير من فرقائه!!.. فإن شرطاً من شروط نجاح هذا الحوار هو تحرير المفاهيم والمضامين للمصطلحات المتداولة بين تياراتنا الفكرية، ليتحقق للمتحاورين - وكلهم عرب - الحديث « بلغة واحدة »!!.. إنقاذاً لحوارنا المنشود من المصير البائس لـ « حوار الطرشان »!!..

لقد ورث هذا الجيل من مفكرينا ومثقفينا أيديولوجيات وثقافات وفلسفات لم يخترها بمحض إرادته الحرة.. ودرجنا فى الحياة الفكرية، وخضنا صراعاتها، ونحن نستخدم ونردد العديد من المصطلحات، التى تتحد - « كأوعية » - فى مختلف الأيديولوجيات والمرجعيات الفكرية التى قسمتنا وتوزعت عقولنا.. مع الاختلاف البين والشديد بين « مضامين ومفاهيم » هذه المصطلحات الواحدة فى كل نسق فكرى أو أيديولوجية من هذه الأنساق والأيديولوجيات.. وما لم نحرر مراد كل منا.. ومراد لغتنا وموارثنا من هذه المصطلحات، فلن تكون لنا لغة فكرية واحدة تساعد على فهم مشترك للمراد، يمثل أولى شروط أى حوار ناجح بين مختلف الفرقاء..

وإذا كان كاتب هذه الدراسة قد عنى فى العديد من الكتب التى كتبها بهذه القضية.. قضية تحرير مضامين ومفاهيم المصطلحات.. من « الخلافة » و« الإمامة » و« الدولة المدنية » و« السلطة الدينية » و« الثورة » و« الإصلاح » و« التجديد » و« الاجتهاد » و« الجهاد » و« الحداثة » و« العقلانية » و« اليمين » و« اليسار » و« الملكية » و« الإقطاع » إلخ.. إلخ.. حتى لقد أخرج قاموساً لمصطلحات الحضارة الإسلامية - فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى - تجاوزت مصطلحاته خمسة آلاف مصطلح..

وإذا كان هذا هو جهد كاتب هذه الدراسة - وقبله ومعه كانت جهود كثيرة فى هذا الميدان - فإن صفحات هذه الدراسة ستتركز على واحدة من مشكلات « صراعنا الفكرى » الذى يقوم على المفاهيم المتباينة لمصطلح واحد

يردده فرقاء هذا « الصراع » . . ذلكم هو مصطلح « التنوير » !! . .

فإذا استطاعت هذه الدراسة ، بتحريرها لمضمون مصطلح « التنوير » ، أن تكتشف حقيقته . . وحقيقة « الأرض المشتركة » بين الفرقاء « المتصارعين » باسمه وحوله !! . . وحجم « الخداع المفاهيمي » الذى يسببه استخدام المصطلح « الواحد » بمفاهيم وخلفيات ومضامين مختلفة ، بل ومتباينة ، وأحيانا متناقضة !! . .

إذا استطاعت هذه الدراسة أن تضع عقول مختلف الفرقاء أمام هذه الحقيقة - فى مصطلح « التنوير » - فإنها ستكون خطوة على هذا الطريق . . طريق الكلمة السواء . . التى ندعو إليها فرقاء الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، لإنقاذ حياتنا الفكرية من تشرذم « الطائفية الثقافية » الذى يأخذ منا جميعا بالخناق . . والذى يهدد أحلامنا جميعا ، فى الاستقلال والنهوض ، بكارثة لا يعلم مداها إلا الله ! . .

تلك هى مهمة هذه الدراسة ، التى ندعو الله أن يجعلها إسهاما فى الدعوة - بالتى هى أحسن - إلى كلمة سواء .

التنوير : غربي؟ .. أم عربي؟!

في السنوات الأخيرة . . وعقب سقوط المنظومة الماركسية ، وأحزابها ونظمها ودولها . . التحقت « الدول » التي كانت ماركسية بالليبرالية الغربية ، فتبنت أيديولوجيتها ، وطلبت عضوية مؤسساتها ، وغدت « أصواتها » في المؤسسات الدولية تابعة « للصوت الغربي » في هذه المؤسسات . . ولقد عبرت هذه التحولات عن إعادة الغرب « ترتيب بيته الحضارى » ، على النحو الذى أعاد له لونا من « الوحدة الحضارية » في مواجهة حضارات الجنوب ، وبخاصة الحضارة الإسلامية ، التى تعالت وتعالى الأصوات الغربية باتخاذها « خطرا أخضر » أحلته محل « الخطر الأحمر » ، كالعدو الأول للحضارة الغربية فيما هو قائم وقادم من فصول الصراع بين الحضارات !! . .

وفى نفس الوقت الذى تحولت فيه الأهمية الماركسية ودولها الغربية إلى الليبرالية الغربية ومعسكرها الرأسمالى ، حدث نفس التحول لرموز المثقفين والمفكرين الماركسيين العرب ، من موقع المعارضة للنظم والحكومات العربية - والغارقة منها فى مستنقع التبعية للغرب على وجه الخصوص - تحولت هذه الرموز الماركسية من موقع المعارضة إلى موقع التأييد ، حتى لقد صنعوا صنيع الدول التى كانت ماركسية ، فغدوا الركائز والعمد التى تناضل لتثبيت الواقع القائم - رغم بؤسه حتى بمقاييسها الماركسية !! - وأصبحوا « أفصح » السنة مؤسسات الإعلام والثقافة فى مواجهة المشروع الإسلامى ، الذى أصبح أكثر مشروعات التغيير للواقع قبولا من الجماهير .

وكما تبنت الدول التي كانت ماركسية ليبرالية الغرب . . صنع الماركسيون العرب . .

فأصبحوا يتحدثون عن « الوطنية » - بدلا من الأمية - . . بعد أن كانت « تعصبا . . وضيق أفق . . وشيوعية » . . وبعد أن كان معيارها عندهم هو: الموقف من الاتحاد السوفيتي !! . .

وأصبحوا يتحدثون عن « الليبرالية » . . بعد أن كانت سُبَّةً ، لما تعنيه من رأسمالية في الاقتصاد وعلاقات الإنتاج وبرجوازية في السياسة والثقافة والفنون والآداب !! . .

وبعد أن كانوا يصورون رفضهم للدين والتدين بحسبانه من مقتضيات تحقيق المشروع الشيوعي في الاقتصاد والاجتماع - وهو المشروع الذى قالوا إنه لا بد من استناده إلى المادية الجدلية في تفسير الكون والوجود، والمادية التاريخية في تفسير الصيرورة والتاريخ - رأيناهم وقد تزايد نقدهم للدين حتى بعد سقوط المشروع !! . . فتصاعد احتضانهم «للآليات» و«الوسائل» حتى بعد سقوط «المقاصد» و«الغايات» !! . . حتى كأن لم يبق من «رسالتهم» إلا العداء للدين !!! . .

وفي خضم هذه التحولات التى حدثت للمفكرين والمثقفين الماركسيين العرب ، بعثوا شعار « التنوير » من مرقده القديم ، ودعوا إليه باعتباره المظلة الفكرية والإطار الثقافى للقوى التى أرادوا لها مواجهة المشروع الإسلامى للتغيير . . فلقد أطلقوا على الفكر الذى يريد بعث الحضارة الإسلامية وتجديدها . . واتخاذ الإسلام مرجعية لمشروع النهضة المنشودة . . واتخاذ الإسلام دينا ودولة ومنهاجا شاملا لكل مناحى العمران . . أطلقوا على هذا الفكر صفة «الفكر الظلامى» ، ودعوا إلى مواجهته بـ «فكر التنوير» ، الذى سبق لهم - كماركسيين - وعرفوه فى [الموسوعة الفلسفية] السوفيتية بأنه «زعم مثالى يدعى أصحابه أن الوعى هو الذى يلعب الدور الحاسم فى تطور المجتمع . . ولم يكن مفكرو التنوير يضعون فى اعتبارهم الدلالة الحاسمة

للشروط الاقتصادية للتطور، ومن ثم لم يستطيعوا كشف القوانين الموضوعية للمجتمع»!! . . .

فجأة . . . وفي خضم هذه التحولات - التى وضعت « الدول الماركسية » فى « جيب الغرب الاستعماري » . . . ووضعت رموز الماركسية العربية فى « خندق النظم التابعة للغرب الاستعماري » - تعلق الماركسيون بشعار « التنوير » - الذى قالت [الموسوعة الفلسفية] السوفيتية : « إنه لم يعد يمثل اتجاهها مؤثرا فى التفكير الاجتماعى فى الوقت الحاضر »^(١) - داعين إلى مظلتها، فى مواجهة المشروع الإسلامى، الذى نعتوه بـ « الفكر الظلامى »!! . . .

هكذا شهدت حياتنا الفكرية والثقافية والإعلامية الحديث المتنامى عن « التنوير » كشعار « للمواجهة »، مواجهة المشروع الإسلامى، كواحد من هذه التحولات التى أعادت توظيف الماركسيين العرب فى مؤسسات نظم « التبعية »، ضمن الظاهرة الأشمل، التى أعادت ترتيب « البيت الحضارى الغربى »، فوظفت المعسكر الذى كان ماركسيا فى المشروع الغربى، الذى أعلن ويعلن الحرب على حضارات الجنوب، وخاصة منها حضارة الإسلام!! . . .

وفى هذا السياق - سياق « التنوير : المواجهة » - شهدت الساحة الفكرية المصرية، على سبيل المثال، :

● انعقاد معرض القاهرة الدولى للكتاب سنة ١٩٩٠م تحت شعار : « مائة عام من التنوير » . . .

● واحتفالات المثقفين العلمانيين بمئوية مجلة [الهلال] القاهرية سنة ١٩٩٢م، تحت ذات الشعار : « مائة عام من التنوير » . . .

(١) [الموسوعة الفلسفية] السوفيتية . . . وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتيين، بإشراف : م. روزنتال، ب. يودين . ترجمة : سمير كرم، ومراجعة : د. صادق جلال العظم، وجورج طراييشى . طبعة دار الطليعة - بيروت، سنة ١٩٧٤م .

● والحملة الفكرية التي نهضت بها وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٩٣ م . .
والتي أصدرت فيها قرابة الخمسين كتابا - في كل يوم كتاب !! - لتحمل
أغلفتها كلمتى « المواجهة » و« التنوير » . . معتبرة هذا « التنوير » سلاحها فى
هذه « الحرب التى هى أشد ضراوة من أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها
الخارجيين فى هذا القرن » !! - كما جاء على أغلفة كتب « المواجهة »
و« التنوير » !! . .

ولم تدع هذه الحملة الثقافية - بما فيها من القائمين عليها، ومعظم
كتّابها، وأكثر كتاباتها - أى مجال للبس فى أن شعار « التنوير » قد استدعى
« المواجهة الإسلاميين » . . حتى لقد كتبت الأوساط الثقافية عنها، تحت
عنوان [رموز التنوير فى « المواجهة »]، فقالت :

« ينظم المثقفون فى مصر حملة إعلامية كبيرة، بالتعاون مع السلطات
الرسمية، شعارها « المواجهة » . فيصدرون كتيبات تعيد النهضويين إلى دائرة
الضوء، وينظمون مهرجانات فى سائر المحافظات، يعرفون برموز النهضة
ودعاتها فى القرن الماضى ومطالع القرن الحالى .
« رموز التنوير فى مواجهة الظلاميين » :

الطهطاوى . . ومحمد عبده . . والأفغانى . . وعلى عبد الرازق . . وطه
حسين . . فى مواجهة « الحركة الإسلامية السياسية »^(٢) !

وفى كتابين من الكتب التى صدرت فى هذه السلسلة للأستاذ الدكتور
جابر عصفور - وهو من أبرز منظمى هذه الحملة - تحدث عن « التنوير »
الذى طبع ثقافتنا منذ حملة بونابرت على مصر [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م] وحتى
[١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م] - وهو عنده عصر الإحياء التنويرى . . وكيف
« انتكس » هذا « التنوير » منذ عشرينيات هذا القرن العشرين، بظهور

(٢) مصطفى الزين - صحيفة [الحياة] - العدد ١١٠٤٥ ، فى ١٩ من ذى القعدة، سنة
١٤١٣ هـ - ١٠ من مايو، سنة ١٩٩٣ م .

«الحركات الإسلامية» الداعية إلى شمول الإسلام للسياسة والدولة . . حتى أفضى الأمر بالتنوير إلى « المحنة » على يد « المشروع القومي »، منذ الخمسينيات . . «والمشروع الإسلامى» الذى ساد الساحة منذ السبعينيات^(٣)!! . .

ولما كنا نريد « الحوار » بدلا من « المواجهة » . . فإن من شروط الحوار المجدى تحرير مفاهيم ومضامين هذا المصطلح . . مصطلح « التنوير » . . .

إن القرآن الكريم يعلمنا أن « التعمية » و«حجب الحقيقة» كانا منهج المشركين الذين أرادوا مصادرة الحقائق، فكان شعارهم : «لا تسمعوا»!! . .
﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾^(٤)!! . . بينما كان شعار القرآن الكريم ورسوله، ﷺ ، ومنهجا أمته : ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾^(٥)، و﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾^(٦)، و﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾^(٧)، و﴿اثبوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾^(٨)!! . .

وهذا المنهج القرآنى هو الذى بيته وطبقته السنة النبوية، التى جعلت «الحكمة» - وهى « الإصابة فى غير النبوة » - بنص الحديث الذى يرويه البخارى - جعلت هذه « الحكمة » ضالة المؤمن . . « فالكلمة الحكمة ضالة المؤمن »^(٩) أتى وجدها ، ومن أى مصدر جاءت فالمؤمن أحق الناس بها . .

(٣) انظر كتابى د. جابر عصفور: [التنوير يواجه الإلزام]، و[محنة التنوير]، ج١ ، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة، سنة ١٩٩٣ م.

(٤) فصلت : ٢٦ . (٥) البقرة : ١١١ ، والنمل : ٦٤ .

(٦) الأنعام : ١٤٣ . (٧) الأنعام : ١٤٨ .

(٨) الأحقاف : ٤ . (٩) رواه الترمذى وابن ماجه .

وهو المنهاج الذى سار على دربه الكندى الفيلسوف [٢٦٠هـ - ٨٧٣م] ، فقال : « خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها ، مهما كان مصدرها » . . . وتابعه ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ، ١١٢٦ - ١١٩٨ م] ، فقال : « إنه يجب علينا أن نستعين على مانحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك . . سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك ، طالما كان صوابا » . . وعلى دربه سار الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] ، فقال : « إن أبا العلم وأمه هو الدليل . والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات . . . والحقيقة تلمس حيث يوجد الدليل » . .

بهذا المنهاج « القرآنى . . النبوى . . الإسلامى » ، نريد أن نبحث عن حقيقة « التنوير » ، لنرى أنحن مدعوون إلى « تنوير : عربى - إسلامى » فنتفق مع الدعاة إليه على كلمة سواء؟! . أم أننا مدعوون إلى « تنوير غربى »؟! . وإذا كانوا يدعوننا إلى « تنوير غربى » ، فإننا لا نريد رفضه لأنه غربى . . بل نريد عرض مضامينه ومفاهيمه على ثوابتنا الاعتقادية والحضارية ، لنرى مدى ما فى هذه المضامين التنويرية الغربية من « الصواب » و« الملاءمة » ، ومن ثم حظها من « القبول » فى عقل أمتنا ووجدانها! . .

نريد أن نتحاكم إلى « البرهان » و« الحكمة » و« العلم » و« الحقيقة » فى تحرير مضامين ومفاهيم مصطلح « التنوير » ، لنميز فيها بين « الصدق » وبين « التزوير »! . . سعيانا إلى توحيد العقل المسلم بجمعه على كلمة سواء! . .

وبعد هذا الفحص لحقيقة مضامين هذا المصطلح ، فى النسق الغربى . . وفى النسق العربى الإسلامى . . نريد أن نعرض مذاهب العلماء والأعلام الذين قدمتهم حملة « التنوير والمواجهة » ، من الطهطاوى إلى الأفغانى إلى محمد عبده إلى على عبد الرازق إلى طه حسين إلى سلامة موسى . . إلخ . . نريد أن نعرض مذاهبهم ، من خلال نصوصهم . . وعبر تطورهم

الفكرى - إن كان لهم تطور فكرى - لنرى حقيقة « النسب الفكرى » لهذه المذاهب . . إلى « التنوير » بمعانيه الغربية؟ . . أم إلى « التنوير » بمعانيه العربية الإسلامية؟ . . وذلك - مرة أخرى - حتى نتبين « الصدق » من « التزوير » فى سلسلة أعلام « التنوير »!! .

* * *

سيدهش الكثيرون، وخاصة بعد أن أصبح مصطلح « التنوير » عنوانا لحملة ثقافية وإعلامية تصك الأسماع صباحا ومساء، إذا هم علموا أن هذا المصطلح لم تعرفه قواميس الفكر ولا معاجم الثقافة على امتداد تاريخنا العربى الإسلامى الطويل . . والمرة الوحيدة التى يطالعها الإنسان لمادة ومدخل فى معاجم الفكر والثقافة لكلمة « التنوير »، سيجدها إشارة إلى عنوان كتاب فى فقه المذهب الحنفى - عنوانه [تنوير الأبصار] لشمس الدين محمد بن عبد الله الغزى [١٠٠٤ هـ - ١٥٩٦ م] - وهو الذى شرحه علاء الدين الحصكفى [١٠٢٥ - ١٠٨٨ هـ، ١٦١٦ - ١٦٧٧ م] فى كتاب سماه [الدر المختار فى شرح تنوير الأبصار]، ووضع عليه ابن عابدين محمد الأمين حاشية سماها: [المختار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار، فى فقه مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان] . . وعلى هذا الدرب سار العديد من المؤلفين باستخدام كلمة « تنوير » فى عناوين المؤلفات، من مثل: [تنوير الأذهان فى الصرف والنحو والبيان]، و [تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام]، و [تنوير الأفئدة الزكية فى أدلة أذكار الوظيفة الزروقية]، و [تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر]، و [تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبى والملك]، و [التنوير فى إسقاط التدبير]، و [التنوير الكافى فى التصوير الفوتوغرافى] . . الخ . . الخ^(١٠) .

(١٠) انظر يوسف إلبان سركيس: [معجم المطبوعات العربية والمعربة]، طبعة القاهرة، سنة

ولا أثر في أى معجم من معاجمنا « الفكرية » ، ولا في أى قاموس من
قواميس وكشافات مصطلحات الفنون لمادة عنوانها « التنوير » !! (١١) .

وإذا كان القرآن الكريم قد خلا من هذا المصطلح ، فإن المعاجم
« اللغوية » - وليست « الفكرية » - قد عرفت ، انطلاقاً من الحديث النبوى ،
تعريفاً لغوياً ، لعللاقة له من قريب أو من بعيد بالمضامين والمفاهيم
الغربية التى اشتهر بها هذا المصطلح فى الحضارة الأوربية ، وهى المفاهيم
والمضامين التى يعرض بها الآن على العقل العربى والمسلم ، والتى نريد
عرضها على ثوابت الاعتقاد الإسلامى ومناهج النظر فى حضارتنا
الإسلامية ، بل وعلى فكر الأعلام والعلماء الذين تُساق أسماؤهم فى « مواكب
المواجهة والتنوير » !! . . .

إن « التنوير » فى معاجمنا اللغوية ، هو : وقت إسفار الصبح ، أى وقت
صلاة الصبح . . وفى الحديث الشريف - الذى يرويه الدارمى - يقول
الرسول ، ﷺ : « نَوِّروا بصلاة الصبح » . . أى صلّوها ساعة « التنوير » . .
ساعة إسفار نور الصباح . . والحديث وارد فى « مواقيت الصلاة » !! (١٢) .

فهل لهذا المضمون العربى الإسلامى علاقة ما بما لهذا المصطلح فى التراث
الفكرى الغربى من مضامين محددة ، ظهرت فى مرحلة تاريخية محددة ، على
يد تيار فكرى وفلسفى محدد ؟ . . !

لننظر . . حتى نعلم إلى أى تنوير نحن مدعوون ؟ . . !

-
- (١١) انظر [الكليات] لأبى البقاء . طبعة دمشق ، سنة ١٩٨١ م . و [كشاف مصطلحات
الفنون] للتهانوى . طبعة الهند ، سنة ١٨٩٢ م . و [دائرة المعارف الإسلامية] - لمجموعة من
المستشرقين - طبعة دار الشعب ، القاهرة . و [دائرة المعارف] للمعلم بطرس البستاني . طبعة
القاهرة . و [القاموس الإسلامى] لأحمد عطيه الله . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م .
(١٢) انظر [لسان العرب] لابن منظور . طبعة دار المعارف . القاهرة .

عندما يذكر مصطلح « التنوير » Enlightenment في الحياة الفكرية والثقافية، فإنه يستدعى إلى الذهن نسقا فكريا أوربي النشأة والمضمون والإيحاء . . بل لقد غدا عنوانا على نسق فكري ساد في مرحلة تاريخية محددة من مراحل تطور الفكر الغربى الحديث، حتى ليقال كثيرا - في تقسيم مراحل هذا الفكر - : «عصر التنوير» . . وهذا مفكر من « عصر التنوير» . وهذه النظرية من نظريات « عصر التنوير» . . أو ضد نظريات ذلك العصر.

وإلى هذه الحقيقة، أشار مجمع اللغة العربية في تعريفه لـ « التنوير» فقال: إنه « حركة فلسفية، في القرن الثامن عشر. . . » . . ثم أكمل التعريف الذى يتحدث عن معالم نسق فكري وفلسفى أوربي نشأ فى أوربا فى القرن الثامن عشر الميلادى (١٣) . .

وفى تعريف المجمع لهذه الحركة الفلسفية الأوربية، بيان لمعالمها ومميزاتها التى تميزت بها عن الفكر اللاهوتى الكنسى الذى كان سائدا فى أوربا يومئذ . . ففلسفة التنوير هذه « تعتد بالعقل، والاستقلال بالرأى، وتؤمن بأثر الأخلاق، وتقوم على فكرة التقدم والتحرر من السلطة والتقاليد» .

ولكى نفهم معنى هذه المعالم التى ميزت فلسفة التنوير، لابد من فهم الواقع الذى جابهته ورفضته، وفهم السياق الحضارى الذى أفضى بالحياة الفكرية الأوربية إلى فلسفة التنوير . .

لقد كان « التنوير» الأوربي رفضا للعصور « المظلمة» التى سادت أوربا عندما حكمتها البابوية باللاهوت الكنسى . . ولقد نظر هذا التنوير إلى «ظلام» تلك العصور باعتبارها « نازلة» و«كارثة» و«جملة معترضة» فى طريق أوربا الفكرى، فتقدّم فلاسفته لطفى هذه الصفحة، وإحلال التنوير محلها . . وعلى هذه الفلسفة التنويرية تأسس الإحياء الأوربي والنهضة الأوربية الحديثة . .

(١٣) [المعجم الفلسفى]. طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٩ م.

وهنا يثور السؤال عن وجه « الخصوصية » الذى جعل ويجعل هذا التنوير الأوروبى شأنًا أوروبيا خاصا وخالصا، لا علاقة له بالسياق الحضارى لعالم الإسلام؟ ..

لقد تميزت الحضارة الغربية، منذ طورها اليونانى، بنزعة مادية خالصة سافرة، أو مشوبة بالفكر الإلهى، منذ ما قبل التدين بالنصرانية بعدة قرون . .

فمنذ ما قبل الميلاد، نجد تيارا ماديا متبلورا فى الفلسفة اليونانية، عند طاليس [٦٢٤ - ٥٤٧ ق.م] وأنكسيماس [٥٨٨ - ٥٢٥ ق.م] وهرقليطس [٥٤٤ - ٤٨٣ ق.م]، الذين قالوا إن المادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها . . واستمر هذا التيار المادى فى الفلسفة الغربية حتى القرن التاسع عشر، فبلغ ذروته فى المادية الجدلية والتاريخية عند كارل ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣ م]، وفردريك أنجلز [١٨٢٠ - ١٨٩٥ م] . .

أما التيار «الإلهى» فى الفلسفة الغربية، فلقد تبلور فى حقبتها اليونانية «دنيويا» . . بمعنى أنه وإن اعترف بإله خالق لهذا الكون، إلا أنه وقف بفعل هذا الإله عند حدود « الخلق » لهذا العالم، جاعلا تسيير وتدبير هذا العالم للأسباب المادية المودعة فى ظواهره وقواه ومخلوقاته، دون تدبير إلهى أو تدخل سماوى أو رعاية أو ضبط من وحى نازل من السماء . . فعلاقة الخالق بالوجود «علاقة منطقية»، كعلاقة المقدمة بالنتيجة، وليست علاقة الراعى المدبر لشئون هذا الوجود!! . . نعم . . هى فلسفة « إلهية »، تؤمن بخالق لهذا العالم، لكنها « دنيوية » تعزل السماء عن الأرض، وتوقف عمل الخالق فى الخلق، وتجعل تدبير العالم والدنيا والإنسان والمجتمع للمرجعية الدنيوية - نواميس الكون والأسباب المادية المركبة فى ظواهره، والعقل الإنسانى والتجارب التى تقوم بها وتدرکها الحواس الخمس للإنسان . .

وعندما دخلت النصرانية إلى الدولة الرومانية على عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير [٢٧٤ - ٣٣٧ م]، فإنها طُوِّعت للنزعة الدنيوية فى

الفلسفة الأوربية . . لقد ناقضت النزعة المادية . . لكنها اتسقت مع النزعة الدنيوية ، لاختصاصها بخلاص الروح ومملكة السماء ، وتركها الدنيا - بكل شئون العمران فيها - لقيصر، انطلاقاً من المقولة الإنجيلية : «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» . . حتى لقد عبر قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني [٤١٥هـ - ١٠٢٤م] عن هذا التحول الذى طُوِّعت به النصرانية للحضارة الأوربية، فقال : « إن النصرانية عندما دخلت روما ، لم تنتصر روما ، ولكن النصرانية هى التى تَرَوَّمت »!! . .

ولقد ظل هذا الاتساق بين النصرانية وبين الفلسفة « الإلهية - الدنيوية » الأوربية ، إلى أن جاء عصر الحكم البابوى ، الذى جمعت فيه البابوية السلطة « الزمنية » إلى سلطتها « الإلهية » ، فكان فى ذلك تجاوز للمبدأ الإنجيلي - «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» - وعدوانا على « النزعة الدنيوية » التى ميزت الفلسفة الأوربية منذ طورها اليونانى القديم . .

ولما كانت النصرانية لا تمتلك « شريعة للعمران الدنيوى » ، بل تركزت تعاليمها ووصاياها على خلاص الروح . . وهى « ثوابت » ليس فيها المرونة التى تقتضيها « شريعة العمران المتطور دائماً » . . فلقد « ثَبَّت » الحكم البابوى الكنسى « المتغيرات الدنيوية » ، بل وأضفى عليها « قدسية » الدين ، الأمر الذى أوقف التطور والتقدم والعلم والفلسفة ، فدخل الحكم البابوى الكهنوتى بالحضارة الأوربية إلى ظلمات عصورها الوسطى! . .

فى ضوء هذا السياق وهذه الخصوصية ، جاء التنوير الأوربى : فلسفة رافضة لتجاوز الكنيسة حدودها التى رسمها الإنجيل - خلاص الروح ومملكة السماء - . . ومدافعة عن « النزعة الدنيوية » - [العلمانية] - للفلسفة الأوربية . . وداعية إلى « العقل » الذى استبعدته الكنيسة ، و«الرأى» الذى قهره اللاهوت ، ومنادية بالتححرر من « سلطة التقاليد » الكنسية التى كانت «سوقاً تجارية» راجت فيها مفاسد القساوسة والبابوات!! . . ففى مواجهة «الفعل» - الذى تمثل فى تحالف الكنيسة والإقطاع - كان «رد الفعل»

التنويرى، الذى أعلن رفضه لسلطان الدين على الدنيا، ولتدخل السماء فى العمران الأرضى، رافعا شعاره القائل: «لاسلطان على العقل إلا للعقل» . . .

وإذا كانت جذور التنوير - بهذا المعنى الأوروبى - يمكن أن تعود إلى «فرنسيس بيكون» [١٥٦١ - ١٦٢٦م] - فى القرن السابع عشر - الذى رفض تدخل الدين فى المعرفة ، لأن « الدين يحد من كل ألوان المعرفة » - وكان ذلك واقعا أوربيا خاصا يومئذ - فإن هذه الجذور التنويرية الأوربية قد تميزت ، منذ بزوغ فجرها بتعليق الآمال على « العقل والعلم والفلسفة » ، جاعلة منها بديلا عن الدين والتدين . . بل وبديلا عن « الله » - ومتخذة منها « آلهة للتنوير » . . . فالعقل والعلم والفلسفة كانت مطرودة من المجتمع الأوروبى الذى حكمته الكهانة البابوية باللاهوت . . ومن هنا كان استدعاء التنوير لها كبدايل عن دين الكهانة واللاهوت . . .

أما القرن الثامن عشر الميلادى، فهو الذى شهد صعود موجة فلسفة التنوير، وتوالى أعلام هذه الفلسفة . . من مثل « فولتير » [١٧٣٤ - ١٧٧٨م]، و« روسو » [١٧١٢ - ١٧٧٨م]، و« مونتسكيو » [١٦٨٩ - ١٧٥٥م]، و« هيردر » و« ليسنج » [١٧٢٩ - ١٧٨١م]، و« شيلر » [١٧٥٩ - ١٨٠٥م]، و« جوته » [١٧٤٩ - ١٨٣٢م]، و« كانت » [١٧٢٤ - ١٨٠٤م] . . إلخ . . إلخ . . حتى لقد سمي هذا القرن الثامن عشر بعصر التنوير .

وإذا كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير الأوروبى، فلقد كان « فولتير » أبرز فلاسفة ومفكرى هذا التنوير . . فلقد دعا إلى تمجيد العقل، بديلا عن قداسة الدين، وشن حملة شعواء ضد الدين والكنيسة، وأنكر عالم الغيب، والبعث، والجزاء الأخروى . وقال إن النفس ليست إلا حياة الجسم، وأنها تفنى بفنائها . . وليس هناك وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها . . وكتب كثيرا فى نقد الدين، الذى اتخذ رجال الكنيسة وسيلة لإرباك أذهان الناس، واستخدمه الملوك لسلب أموالهم . . وجعل مقاييس

الفضيلة في مدى ما تحققه من الخير الاجتماعي ، قاطعا العلاقة بينها وبين طاعة الله ، أو الثواب والعقاب بعد الموت . .

وحتى في قضية وجود الله في هذا الكون ، فإن تذبذب « فولتير » - عبر مراحل تطوره الفكري - إزاء الإيمان بآله ، قد ظل في دائرة الإنكار الكامل والإلحاد التام ، أو في دائرة الاعتراف بوجوده من باب الضرورة لضبط سلوك « العامة » . . فالدين مجرد منفعة عامة ، و « إذا كانت لديك قرية واحدة ، لتحكمها ، فينبغي أن يكون لها دين » . . . و « إذا لم يكن الإله موجودا ، فيجب علينا أن نبتدعه » . . . و « قد يكون ثمة بعض النفع في الدين ، ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه لتعزيز الفضيلة » . . . - تلك هي عبارات « فولتير » ، التي تصور موقف « التنوير الأوربي » من « الدين الأوربي » الذي حكمته البابوية والكهانة الكنسية في الدولة والمجتمع والعمران ، فجاء التنوير ليرفضه من الأساس ! . .

ولما مال « فولتير » ، في أخريات حياته ، إلى التسليم بوجود إله ، رآه مختلفا كل الاختلاف عن إله النصرانية . . فدعا إلى « دين : الله والتسامح . . لأن الطبيعة بأسرها تصبح فينا أنه موجود فعلا . . » . ثم أضاف : « أما بالنسبة للسيد الابن - [المسيح] - والسيدة أمه - [العذراء] - فتلك مسألة أخرى » . . ! .

ولقد انتشر فكر التنوير ، بهذا المعنى - تمجيد العقل وحده ، بل وعبادته ، في إنجلترا وفرنسا ، ناشرا معه الكفر والإلحاد والنزعة المادية في الفلسفة - فقال « هوبز » [١٥٨٨ - ١٦٧٩ م] : « ليس في الوجود إلا ذرات في فراغ » . . وبلغ هذا المعنى للتنوير ذروته إبان الثورة الفرنسية - [١٧٨٩ م] - عندما اتخذ الباريسيون معبودة حسناء أطلقوا عليها : « إلهة العقل » . . ! . وقالوا : إنهم أنزلوا الله من ملكوته ، مع إنزالهم أسرة البوربون عن عرشها . . ! . تلك هي أبرز معالم فلسفة التنوير الأوربي . . وهكذا نشأ كرد فعل على الكهانة البابوية التي تجاوزت حدود الإنجيل والنصرانية ، فتحكمت في

الدولة والدنيا، وقدستهما وجمدتهما.. ثم غرقت في الفساد والاستبداد، واضطهدت لا المخالفين في الدين والملاحدة فقط، بل والمخالفين في المذهب أيضا، حتى كانت عقوبة إقامة قداس بروتستانتى، في مجتمع كاثوليكي: سجن النساء مدى الحياة، وإرسال الرجال للتجديف حتى الموت، وإعدام الكهنة!.. وكانت المواكب تسير في ذكرى المذابح الدينية «شكرا لله»!!.. ناهيك عن الذى حدث للعلم والعلماء على أيدي الكهانة الكنسية في تلك العصور^(١٤)!..

تلك كانت الملابس الأوربية، التى أفرزت هذا المعنى الخاص للتنوير فى أوربا.. لقد اعترض الحكم الكهنوتى مجرى وسياق « النزعة الدنيوية » لفكرية الحضارة الأوربية وفلسفتها، الأمر الذى أدخل تلك الحضارة عصورها المظلمة والرجعية.. فجاء التنوير الأوربى، ليزيح هذا الاعتراض، راجعا بالكنيسة إلى إطارها الإنجيلي - خلاص الروح والاقتصار على مملكة السماء - تاركة ما لقيصر لقيصر وما لله لله - ومواصلا مسار « النزعة الدنيوية » - [العلمانية] - للفكر والفلسفة الأوربية من جديد..

فهل يستطيع عاقل أن يزعم وجود شبه بين حضارتنا الإسلامية وتطورنا التاريخي ورؤية الإسلام لعلاقة الدين بالدنيا - دولة وعمرانا.. - ولعلاقة الشريعة بالحكمة والفلسفة.. - ولعلاقة السماء بالأرض.. - ولنطاق عمل الخالق وتدبيره - بالشريعة - لمختلف شئون الإنسان كخليفة لله في استعمار الأرض.. إلخ... إلخ.. هل يستطيع عاقل أن يزعم وجود شبه بين النسق الفكري الإسلامى وتطوره الحضارى، وبين هذا الذى حدث فى أوربا - « الفعل الكنسى » منه.. - و« رد الفعل التنويرى »؟!.. حتى يكون هناك مجال لاستدعاء هذا « التنوير الأوربى » ليكون تنويرا لنا نحن المسلمين؟!..

(١٤) انظر ول ديورانت : [قصة الحضارة]، الطبعة العربية. القاهرة. وكتابنا [إسلامية المعرفة]، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩١ م. و [دائرة المعارف البريطانية] .

لقد جمع الإسلام بين تصور الذات الإلهية الذى ﴿ له الخلق والأمر ﴾ (١٥) - أى الخلق والتدبير للخلق كليهما - وبين تصور مكانة الإنسان فى الكون كخليفة لله ، سبحانه وتعالى ، محكومة خلافته ببند عقد وعهد الاستخلاف ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . ﴾ (١٦) . . فكانت وسطيته الجامعة بين الشريعة الإلهية وبين الشورى الإنسانية . . بين عالم الغيب وبين عالم الشهادة . . بين آيات الله فى كتابه المقروء - القرآن - وبين آياته فى كتابه المنظور - الكون - بين الدين وبين الدولة . . بين الدنيا وبين الآخرة . . بين الروح وبين الجسد . . بين الفرد والطبقة والأمة . . بين ملكية الله للرقبة فى الثروات والأموال وبين ملكية الإنسان للمنفعة فى هذه الثروات والأموال . . بين العقل والنقل والوجدان والتجربة ، كسبل أربعة للمعرفة والهداية للإنسان . .

ولذلك نجا التطور التاريخى للحضارة الإسلامية من « النزعات المادية والدينية فى الفلسفة » نجاته من « النزعات الكهنوتية » . . ونجا من « العلمانية » نجاته من « السلطة الدينية وحكومة الفقهاء » . . ونجا من « الوضعية اللادينية » نجاته من « اللاعقلانية » . . فكان تاريخنا ، على العكس من التاريخ الأوروبى : اقترن فيه الازدهار الحضارى بالاحتكام إلى الشريعة الإلهية . . وارتبطت فيه العقلانية الفلسفية بالتوحيد والفقهاء والكلام . . حتى لقد تحدث القرآن الكريم عن « الحكمة » ، التى هى : الإصابة فى غير النبوة - باعتبارها تنزيلا إلهيا ساقها الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان سبيلا من سبل هدايته ، كالتنزيل الحكيم ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ (١٧) . . فلم تعرف حضارتنا « الفعل » الكهنوتى الذى جاء « التنوير اللادينى » نفيا له وردا عليه ! . .

* * *

(١٥) الأعراف : ٥٤ . (١٦) البقرة : ٣٠ . (١٧) البقرة : ٢٣١ .

لكن . . ومع التسليم بذلك . . فهل هناك ما يمنعنا من استخدام مصطلح « التنوير » ؟ . .

إننا لاندعو إلى هذا الامتناع . . لكن شريطة أن نعى تميز وتغاير المضامين والمفاهيم التي يجب أن يحتويها هذا المصطلح - « التنوير » - عندما نستخدمه في السياق الثقافي الإسلامي . . فكما تتحد المصطلحات - كأوعية - في الأنساق الفكرية والحضارية المختلفة، مع تمايزها وتغايرها في المضامين والمفاهيم، كذلك يكون الحال مع مصطلح « التنوير » . . فوجود « تنوير غربي »، له السمات الخاصة التي أشرنا إلى أهمها، لا يمنع من الحديث عن « تنوير عربي إسلامي »، تتحدد مضامينه ومفاهيمه وفقا للمرجعية الحضارية الإسلامية المتميزة عن المرجعية الغربية . .

إن القرآن الكريم يحدثنا عن أن الله، سبحانه وتعالى: « نور » السموات والأرض ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (١٨) . .

والقرآن الكريم « نور » ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ (١٩) . . والإسلام « نور » ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (٢٠) . .

والرسول ، ﷺ « نور » ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٢١) . . والحكمة - التي هي « الإصابة في غير النبوة - « نور » . . وفي الحديث الشريف : « . . فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة » (٢٢) . .

(١٨) النور : ٣٥ . (١٩) التغابن : ٨ . (٢٠) البقرة : ٢٥٧ .

(٢١) المائدة : ١٥ . (٢٢) رواه الإمام مالك في [الموطأ] .

والصلاة « نور » . . وفي الحديث الشريف : « الصلاة نور المؤمن » (٢٣) . .
فالمستنير بنور الله والقرآن والإسلام والرسول والحكمة والصلاة ، له « تنويره
الإسلامي » الجامع بين مصادر « معرفة تنويرية » متميزة . . فهو « تنوير
مؤمن » بالله ورسوله ودينه وكتابه ، وجامع إلى هذه المصادر الإلهية للتنوير
الإسلامي المؤمن « نور الحكمة » - التي هي الإصابة في غير النبوة - أي
الصواب البشري القائم على العقل الإنساني والتجربة الإنسانية ، وعلى
« البصيرة » التي توقد مصابيحها في القلب الإنساني عبادة الحكيم لأحكام
الحاكمين! . .

فنحن ، إذن ، أمام « تنوير إسلامي » متميز . . لتمييز الإسلام . . ونسقه
الفكري . . وتطور حضارته . . إنه ثمرة إسلامية خالصة وخاصة . . وليس ،
كالتنوير الغربي ، رد فعل ناقد وناقض للدين! . .

* * *

لكن . . وحتى لا تكون هناك شبهة ظلم منا لإخواننا العلمانيين ، الذين
يبشرون فينا « بالتنوير » سبيلا « لمواجهة » المشروع الإسلامي والصحوة
الإسلامية . . لنسأل :

أليس محتملا أن « التنوير » الذي يدعون إليه « عربي - إسلامي » ، لا
ينقض ديننا - كما نقض « التنوير الأوربي » نصرانية الكنيسة الأوربية؟! . .

وحتى نجيب على هذا السؤال ، لابد لنا من استحضار صورة وعناصر
الفرقاء الذين دار ويدور بينهم الجدل والحوار وأحيانا الصراع حول هذا
الموضوع . .

● موقف الكنيسة الأوربية ، إبان سلطانها على الدولة وتسلطها على الفكر

(٢٣) رواه مسلم .

والعلم وميادين الاجتماع البشرى كافة . . وهو الموقف الذى جعل النصرانية - وفق لاهوت الكنيسة - نقيضاً، وليس فقط بديلاً، « للعقل » و« العلم » و« الفلسفة » . . فلقد أقامت نصرانيتها على « الخوارق » لنواميس الكون وقوانين الاجتماع وحقائق العلم . . وجعلت الكهانة والعصمة لرؤساء الدين باباً للنجاة والإفلات من قواعد وضوابط وقوانين العلم والعقل والناس . . ودعت الناس إلى الزهد فى الدنيا، بينما امتلكت كنيستها مع أمراء الإقطاع الأرض والأموال ورقاب العباد . . وقدمت الكتاب المقدس بديلاً للعلوم جميعها، بما فيها العلوم الطبيعية والإنسانية . . وبعبارة « تيرتورليان » Tertullianus [١٦٠ - ٢٢٠م] : « فإن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية، ودليل صحة هذه الكتب قِدَمُها . . . وأساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة . وإن الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط، بل علّمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون . والكتاب المقدس يحتوى من العرفان على المقدار الذى قُدِّرَ للبشر أن ينالوه » (٢٤) ! . .

ففى هذا النص، الذى كتبه أفضل من فهم النصرانية الأوربية وأقوى من دافع عنها، نجد « الدين » بديلاً عن « العلم »، و« الوحي » بديلاً عن « الكون »، و« قِدَم » النص بديلاً عن « العقل » ! . . فكل شئون وعلوم المعاش والمعاد، الدنيا والآخرة، قد جمعت فى الكتاب المقدس . . وهى تؤخذ منه بالتسليم، ودون حاجة إلى مراجعة أو فحص من العقول ! . .

أما القديس « أنسلم » Anselme [١٠٣٣ - ١١٠٩م] - رئيس أساقفة « كنتربرى »، وأحد مؤسسى الفلسفة المدرسية - فإنه يؤكد هذا الموقف النصرانى الكنسى . . موقف « غناء العقيدة واستغنائها، ابتداءً، عن العقل والفهم » . . وذلك عندما يقول : « يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده]، ج ٣، ص ٢٦٣. دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة بيروت، سنة ١٩٧٢.

بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت . فليس الإيمان ، وهو الوسيلة المفردة إلى النجاة، في حاجة إلى نظر العقل . والكون وما فيه لا يهتم المؤمن أن يجيل فيه نظره « (٢٥) ١١ . .

هذا هو موقف الكنيسة الأوربية، الذى وضعت في التطبيق، فأدخلت بسببه أوربا عصورها المظلمة . . الدين : نقيض وبديل للعقل والعلم والفلسفة والكون . .

فلما وضعت الكنيسة دعاة النهضة والإحياء أمام هذا الموقف، اختاروا النقيض . . اختاروا العقل والعلم والفلسفة والكون ، بدلا من الدين والله والسماء، بل وجعلوها آلهة التنوير التى أحلوها محل الله والدين واللاهوت ! . . هكذا كان الخيار على جبهة التطور الحضارى فى « النصرانية الغربية » . . وعلى هذا النحو، عرضت « الثنائية »، وتم الاختيار الذى افترقت به السبل بين « أهل الدين » و « أهل التنوير » . .

● فهل هناك وجه شبه بين « الحالة الأوربية » هذه، وبين « الحالة الإسلامية »، حتى يكون هناك مبرر لاستدعاء « التنوير الغربى »، بآلهته المعروفة، بدلا عن الإسلام وإلهه وقرآنه؟؟ . . لننظر . .

إن الإسلام لم يعرف ثنائية التقابل ، فضلا عن التناقض، بين « العقل » و « النقل » . . بل هو يقدم « العقل » على « النقل »، تقديم ترتيب لا تقديم تشريف . . ذلك أن سبيل معرفة الله فيه هو العقل . . وبعد الإيمان العقلى بالله، تأتى مرحلة التصديق بالرسول - بواسطة الأعلام والمعجزات - . . ثم تأتى بعد الإيمان بالرسول مرحلة الإيمان « بالنقل » . . فحجية « النقل » متوقفة على صدق « الرسول » . . وصدق « الرسول » متوقف على وجود « الله »، الذى أرسل الرسول . . ووجود « الله » سبيل الإيمان به « العقل » . . فكأنما الإيمان والدين والإسلام بكامله مؤسس على « العقل » !! . .

(٢٥) المصدر السابق . جـ ٣، ص ٢٦٢ .

والإسلام لم يعرف المقابلة، فضلاً عن التناقض، بين « وحي السماء ونبأ الغيب » وبين « الكون وآياته وعلومه » . . . فقرآنه الكريم قد أقام المعرفة على مصدرين : آيات الله في الكون المنظور . . . وآياته في القرآن المقروء . . . وجعل «العقل» و«النقل» و«التجربة المحسوسة» و«الوجدان القلبي» سبلاً أربعة للمعرفة والهداية، تتكامل في تحصيل معارف وحقائق وعلوم « الوحي » و«الكون» جميعاً . .

وهذا القرآن الكريم هو الذى دعا الناس جميعاً إلى العقلانية والتعقل فى تسع وأربعين آية من آياته . . . ودعا إلى «فقه القلوب» فى مائة واثنين وثلاثين موضعاً . . . وزكى أولى الأبواب - العقول، لأن العقل هو لب الإنسان، أى جوهره - فى ستة عشر موضعاً . . . وعبر عن العقل بالنهاى - لأنه يُنتهى إلى ما أمر به ولا يُعَدَى أمره (٢٦) - فى آيتين . . . ودعا إلى التفكير فى آيات الله المتلوة بالقرآن، والمنظورة فى الأنفس والآفاق، فى ثمانية عشر موضعاً . . . واستنفر الناس أن يفقهوا فى عشرين آية من آياته . . . ودعا إلى التدبر فى أربع آيات . . . وإلى الاعتبار فى سبع آيات . . . وإلى الحكمة فى تسعة عشر موضعاً . . . فكأنه قدم للعقلانية الإسلامية - بالنص والتصريح - « ديواناً » يبلغ تعداد آياته فى سورة مائتين وسبعاً وستين آية من آيات هذا القرآن الكريم !!

وغير المعتزلة - فرسان العقلانية الإسلامية - نجد السلفى شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ، ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] يجعل من عبارة : « درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول » عنواناً لأحد كتبه !! والغزالى الأشعرى ، حجة الإسلام [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ، ١٠٥٨ - ١١١١ م] هو الذى جعل العقل « أساساً » والشرع « بناءً » ، ولا يصلح بناء لا أساس له . . . وجعلهما نورين لا تتأتى المعرفة الحقة إلا إذا اجتمعا ، « فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والأذواء ، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق

(٢٦) انظر (لسان العرب) ، لابن منظور .

بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى بأحدهما عن الآخر، في غمار الأغبياء .
فالمعرض عن العقل مكثفيا بنور القرآن، مثاله: المعرض لنور الشمس
مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان . فالعقل مع الشرع نور على
نور» (٢٧)!! . . .

والإمام محمد عبده، المجدد [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]
هو القائل عن أصول الإسلام: «إن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر
العقلى . والنظر عنده - [عند الإسلام] - هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد
أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل . ومن قاضاك إلى حاكم،
فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟ . . .
ولقد اتفق أهل الملة الإسلامية - إلا قليلا ممن لا ينظر إليه - على أنه إذا تعارض
العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل . وبقي في النقل طريقان: طريق
التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى
الله في علمه . والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة،
حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبهذا الأصل، الذى قام على الكتاب
وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ، مُهَّدَت بين يدي العقل كل سبيل،
وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد . . » (٢٨) .

وعن جعل الإسلام الاعتبار بسنن الله في الكون أصلا من أصول
الإسلام، يسوق آيات القرآن الكريم . ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في
الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢٩) . ﴿ سنة مَن قد أرسلنا قبلك
من رسلنا ولا تجد لستتنا تحويلا ﴾ (٣٠) . ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن
تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ (٣١) . ﴿ أولم يسيروا في الأرض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾؟ (٣٢) . . ثم يقول: « في هذا

(٢٧) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٢ ، ٣ . طبعة القاهرة، المكتبة المحمودية التجارية - محمود
على صبيح - بدون تاريخ .

(٢٨) [الأعمال الكاملة]، ج ٣، ص ٢٨٢ . (٢٩) آل عمران : ١٣٧ .

(٣٠) الإسراء : ٧٧ . (٣١) فاطر : ٤٣ . (٣٢) الروم : ٩ .

يصرح الكتاب أن الله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل ، والسنن : الطرائق الثابتة التي تجرى عليها الشئون ، وعلى حسبها تكون الآثار ، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها بالقوانين . . إن نظام الجمعية البشرية ، وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ، ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل ، فلا ينتظر إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، أتى بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه . . » (٣٣) .

والإمام حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ، ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] ، الذي انتقل باليقظة الإسلامية من إطار « الصفوة » إلى « الجماهير » ، هو القائل : « قد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا في القطعي ، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار . . والإسلام لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول . . بل جاء يحمر العقل ، ويحث على النظر في الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء ، » « والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » (٣٤) . . وإذا كان العقل البشري قد تذبذب بين :

١ - طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب . .

٢ - وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول . .

فإن هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح ، وغلو فاحش ، وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان . فلقد جاء الإسلام الحنيف يفصل

(٣٣) [الأعمال الكاملة] ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٣٤) حديث نبوي ، رواه الترمذي وابن ماجه .

القضية فصلا حقا . . فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل . . إن المجتمع الإنساني لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله . . فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء ، وتنتفع بها فى الوجود من خيرات وميزات . . فإلى هذا اللون من التفكير، الذى يجمع بين العقليتين : الغيبية والعلمية، ندعو الناس . . » (٣٥) !

ذلك هو الموقف على الجبهة الإسلامية . . موقف الإسلام من « العلم » و« العقل » و« الفلسفة » . . وهو الذى جعل « النظر » و« التفكير » و« التدبر » و« التعقل » و« الاعتبار » : أولى الفرائض الإلهية على الإنسان . . ولهذا الموقف، المغاير تماما - بل والمناقض - لموقف النصرانية الغربية ، كان للمسلمين « تنوير إسلامى » ، عبد أعلامه الله ، سبحانه وتعالى ، وآمنوا برسوله ، ﷺ ، وانطلقوا، مسلحين بالعقل والعلم والحكمة ينظرون فى آيات الله المتلوة، فى كتابه المقروء، وفى آياته المنظورة، فى الأنفس والكون والآفاق . .

فهل إلى هذا « التنوير الإسلامى » يدعونا إخواننا الذين جعلوا من « التنوير » شعارا « للمواجهة » مع المشروع الإسلامى ؟ . . !

أم أنهم ، لإمامهم بمذاهب الغرب، وحسن ظنهم بها، ولضعف مداركهم بالعلم القومى والتراث الإسلامى ، وسوء ظنهم بهما - جهلا أو تأثرا بكتابات الخصوم - . . أم أنهم ، لهذه الأسباب - وماشابهها - قد حسبوا إسلامنا هو « النصرانية الغربية » ، فأروه « المشكلة » التى لا حل لها إلا باستدعاء « التنوير الغربى » كى « يواجهها » ؟ . . !

فى الإجابة عن هذا السؤال . . عن طبيعة ونسب « التنوير العلمانى » الذى يقرع أسماعنا هذه الأيام، لا نريد أن نظلم أحدا، ولا أن نبخس الناس أشياءهم . . ولذلك، فنحن نحتكم إلى نصوصهم هم . . نصوص الأساتذة الرواد، ونصوص التلامذة المقلدين، لنرى أى « تنوير » هذا الذى يدعونا إليه ؟ . . !

(٣٥) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا]، ص ٢٧١ ، ٢٩٤ ، ٢٧٠ ، ١١٠ - ١١٢ .

طبعة القاهرة - دار الشهاب . بدون تاريخ .

التنوير العلماني : في جيل «الرّواد»

لن يكون استخدام المفكر لمصطلح « التنوير » -قبولا أو رفضا - ولا رفعه لشعاره - محبذا له أو مفندا لإياه - هو معيار تصنيفنا لهذا المفكر من حيث الموقف من هذا التنوير . . فالمصطلح - كما سبق وأشرنا - يختلف مضامينه ، وإن اتحد لفظه ، باختلاف الحضارات . . . وإنما سيكون معيار الحكم على هذا المفكر أو ذاك بأنه من دعاة « التنوير » ، بالمعنى الغربى ، أو من دعاة « التجديد » ، الذى يمكن تسميته « تنويرا عربيا إسلاميا » . سيكون المعيار هو موقف المفكر من المضامين والمفاهيم والمقاصد التى تغياها فلاسفة التنوير الغربى ، والتيار الفكرى الذى تبلور وساد فى النهضة الغربية منذ القرن الثامن عشر الميلادى . . وهى المضامين والمقاصد التى طبعت التنوير الغربى بالعلمانية ، التى أصبحت أهم مايفرق بين تلك الحضارة وخضارة الإسلام . .

وهذه المفاهيم « التنويرية العلمانية » ، التى ميزت « التنوير الغربى » ، يأتى فى مقدمتها :

١ - نزع القداسة عن المقدسات الدينية . . ومنها الوحي والكتب المقدسة . . وإخضاعها فى الدرس لمعايير دراسة النصوص البشرية الخالصة فى بشريتها . .

٢ - النظر إلى الدين باعتباره شأنا فرديا خاصا ، قد يفيد فى تقويم الأخلاق الفردية . . مع عزله عن كل ميادين العمران الاجتماعى ، سواء فى

المعارف والعلوم أو في التطبيقات المدنية والثقافية لهذه المعارف والعلوم . .
وجعل المرجعية في شئون العمران البشرى للواقع والدنيا، التي تدرك
نواميسها وتعرف حقائقها وعلومها ببراهين العقل وتجارب الحواس
وحدّهما . .

٣ - النظرة التاريخية إلى الدين . . أى اعتبار علاقته بالعلم، وتوافقه معه،
مرحلة تجاوزها التاريخ . . ومن ثم رفض تعايش العلم والدين تعايش وحدة
وتآزر - وليس تعايش مجاورة وانفصال - . . أى رؤية الإسلام وكأنه نصرانية
الغرب، التي تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . والتي ناقضت العلم
وخاضت ضده المعارك الشرسة . . مع معاملة القرآن كما عامل فلاسفة
التنوير الغربيون كتابى النصرانية واليهودية: العهد الجديد . . والعهد
القديم . .

٤ - وتأسيسا على هذه المقولات، التي تجعل الإسلام نصرانية غربية . .
وتجعل تطورنا الحضارى هو ذات التطور الحضارى الغربى . . يدعو
«التنويريون العلمانيون» العرب والمسلمين إلى تبني نموذج الغرب في التقدم
والنهضة والإحياء . . فطالما كانت « مشكلات التخلف » واحدة، أو
متشابهة، فلا بد وأن تتوحد الحلول . . حلول النهضة بيننا وبين الغربيين . .
وتحت هذه الدعوى، أنكر وينكر « التنويريون العلمانيون » « التغدية في
الحضارات الإنسانية »، وغضوا من شأن «الخصوصيات الحضارية» التي
ميزت وتميز بين « الهويات » الحضارية المختلفة . . ووقفوا عند التمايز في
درجات سلم التحضر، داعين العرب والمسلمين إلى « اللحاق » بالغرب،
بذات الآليات والوسائط، لتحقيق ذات المقاصد ونفس الغايات . .

تلك هى أبرز مضامين « التنوير العلمانى »، كما بشر بها دعائه ومفكروه
في بلادنا . . وتلك هى مقولات رواده، التي لايزال تلامذتهم متعلقين بها
حتى الآن . . وبها سيكون تمييزنا بين أنصارها وخصومها، فرزا للأوراق،

وتمييزا للصدق عن الكذب ، وللتجديد الإسلامى عن التغريب العلمانى فى هذا الميدان! . .

وإذا كانت حياتنا الفكرية ، فى المائة عام الماضية ، قد شهدت - وخاصة فى عقود الانبهار بالحضارة الغربية - العديد من رواد الفكر والثقافة الذين بشروا فى أمتنا بهذا «التنوير - الغربى - العلمانى» ، محاولين بذور بذوره فى أرضنا الفكرية ، وغرس مقولاته فى عقول الأمة . . فإننا سنختار - تجنباً للإطالة - ثلاثة من جيل هؤلاء الرواد . . اتفقوا فى المقولات والمقاصد . . وتمايزوا فى النوايا والأسلوب . . سنختار نموذج « علمنة الإسلام » - كما تمثل فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، للشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ، ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] - مع عرض للجدل الدائر حول المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب . . وهل هو على عبد الرازق؟ أم الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] ؟ . . ونموذج سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ ، ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] . . ونموذج الدكتور طه حسين . .

لنعرض لهذه المقولات « التنويرية - الغربية - العلمانية » فى المشروع الفكرى لكل منهم . . وذلك تمهيداً لسبر غور دعوة « تلاميذ » هؤلاء « الرواد » ، من الذين يستدعون هذا « التنوير - العلمانى » لمواجهة المشروع الإسلامى ، وذلك حتى نتبين حقيقة دعوة هؤلاء « التلاميذ » . . وهل هى « مواجهة للإسلام » ومشروعه النهضوى الحضارى المتميز ، كما كان الحال مع روادهم « التنويريين - المتغربين - العلمانيين » ؟ . . أم أنهم دعاة مواجهة للجانب المتخلف والجامد والمظلم من الطرح الفكرى الذى يقدمه فصيل أو أكثر من الرافعين لرايات وشعارات الإسلام ؟ . .

فسبر الغور لحقيقة « تنوير » التلاميذ ، سيحدد مكان دعوتهم ، وحقيقة روادهم وأساتذتهم ، ومن ثم ماهية مرجعيتهم الحقيقية فى الدعوة إلى «التنوير» : هل هى المرجعية الغربية ، التى جاءتهم عبر أعلام ، مثل طه

حسين وسلامة موسى؟! . . أم هي المرجعية الإسلامية، التي جاءت عبر
رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ، ١٨٠١ - ١٨٧٣م]، وجمال الدين
الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧م]، والإمام محمد عبده
[١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]؟ ذلك أن هؤلاء التلاميذ قد
وضعوا - فى خضم « حملتهم التنويرية » - كل هذه الأسماء فى « سلة واحدة »،
الأمر الذى جعل « تنويرهم » - كما ستثبت صفحات هذه الدراسة - « تزويرا »
لأعلاقة له بما نقهه نحن العرب والمسلمين من مصطلح « التنوير » !! . .

١- علمنة الإسلام .. والعمران

فى سنة ١٩٢٣ م، عقدت معاهدة « لوزان » بين تركيا والحلفاء الغربيين - حلفاء الحرب الاستعمارية العالمية الأولى - واليونان . . وهى المعاهدة التى قننت وضع تركيا - ما لها وما عليها - بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى . . وكانت « تسوية » أوضاع ولايات الدولة العثمانية قد تمت باتفاقية « سيكس - بيكو » سنة ١٩١٦ م، و« وعد بلفور » سنة ١٩١٧ م . . فسقطت كل أقاليم دولة الخلافة الإسلامية فى قبضة الاستعمار الغربى . . وجاءت معاهدة « لوزان » لتحدد وضع « تركيا »، بعد توزيع أقاليم خلافة العثمانيين . .

وإذا كانت « العبرة » فى المعاهدات كثيرا ما تتجاوز « المنصوص عليه » فيها إلى « الخطوط الحمراء » التى لا توضع عادة فى « مواد النصوص »، فإن العام التالى لتوقيع المعاهدة - سنة ١٩٢٤ م - قد شهد إلغاء الخلافة، وطى صفحة الوعاء التوحيدى ورمز الجامعة الإسلامية، لأول مرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين! . . والأمر الذى لا شك فيه أن هذا الحدث قد حقق حلما غربيا سعى إليه الغرب منذ عهد هرقل [٦١٠ - ٦٤١ م] وأبى بكر الصديق! . .

صحيح أن الخلافة كانت قد تهرأت ، حتى غدت « وعاء » بلا مضمون فاعل، و« رمزا » لا يحقق « فعلا » فى أرض الواقع . . لكن الغرب، الذى حرس ضعفها، وزاد فى أمراضها، لم يكن ليرضى - بعد انتصاره فى الحرب العالمية الأولى - بأقل من تحطيم « الوعاء » وإزالة « الرمز »، حتى لا يبقى للمسلمين أمل فى ترميم الوعاء وملئه بالمضامين الفاعلة، فيتحول « الرمز » إلى

راية جامعة للأمم في صراعها الحضارى والتاريخى مع الغرب من جديد!! . .
 لقد حقق الغرب، على أرض « الواقع العملى » هذا « الحلم التاريخى » . .
 وكان لا بد من « تبرير الواقع بالفكر »، واستبدال « علمانية الدولة » بـ
 « إسلاميتها »، وخلق وفاق بين الثقافة الإسلامية « العصرية » وبين « الدول
 القطرية العلمانية » التى أقامها الاستعمار على أنقاض الخلافة التى عرّفها
 علماء الإسلام، على مر تاريخهم، بأنها السلطة والدولة الجامعة بين سياسة
 الدنيا وحراسة الدين، والتى تسوس الدولة بالسياسة الشرعية . . كان مطلوبا
 - بعد إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م - فك الارتباط بين « الحكومة »
 و« الشريعة » . . بين « الدولة » و « الدين » . . طالما أن أحدا لم ولن يستطيع - فى
 الواقع الإسلامى - إلغاء « الشريعة » . . والدين!! . . كان مطلوبا استدعاء
 « التنوير - الغربى - العلمانى » لعزل دين الإسلام عن دنيا المسلمين، ولجعله
 شأنا عقديا وشعائريا خاصا بين الفرد وخالفه، وإنهاء مرجعيته لنظامات
 العمران البشرى، وجعل المرجعية فى النظامات العمرانية - سياسة واجتماعا
 واقتصادا وعلوما ومناهج بحث . . إلخ . . إلخ . . - فقط « للعقل . .
 والتجريب »، دون إشراك « للنقل والوحى ونبا الغيب وأحكام السماء » مع
 العقل والتجريب فى مرجعية الحياة الدنيا . . وباختصار، كان مطلوبا
 استدعاء « التنوير - الغربى - العلمانى » إلى الواقع الفكرى الإسلامى، ليصنع
 مع الإسلام ماصنعه - فى أوربا - مع النصرانية الأوروبية، عندما ردها إلى
 الكنيسة، واحتبسها فيها، و« حرر » العمران والنهضة من المرجعية
 الدينية!! . .

ولقد كان كتاب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ، ١٨٨٧
 - ١٩٦٦م] [الإسلام وأصول الحكم] التجسيد لهذا الموقف الفكرى « التنويرى
 - الغربى - العلمانى »، غير المسبوق فى فكر المسلمين وتاريخهم الطويل!! . .
 ففى هذا الكتاب، الذى صدر سنة ١٩٢٥م - فى العام التالى للإلغاء

الخلافة - صور الرجل الإسلام نصرانية ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . .
وتصوره ديناً لا دولة ، ورسالة دينية وروحية خالصة ومبرأة من معانى الملك
والسياسة والحكم . . حتى لقد جعل محور كتابه ذلك الباب الذى جعل
عنوانه : «رسالة لا حكم ، ودين لا دولة» ! . .

وتصور الخلافة الإسلامية ، منذ نشأتها ، «كهانة - استبدادية» ، حتى
لكأنها الدولة البابوية الأوربية ، التى حكمت بالحق والتفويض الإلهيين ! . .
وأنكر أن يكون رسول الإسلام ، ﷺ ، قد أقام دولة أو أنشأ حكومة ، أو
ساس مجتمعا ، أو طبق شريعة فى أمة . . فتصوره مجرد مبلغ ، كالحالين من
الرسلى ! . .

وبعد أن وضع إسلامنا وخلافتنا وتاريخنا فى قوالب الغرب النصرانى
ودولته البابوية . . فنقل « المشكلة الغربية » إلى « واقعنا » - كما تصوره . .
تقدم « بالحل الغربى » - الحل « التنوير - العلمانى » ، باعتباره الحل الطبيعى
لواقع المسلمين . . فطالما أن « المشكلة » واحدة ، فلم لا يكون « الحل »
واحداً ؟ . . وهو « التنوير - الغربى - العلمانى » ، الذى يرد الإسلام إلى إطار
العلاقة الفردية الخاصة بين الإنسان وخالفه ، والذى يعزله عن كل ميادين
ال عمران البشرى ، التى جعل مرجعيتها - كما صنع التنويريون الغربيون -
« للعقل والتجريب » وحدهما ، دون « نقل أو وحى أو شريعة أو دين » . . !

تلك كانت محاور هذا الكتاب ، ورسالته . . من أول فقرة فيه إلى آخر ما
فى صفحاته من فقرات^(١) !

● فلا دخل للمرجعية الإسلامية فى تحديد سياسة الحكومة وطبيعتها
وهويتها . . وإنما المرجعية للعقل والتجريب . « فى أى صورة كانت
الحكومة ، ومن أى نوع ، مطلقة أو مقيدة ، فردية أو جمهورية ، استبدادية أو

(١) انظر [الإسلام وأصول الحكم] ، الفقرة (١٢) ، ص ١٠٣ . الطبعة الأولى ، سنة ١٩٢٥ م .

شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية..»^(٢). فكل المرجعيات غير الإسلامية واردة.. والمرجعية الوحيدة المرفوضة هي المرجعية الإسلامية.. وكل الحكومات مقبولة - بالعقل والتجريب - إلا الحكومة الإسلامية، لأن الإسلام مستبعد من مرجعية الحكم وشئون الدنيا وتنظيم العمران البشرى!!..

● وانطلاقاً من هذه الدعوى المحورية.. مصى الشيخ على عبد الرازق - كما صنع «التنويريون - الغربيون» مع «اللاهوت - النصراني» - فأدان فكر علماء الإسلام القائل بوجوب «الخلافة والإمامة» وجوباً دينياً.. وصور فكرهم وكأنه «لاهوت الحكم بالحق الإلهي».. وزعم «أن الخليفة عندهم يقوم في منصبه مقام الرسول، ﷺ.. وينزل من أمته بمنزلة الرسول من المؤمنين.. فولايته كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم.. بل لقد رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية»^(٣)!!..

هكذا صور الخلافة الإسلامية «بابوية - نصرانية» لها عصمة إلهية، تتحدث باسم السماء، وتجلس غير بعيد من مقام العزة الإلهية!!.. ليخلص إلى القول بأن هذه الخلافة - على مر تاريخها، وحتى في عهد الراشد - «لم تركز إلا على أساس القوة الرهيبة»!!^(٤).

● وفي الباب الذي عقده الشيخ تحت عنوان «رسالة لا حكم، ودين لا دولة».. صور رسول الإسلام، ﷺ، مجرد مُبَلِّغ لرسالة روحية، لا علاقة لها بالسياسية.. ولا علاقة له بالحكم والدولة.. فمحمد ﷺ «ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة.. ولم

(٢) المصدر السابق . ص ٣٥ . (٣) المصدر السابق . ص ٢ - ٨ .

(٤) المصدر السابق . ص ٢٥ .

يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها .
ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس
دولة ، ولا داعيا إلى ملك !

وعن علاقة الإسلام بالسياسة ، تصوره نصرانية ، يدع ما لقيصر لقيصر
وما لله لله . . ورفع شعارا قال فيه : « يا بعد ما بين السياسة والدين » ! . .

● وبعد أن أنكر إقامة الرسول ، ﷺ ، لدولة أو حكومة ، وسياسته
لمجتمع وأمة ، وإقامته لنظام وحكم . . ذهب فأتى بآيات القرآن الواردة في
« الاعتقاد الدينى القلبى » - أى الإيمان القلبى - وهى الآيات التى ألحت على
أنه لا إكراه فى الدين . . وعلى أن الرسول ما عليه إلا البلاغ . . فليس بوكيل
ولا مسيطر ولا حفيظ : ﴿ لست عليكم بوكيل ﴾ ^(٥) . ﴿ فما أرسلناك عليهم
حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ ^(٦) . ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ ^(٧) . . أتى
بهذه الآيات ليستدل بها على عدم وجود سلطة إسلامية فى الدولة والسياسة ،
متجاهلا آيات « الحكم » . . ومتجاهلا وجود « الشريعة » - مع العقيدة -
والتي يقتضى تشريعها وجوب سلطة تقيمها ، وإلا كان تشريعها عبثا ! . .
ومتجاهلا واقع إقامة الرسول لهذه الشريعة قانونا للدولة والأمة والرعية
والمجتمع الذى قام فى المدينة بعد الهجرة . . متجاهلا الواقع الذى تلقته
الدنيا - مسلمة وغير مسلمة - بالتصديق والقبول . . والفكر الذى أجمعت
عليه الدنيا - مسلمة وغير مسلمة - من أن الإسلام دين ودولة . . وأن رسوله
قد تميز عن الخالين من الرسل بإقامته للدولة ! . .

تجاهل الكتاب كل ذلك - ولا نقول جهله - ! ! وقال فى « ثقة » غريبة ،
و« ادعاء » أكثر غرابة : « ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى لم يكن له
شأن فى الملك السياسى ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز

(٥) الأنعام : ٦٦ . (٦) الشورى : ٤٨ . (٧) الغاشية : ٢٢ .

حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان . . لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل . . ولم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس . . وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به ، ولا أن يحملهم عليه . . كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشىء من الحكم . هيهات هيهات ، لم يكن ثمة حكومة ، ولا دولة ، ولا شىء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء»^(٨)!! . .

● ولقد ذهب صاحب [الإسلام وأصول الحكم] إلى الواقع التاريخي ، الذى صنعه الإسلام فى أرض الواقع ، على عهد رسول الله ﷺ . . واقع «الوحدة» التى أقامها الإسلام ورسوله . . فعاند هذا الواقع ، وأنكر حقائقه الصلبة والعنيدة ، وادعى عليه نقيضه وضده . .

فالإسلام قد أقام دولته التى «توحدت رعيته السياسية» ، و«تعددت دياناتها» ، عندما ضمت : «الجماعة - الأمة - المسلمة» و«الجماعة - الأمة - العربية المتهودة» ، ضمتهما فى «جماعة - أمة - سياسية واحدة» ، فأنجز الإسلام وحدة الدولة ، ووحدة أمة الدولة ، مع الاحتفاظ بالتعددية فى الجماعات الدينية داخل الرعية السياسية الواحدة ، فجمع بذلك بين «الوحدة» و«التعدد» على النحو الأرقى الذى تصبو إليه الدول الراقية حتى فى هذا العصر الذى نعيش فيه . .

وسجل هذه الحقيقة «الدستور الواحد» لـ «الدولة الواحدة» . . والأمة الواحدة» - وهو الذى اشتهر فى وثائق عصر النبوة بـ «الصحيفة» . . و«الكتاب» . . فجاء فى «مواده» :

«المؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس» .

(٨) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٦٤ - ٨٠ .

« وأن يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » .

فسجل هذا « الدستور » ، بهاتين المادتين «وحدة الأمة - كرية سياسية واحدة - للدولة الإسلامية الواحدة» . . مع احتفاظ الجماعات الدينية المتميزة بدياناتها المختلفة . .

ثم تحدث هذا « الدستور » - ضمن حديثه عن الحقوق والواجبات بالنسبة لقبائل وطوائف الكرية - عن التمايز في إطار الوحدة بين اليهود والمسلمين ، فنصت مواده على :

« وأن يهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاريين . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه « الصحيفة » . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم » .

ثم نص الدستور على وحدة الدولة والسلطة والمرجعية لهذه الكرية الواحدة ، فقال :

« وأنه ما كان بين أهل هذه « الصحيفة » من حدث ، أو اشتجار يخاف فساد ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله . . » (٩) .

ذلك هو الدستور ، الذى جسد وحدة الأمة ، وقيام الدولة ، وتحدثت مواده عن : حدود الوطن . . والكرية . . والحقوق والواجبات . . والمرجعية . . بل وطبيعة السلطة فى الدولة . . فكون « المرد » و« المرجع » هو الله ورسوله ، يعنى إسلامية الدولة ، مع تعدد الديانات فى رعيتهما ، وذلك إعمالاً للنص القرآنى المحكم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١٠) .

(٩) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة]، ص ١٥ - ٢١ . جمع وتحقيق : د . محمد حميد الله الحيدر آبادى - طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٦ م .

(١٠) النساء : ٥٩ .

ذلك هو واقع التاريخ ، الذى سجلت « وثائقه » - وليست آراء مؤرخيه !
- قيام « الدولة الواحدة » ، وتبلور « الأمة الواحدة » . .

لكن صاحب [الإسلام وأصول الحكم] يقفز على حقائق هذا الواقع التاريخي ، ليدعى أن الإسلام أقام « أمة دينية » و« وحدة دينية » ، لكنه لم يقم « دولة » ولا « أمة سياسية » . فلقد ظل العرب « أمما شتى ، ودولا متباينة » ، من حيث السياسة والحكم والقانون والإدارة والسلطان ! . . فيقول : إن « تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبى عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه ، ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة ، بل لم تعد أبدا أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة ؛ وحدة الإيمان والمذهب الدينى ، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك . يدللك على هذا سيرة النبى ﷺ . فما عرفنا أنه تعرض لشيء من سياسة تلك الأمم الشتية ، ولا غير شيئا من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى . . ولا سمعنا أنه عزل واليا ، ولا عين قاضيا . . إنهم كانوا دولا شتى ، على قدر ما تسمح به حياة العرب ، يومئذ من معنى الدولة والحكومة . تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى . وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلا . . » (١١) .

وإذا كنا قد أشرنا إلى بعض مواد الدستور - الكتاب . . الصحيفة - الذى وضعه الرسول ﷺ ، ليحدد حدود الوطن ، وقبائل الرعية ، ودياناتها ، وحقوقها وواجباتها ، فى السلم والحرب ، وليحدد لها المرجعية والسلطة ، وطبيعتها . . وهو الدستور الذى بدأ بعبارة : « هذا كتاب من محمد النبى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . . » . أى أنه « تعاقد دستورى » ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، حتى فى عصرنا الراهن ! ! . فإننا أمام هذه الدعوى العريضة ،

(١١) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٨٣ - ٨٥ .

لصاحب [الإسلام وأصول الحكم] ندعو، مرة أخرى ، إلى الاحتكام إلى واقع ووقائع التاريخ . . والتاريخ الذى بقيت لنا « وثائقه » - من المعاهدات . . والمكاتبات - وليس إلى « آراء » المؤرخين ! . .

فصاحب [الإسلام وأصول الحكم] يستدل على غيبة الدولة الإسلامية بدعواه أن الرسول لم يعين قضاة ، ولا ولاية على هذه الدولة وأقاليمها (١٢) . .

وفى أمر القضاء والقضاة ، نستلفت النظر إلى أنه هو - الشيخ على عبدالرازق - قد سبق وأورد النصوص التى تقول إن الرسول ، ﷺ « قد قلد القضاء لعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل » . . ولقد أضاف هو إلى هذه الأسماء ، الواردة فى النص الذى أتى به ، اسم أبى موسى الأشعرى . . وذلك فضلا عن جلوس الرسول ، ﷺ ، للقضاء بين الناس (١٣) . .

فهو الذى قد سبق ونقض دعواه : أن الرسول لم يعين قاضيا !! . .
أما تعيين الولاية على الأقاليم والنواحي والقبائل . . أو إقرارهم بعد إسلامهم . . أو استبدالهم إذا حدث ما يدعو إلى الاستبدال . . . فإنها صفحة من صفحات واقع « الدولة الإسلامية » ، على عهد رسول الله ، ﷺ ، سجلتها « الوثائق » و « المكاتبات » و « العهود » - التى نجت من عوادي الزمن - تحتاج وحدها إلى دراسة متخصصة ، ترسم خارطة للبلاد والنواحي والقبائل التى دخلت فى الإسلام على عهد النبى ، وتضع فيها وعليها أسماء الولاة الذين عينهم أو أقرهم الرسول القائل . . وأنا على يقين من أن هذه الخارطة الإدارية والسياسية وحدها كافية فى البرهنة على قيام أمة الإسلام ودولة الإسلام ، واحدة موحدة منذ ذلك التاريخ . .

(١٢) المرجع السابق . ص ٨٤ .

(١٣) المرجع السابق . ص ٤٠ .

إن هذه الصفحة، التى سجلتها «الوثائق»، كما قلنا، فى حاجة إلى دراسة متخصصة . . لكننا هنا سنقف عند معالم شاهدة على أن رسول الله ، من موقع القائد الحاكم، فى المدينة، قد عين الولاة على المدن والأقاليم والنواحي والقبائل، فى طول البلاد التى بلغها الإسلام وعرضها . . وليس فقط الولاة الذين شاعت ولايتهم فى كتب التاريخ - «عَتَّاب بن أُسَيْد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس» - على مكة سنة ٨ هـ - وهو الذى أقره أبوبكر على ولايته بعد وفاة الرسول ، . . و «بازان» - على اليمن - وابنه بعد وفاته (١٤) .

ففى [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] أكثر من مائة وثمانين «كتابا» و«عهدا» و«معاهدة» كتبها رسول الله ، إلى الولاة فى أقاليم الدولة وأنحائها ومضارب خيام قبائلها . . وفى هذه «المكاتبات» أسماء لعشرات الولاة، الذين عينهم النبى على البلاد والنواحي والقبائل، بل وحدد لهم حدود الولاية، والمياه، والزرع، والأرض، والقوانين المنظمة للمعاملات الدنيوية - إجمالا حيننا وتفصيلا دقيقا فى كثير من الأحيان - وقواعد العلاقة بين الوالى وقومه وبين «الآخرين»، مشركين كانوا أو من غيرهم . . وذلك فضلا عن قواعد وأحكام العلاقة مع عاصمة الدولة ورسالتها وأمرائها . . . ناهيك عن قواعد وأحكام العبادات . .

وإذا شئنا أمثلة من أسماء الولاة، الذين استغرقت مكاتبات الرسول معهم، فى هذه «الوثائق» أكثر من مائتى صفحة - وهى التى بقيت لنا من غوائل التاريخ على وثائقه! - . . فإننا نشير إلى ولاة ولاهم الرسول على أنحاء فى «البحرين»، منهم: «المنذر بن ساوى» . . و«العلاء بن الحضرمى» . . و«مشمرج بن خالد السعدى» . . ومن ولاة «اليامة»: «هوذة بن على» . .

(١٤) رفاعة الطهطاوى: [الأعمال الكاملة] . ج ٤، ص ٥٩٧، ٥٩٨ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة . طبعة بيروت، سنة ١٩٧٧ م.

و«مجااعة اللىامى» . . ومن ولالة «عمان» : «جىفر بن الجلىندى» . . و«عبد بن الجلىندى» . . ومن ولالة «بنى الحارث» : «يزىد بن الطفيل الحارثى» . . و«عبد يغوث بن وعله الحارثى» . . و«يزىد بن المحجل الحارثى» . . و«عاصم بن الحارث الحارثى» . . ومن ولالة «بنى نهذ» : «طهفة النهدى» . . و«قىس بن الحصين ذى الغصّة» . . ومن ولالة «اللىمن» ، بأنحائها - وذلك غير اللذين عىنوا من العاصمة - مثل على بن أبى طالب . . ومعاذ بن جبل . . هناك من أبناء مائها ونواحيها وقبائلها ، الولاية : «عمرو بن حزام» فى «نجران» . . و«الحارث بن عبد كلال» . . و«نعىم بن عبد كلال» . . والنعمان : قىل ذى رعىن ، ومعافر ، وهمدان - فى «همىر» . . و«زرعة بن ذى يزن» . . و«فهد الحمىرى» . . و«عمىر ذى يزن» - فى «همدان» . . و«قىس بن مالك الأرحبى» - فى «همدان» . . و«مالك بن النمط» - فى «همدان» . . و«ضىام بن زىد» - فى «همدان» . . و«قىس بن نمط الأرحبى» - فى «همدان» . . و«عك ذوخوان» - فى «اللىمن» . . و«معدى كرب بن أبرهة» - فى «خولان» . . و«خالد بن ضمار الأزدى» - فى «الأزد» . . و«جنادة الأزدى» - فى «الأزد» . . و«ظبىان بن عمىر بن الحارث الأزدى» - فى «الأزد» . . و«ربىعة بن ذى المرحب الحضرمى» - من «حضر موت» . . و«وائل بن حجر الحضرمى» - من «حضر موت» . . و«المهرى بن الأبيض» - من «أهل مهرة» . . إلخ . . إلخ . . إلخ . .

تلك بعض من أسماء الولاية ، اللذين بقىت لنا وثائق وكتب تولية الرسول ، ﷺ ، لهم على القبائل والنواحى والمدن والأقالىم . . وهى صفحة من الواقع التارىخى للدولة الإسلامىة الأولى ، يقفز عليها - جاهلا لها . . أو متجاهلا إياها - كتاب [الإسلام وأصول الحكم] عندما يدعى أنه لم تكن دولة ، لأن رسول الله ، ﷺ ، لم يعىن ولالة ! ! . .

أما إذا نحن تأملنا سطورا من هذه الوثائق «الإدارىة» ، التى حددت

للولاة نطاق الولاية، وممتلكاتها، وماذا لأهلها، وماذا لعاصمة الدولة، وقواعد وقوانين وضوابط وأحكام المعاملات الدنيوية والدينية . . وأيضاً علاقة الولاية بالجيران و«الآخر الدينى» . . إذا شئنا سطوراً شاهدة على فكر «الإدارة- السياسية» و«السياسة- الإدارية» للدولة الإسلامية، كما حددتها مكاتبات الرسول ﷺ، إلى الولاة وقبائلهم . . فإننا واجدون :

١- فى كتاب النبى إلى أهل « عمان والبحرين » : « . . وإن لهم ما أسلموا عليه، غير أن مال بيت النار، ثنياً لله ورسوله، وإن عُشور التمر صدقة، ونصف عُشور الحب . وإن للمسلمين نصرهم ونصحهم، وإن لهم على المسلمين مثل ذلك . وإن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا » . .

٢- وفى كتاب النبى بتولية العلاء بن الحضرمى على قبيلة عبد القيس - فى البحرين - نقراً : « . . والعلاء بن الحضرمى : أمين رسول الله على برّها، وبحرها، وحاضرها وسراياها، وماخرج منها . وأهل البحرين خُفراؤه من الضيم، وأعوانه على الظالم، وأنصاره فى الملاحم، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، لا يبدلوه قولاً، ولا يريدوا فرقة . ولهم على جند المسلمين الشركة فى الفىء، والعدل فى الحكم، والقصد فى السيرة . حكم لا تبديل له فى الفريقين كليهما . والله ورسوله يشهد عليهم . . » . .

٣- وفى كتاب النبى إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى - فى عمان - نقراً تعليق بقائهما فى الولاية على إسلامهما . . وإلا عزلهما رسول الله ﷺ : « . . إنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل، ونخيل تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما . » ١ . .

٤- وفى كتاب النبى إلى طهفة النهدى، وقومه - بنى نهد - . . نقراً تفصيل قواعد الحياة الاقتصادية التى حددتها الدولة الإسلامية للوالى وقومه : « . . لكم فى الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان

والركوب . والفلو الضبييس . لا يُمنع سَرْحُكم ، ولا يُعُضد طلحكم ، ولا يحبس دَرْكُكم ، مالم تُضْمِرُوا الإماق ، وتَأْكُلُوا الرِّبَاق . من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرِّبوة» (١٥) ! . .

٥ - وفي كتاب النبی بتولية ربيعة بن ذى المرحب الحضرمي ، على قومه في حضرموت ، قانون ضابط لحكم الولاية وإدارتها . . نقرأ فيه : « . . إن لهم أموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجهم . . وإن كل رهن بأرضهم يحسب ثمره وسدره وقضبه من رهته الذي هو فيه . وإن كل ما كان في ثمارهم من خير فإنه لا يُسأل أحد عنه ، والله ورسوله براء منه . وإن نصر آل ذى مرحب على جماعة المسلمين ، وإن أرضهم بريئة من الجور ، وإن أموالهم وأنفسهم و«زافر» حائط الملك الذي كان يسيل إلى آل قيس . وإن الله ورسوله جازُّ على ذلك» (١٦) ! . .

٦ - وفي كتاب النبی بتولية مهري بن الأبيض - على أهل مرة - نقرأ «إلزام» الحكومة الإسلامية للوالى وقومه «بشرائع الإسلام» . . فيقول كتاب التولية : « . . إنهم لا يُؤْكَلُونَ ولا يُغَارُ عليهم ولا يُعْرَكُونَ ، وعليهم إقامة شرائع الإسلام ، فمن بَدَّل فقد حارب الله ، ومن آمن به فله ذمة الله وذمة

(١٥) الوظيفة : ما يقدر للإنسان كل يوم من رزق . والفريضة : من معانيها : الزكاة . والفارض : من معانيه : المسنة من الإبل ، والعظيمة من البقر . والفريش : الثور العربى الذى لا سنام له . والعنان : سير اللجام للفرس . والركوب : كل ما يركب . والفلو : المهر الصغير ، فى السنة الثانية من عمره . والفلو الضبييس : المهر الصعب العسير . والسرح : واحدها : السرحة : الأتان أدركت ولم تحمل . والطلح : شجرة حجازية . والدَرّ : النزول الغزير للبن أو الماء . والإماق : لعله البخل - ولعلها : الإباق - والرباق : مفردها : ربق ، وهو الحبل تشد به الدابة ، والمراد هنا : نقض العهد ، شبه العهد بالحبل المانع من التجاوز . والربوة : الزيادة .

(١٦) الشراج : مفردها : شرج : مسيل الماء من الحرة - الأرض ذات الحجارة - إلى السهل . والسدر : شجر النبق . والقضب : كل ما يأكله الإنسان من النبات الغض . أو الشجر الطوال . أو : البرسيم .

رسوله . اللُّقطة مؤداة ، والسَّارحة مندّاة ، والتفت السيئة ، والرفث
الفسوق . . «(١٧) ! . .

٧ - وفي كتاب النبی إلى «ثقیف» ، نجد تنظيماً حتى للصيد ، وقواعد
التعامل مع الشجر! ! . . وتحديدًا لعقاب المخالفين للقواعد والتنظييات . .
« . . فمن وُجد يفعل من ذلك شيئاً فإنه يجلد وينزع ثيابه ، وإن تعدى ذلك
أحد فإنه يُؤخذ فيُبَلِّغ به محمداً النبي . . «(١٨) ! . .

أبعد كل ذلك - وما أشرنا إليه قطرة من بحر - . . أبعد هذه
«الولايات» ، وهؤلاء «الولاة» ، وهذه «القوانين» . . والتنظييات الضابطة
لحدود الولايات ، وأملاكها ، وقواعد المعاملات الدنيوية فيها ، وتقرير
حاکمية الشريعة - «إقامة شرائع الإسلام» - . . أبعد كل ذلك يجوز
لصاحب [الإسلام وأصول الحكم] أن يقول : إنه لم تكن دولة . . ولم يكن ولاية
ولا قضاة . . وأن النبي «لم يتعرض لشيء من سياسة تلك الأمم الشثية ، ولا
غير شيئاً من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام
إداري أو قضائي ، ولا حاول أن يمس ما كان بين تلك الأمم بعضها مع
بعض ، ولا ما كان بينها وبين غيرها ، من صلات اجتماعية أو اقتصادية . .
فبقى التباين - بعد الإسلام - كبيراً بين تلك الأمم العربية ، في مناهج الحكم ،
وأساليب الإدارة ، وفي الآداب والعادات ، وفي كثير من مرافق الحياة
الاقتصادية والمادية» (١٩) ؟ !

(١٧) لا يعركون : أى لا يُزاحون . والسارحة : الماشية المنطلقة للرعى . والمنداة : لعلها :
الشاردة . انظر في معانى هذه المصطلحات الاقتصادية : د . محمد عمارة : [قاموس
المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية] . طبعة القاهرة . سنة ١٩٩٣ م .

(١٨) انظر كل ذلك في [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ، ص ٦٦ -
٢٨٣ .

(١٩) [الإسلام وأصول الحكم] . ص ٨٣ ، ٨٤ .

هل هذا معقول؟! . . أم أن الرجل يتحدث عن دين غير الإسلام! . .
ونبي غير محمد! . . وأمة غير الأمة التي عكست صورتها وجسدها هذه
«الوثائق» التي أشرنا إلى سطور من سفرها الكبير؟! . .

إننا لسنا، فقط، بإزاء تناقض صارخ - غير مبرر ولا مسبوق ولا معقول -
بين أحكام صاحب [الإسلام وأصول الحكم] وبين حقائق الواقع التاريخي
للدولة الإسلامية، كما رسمتها وجسدها «الوثائق» . . وإنما نحن، أيضا،
بإزاء تناقضات بين الأحكام التي تبناها هذا الكتاب . . ففي الوقت الذي
ينكر على «الوحدة الإسلامية» بلوغها درجة «وحدة الدولة والسياسة»، نراه
يصف الأوضاع القبلية بأنها «دول»! . . فيتحدث عن القبائل العربية
«بأنهم كانوا دولا شتى، على قدر ما تسمح به حياة العرب يومئذ من معنى
الدولة والحكومة»^(٢٠) . . ولم يتنازل، مراعاة لطبيعة تلك الحياة يومئذ،
فيعترف للوحدة الإسلامية التي أقامها الرسول ﷺ، ببلوغ مرتبة «الدولة»
التي بلغت عنده القبائل في بواديها! . .

وهو إذا اعترف بأن «الزعامة الدينية التي كانت للرسول عليه السلام» قد
جعلت تباين واقع الحياة العربية يخف ويتراجع، « فلقد وهت آثاره،
وخفيت مظاهره، وخفت حدته، وذهبت شدته. ﴿ واذكروا نعمة الله
عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على
شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾^(٢١) . . »^(٢٢)

رأيناه ينقلب على عقبيه - وفي السطر التالي!! - فيستدرك على هذا الذي
قال، ملغيا إياه، فيقول: « ولكن العرب على ذلك ما برحوا أما متباينة،
ودولا شتى »^(٢٣)!! . .

(٢٠) المرجع السابق . ص ٨٥ .
(٢١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢٢) [الإسلام وأصول الحكم] . ص ٨٥ ، ٨٦ . (٢٣) المرجع السابق . ص ٨٦ .

فلا هو يحتكم إلى الواقع التاريخي ، الذي سجلته وثائق العهد النبوي . .
والتي جسدت صورة وحدة الدولة الإسلامية في السياسة . . والإدارة . .
والحكم . . والتشريع . . وذلك فضلا عن وحدتها في الدين - وهو الذي أثمر
«توحيده» كل هذه الوحدات في جميع تلك الميادين! . .

ولا هو راعى الحدود الدنيا من اتساق الأحكام التي تبناها في كتابه عن
ذلك الواقع التاريخي الذي تحدث عنه!! . .

وإذا اضطرر إلى أن يشير إلى ما جاء به الإسلام من قواعد موحدة في شئون
السياسة والدولة والإدارة . . فقال - بصيغة «الإمكان»!! :-

«وربما أمكن أن يقال ، إن تلك القواعد والآداب والشرائع ، التي جاء بها
النبي عليه السلام ، للأمم العربية ولغير الأمم العربية أيضا ، كانت كثيرة ،
وكان فيها ما يمس إلى حد كبير أكثر مظاهر الحياة في الأمم . كان فيها بعض
أنظمة للعقوبات ، وللجيش ، والجهاد ، وللبيع والمداينة والرهن ، ولآداب
الجلوس والمشى والحديث ، وكثير غير ذلك . فمن جمع العرب على تلك
القواعد الكثيرة ، ووجد بين مرافقهم وآدابهم وشرائعهم إلى ذلك الحد الواسع
الذي جاء به الإسلام ، فقد وُجد أنظمتهم المدنية ، وجعلهم بالضرورة وحدة
سياسية . فقد كانوا إذن دولة واحدة ، وكان النبي عليه السلام زعيمها
وحاكمها» . .

إذا « افترض » ذلك ، رأيناه سرعان ما ينقض على هذا « الفرض » ليلغيه ،
وليحكم على الوحدة في « المرافق والآداب والشرائع » بأنها « لم تكن في كثير ولا
قليل من أساليب الحكم السياسي ، ولا من أنظمة الدولة المدنية »^(٢٤)!! . .
فكأن قارئ الكتاب محكوم عليه ، إن هو تأمل ، أن يعيش بإزاء «لوحة
من المتناقضات»!! . .

* * *

(٢٤) المرجع السابق . ص ٨٤ .

وإذا كان شمول القرآن الكريم ، إلى جانب العقيدة والعبادات ، على حدود وأحكام ، وشريعة تتجاوز آيات الأحكام والقصاص والحدود لتشمل كل معالم الطريق التى رسمها الوحي كى تُقَوِّم مسيرة الإنسان على الصراط المستقيم . . إذا كان شمول القرآن لهذه الشريعة هو من المعلوم من الدين بالضرورة ، والذي لم يختلف فيه ناظر فى القرآن الكريم . . وإذا كانت الشريعة ، كالعقيدة والعبادات ، قد وردت فى القرآن مورد التكليف - فإن السلطة التى تقيم هذه الشريعة لا بد وأن تأخذ هذا الحكم - التكليف الواجب ؛ إذ ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب . .

وإذا كانت « الليبرالية » ، مثلاً ، لا تقيمها إلا «سلطة ليبرالية» . . و«الاشتراكية» لا تقيمها إلا «سلطة اشتراكية» . . و«الفاشية» لا تقيمها إلا «سلطة فاشية» . . فإن «الشريعة الإسلامية» لا تقيمها إلا «سلطة - أى «دولة» - إسلامية» . . ووجوب إقامة «الشريعة» يستلزم «وجوب» إقامة «الدولة الإسلامية» التى تقيمها . . تلك هى بداهة المنطق ، ومنطق البداهة فى وجوب «إسلامية الدولة» ، طالما كانت هناك «شريعة إسلامية» واجبة الإقامة والتطبيق والتنفيذ فى الاجتماع الإسلامى . .

ولهذه الحقيقة تميز الحديث القرآنى عن «العقيدة» بأن لا سيطرة للرسول على قلوب المعتقدين لها والمطالبين بها . . لأن القلوب لا تخضع لمعايير السيطرة والوكالة والجبر والإكراه . . بينما اقترنت آيات الشريعة والحدود والأحكام بالطلب إلى رسول الله ، ﷺ ، بأن «يقيم» هذا الذى جاءت به فى حياة الاجتماع الإسلامى الذى أقامه وقاده وتزعمه . . فلا إكراه فى الاعتقاد . . لكن لا قانون ولا شرع ولا حدود ولا أحكام يمكن أن تقوم ولا أن تقام فى حياة أى مجتمع من المجتمعات إلا بمقادير وألوان من السيطرة والضبط ، بل والقسر والإكراه . . ففى العقيدة ما على الرسول إلا البلاغ ، بل لقد عاتبه القرآن عندما كان يحمل من الأمر ما يتعدى حدود البلاغ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴿٢٥﴾ . ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٢٦) . أما في الشريعة ، فلقد جاءت الآيات بوجوب إقامتها عليه وعلى المؤمنين ، ولم تقف فقط عند حدود البلاغ . . فهي قد أنزلت عليه ليقيمها ، وليس فقط ليبلغها . . الأمر الذي يعنى إيجاب إقامة «سلطة - دولة» التنفيذ والإقامة للشريعة وحدودها وأحكامها ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ (٢٧) . ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (٢٨) . ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ (٢٩) . ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (٣٠) . ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ (٣١) . ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (٣٢) . .

وإلا ، فهل يتصور عاقل أن أحكام الشريعة وقوانينها - في الحرب والسلام والزكاة - وفي القصاص والحدود - إلخ . . إلخ . . قد نزلت لمجرد البلاغ والعلم ، مع تركها ، كالعقيدة ، لاختيارات القلوب التي لا رقيب عليها ولا وكيل ولا حفيظ؟! . . إن هذا « المنطق » الذي زعمه صاحب [الإسلام وأصول الحكم] مما لا يليق بالعاقلين ، لتنوع الخطاب في آيات القرآن الكريم . . بل وحتى العبادات . . كتبها الله بمعنى أوجبها ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى ﴾ (٣٣) . . ولقد جسدت السنة والسيرة النبوية ذلك في واقع المسلمين ، بالدولة والسلطة التي أقامها الرسول ، ﷺ في المدينة بعد الهجرة إليها . .

فزعم صاحب [الإسلام وأصول الحكم] بأن الرسول مجرد مبلغ ، هكذا

(٢٥) القصص : ٥٦ . (٢٦) الكهف : ٦ . (٢٧) النساء : ١٠٥ . (٢٨) المائدة : ٤٩ .
(٢٩) الشورى : ١٥ . (٣٠) الأنفال : ٣٩ . (٣١) الأنفال : ٦١ . (٣٢) التوبة : ١٠٣ .
(٣٣) طه : ١٣٢ .

بإطلاق، هو زعم لم يقل به حتى المستشرقون . . وإذا كنا قد وفينا هذه القضية - قضية علاقة الدين بالدولة في الإسلام - حقوقها في العديد من الكتب والدراسات (٣٤) . . الأمر الذي يغنينا عن الرد هنا على هذه الدعوى . . فإننا نسوق، فقط، عبارات للمستشرق « دافيد دي سانتيلانا » [١٨٤٥ - ١٩٣١ م] حول :

● تميز الخلافة الإسلامية عن البابوية : « . . وخلفاء الرسول ما هم بوارثي رسالته الروحية . . لقد أبى أبو بكر قبول لقب « خليفة الله » واكتفى بلقب « خليفة رسول الله » . ثم درج لقب « أمير المؤمنين » منذ زمن عمر بن الخطاب ، فحدد بكل وضوح صفة تمثل السلطة العليا الذي هو في الحقيقة ليس عاهلاً « ملكاً » بل هو « أمير » . . أما وظيفته الدينية - وهى أصل جميع وظائفه الأخرى - . . فليس فيها ما يضيف على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت . . إن سلطة الخليفة ، كرئيس ديني ، لا يمكن أن تعتبر سلطة خبرية أو بابوية ، فهو متجرد تماماً من صفة الكهنوت ، لأن حكومة المسلمين ما كانت في أى زمن أو ظرف حكومة دينية hierarchy ، ولم يوجد فيها تعاقب رسولى . . » (٣٥) .

فنحن هنا بإزاء خلافة مدنية ذات وظيفة دينية ، لها مرجعية إسلامية . . فلا هى بالعلمانية التى تفصل الدين عن الدولة ، ولا هى بالبابوية الكهنوتية . . إنها نموذج لم يعرفه الغرب . . ولا علاقة له بـ « المشكلة » التى جاء « التنوير » - الغربى - العلمانى « ليحلها في مجرى التطور الغربى الخاص . . »

(٣٤) انظر كتبنا ، [الإسلام وفلسفة الحكم] ، و [معركة الإسلام وأصول الحكم] ، و [الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية] ، و [العلمانية ونهضتنا الحديثة] ، و [الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين] .

(٣٥) [القانون والمجتمع] - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] . ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ . ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢ م

بل ويقول « سانتيلانا » عن الخلافة الإسلامية : إن « الأمير » وكيل « جماعة المسلمين ، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل إن الأمير يجب أن يضع نصب عينه مصلحة المجموع . فلهذه الغاية « أمر الأمراء » . وكما يجب أن يقدم الوكيل حسابا صحيحا على ما أنجزه لموكله وسيده ، كذلك يتحتم على الخليفة أن يسترشد بالله « (٣٦) . فالخلافة والوكالة والنيابة - في الحكم - عن الأمة ، وبما أن الأمة ومعها الخليفة مستخلفة لله في عمارة الأرض ، فالكل مسترشد بالشرعية الإلهية . . فدولة الإسلام جامعة بين تمثيل الأمة وبين مرجعية الشريعة . . الأمر الذى يجعل بينها وبين النموذج البابوى فى الدولة فارقا جوهريا . . ويجعل ، من ثم ، استعارة « التنوير - الغربى - العلمانى » لنقدها ونقضها مفارقة فكرية شديدة الغرابة وبالغة الشذوذا . .

وإذا كان لا بد من نص آخر لذات المستشرق الغربى - الحجة فى دراسة وتدريس الشريعة الإسلامية (٣٧) - فلتأمل قوله : « إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحا للقيام بواجبه فى حماية المجتمع الإسلامى ، فإذا لم يعد أهلا لمنح شعبه ما يريده منه ، بطل سلطانه وفسخ العقد شرعا بين المتعاقدين » (٣٨) ؟! . .

فأين هى الخلافة الإسلامية التى كانت ولاية صاحبها « كولاية الله وولاية رسوله . . يجلس غير بعيد من مقام العزة الإلهية » . . كما قال وادعى على عبدالرازق ؟! . . و« سانتيلانا » يقول : « إنها ما كانت فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية » ؟!

● وتميز الشريعة الإسلامية عن الشرائع الأخرى ، بالجمع بين « المنفعة » و« الأخلاق » ، كمعيارين جامعين بين « المدنية » و« الإلهية » ، هو الآخر مصدر

(٣٦) المرجع السابق . ص ٤٢٥ .

(٣٧) درس الفلسفة والشريعة والتاريخ فى جامعة روما والجامعة المصرية .

(٣٨) المرجع السابق . ص ٤٢٧ .

لتميز دولتها وسلطتها عن الدول الأخرى وطبيعة السلطة فيها . . وهذا التميز في الشريعة ، يتحدث عنه « سانتيلانا » أيضا فيقول : « عبثا نحاول أن نجد أصولا واحدة نلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) . . إن الشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلا . . إن الفارق بين حقوق الله وحقوق العباد ليس فيه من معنى أكثر من الفارق بين القانون العام والقانون الخاص . وللفكرة الدينية بلا ريب أثر عظيم . . ولكنه مستمد من الصبغة الأخلاقية التي تسود القانون ، أي من العلاقة التي تقترب غالبا لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما . . وهكذا ترسم الأخلاق والآداب في كل مسألة حدود القانون . . وتلك هي الميزات التي تسم الشريعة الإسلامية في كبد حقيقتها . وقد تجرأ على وضعها في أرفع مكان وتقليدها أجل مديح علماء القانون ، وهو خليف بها » (٣٩) .

فنحن أمام شريعة متميزة ، جمعت بين « المدني » و« الديني » ، اقتضت دولة وخلافة متميزة ، جمعت بين « المدني » و« الديني » . . وتلك شهادة واحد من أساطين « التنوير - الغربي » ، الذين عصمهم علمهم بحقيقة شريعة الإسلام وخلافته من الخلط بين الشرائع . . والحضارات . . والدول والسلطات . .

وهي شهادة تنقض دعوى الذين جعلوا إسلامنا نصرانية . . وشريعتنا لاهوتا كنسيا . . وخلافتنا بابوية حكمت بالحق والتفويض الإلهيين . . كما فعل صاحب [الإسلام وأصول الحكم] !!! . .

* * *

وإذا كان هذا هو حظ هذه الدعوى من الشذوذ عن منطق القرآن والسنة ، وعن حقيقة تاريخ الرسالة ، بل وعن إجماع الذين درسوا هذا

(٣٩) المرجع السابق . ص ٤٣١ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ .

الجانب من الإسلام وتاريخه ، مسلمين وغير مسلمين . . فإن من الحق علينا أن نشير إلى حقائق قد تكشفت بعد سنوات من صدور هذا الكتاب - [الإسلام وأصول الحكم] - تشهد على أن الشيخ على عبد الرازق قد تراجع عما جاء فيه . . بل وتبرأ منه أيضاً!! . .

● لقد حوكم الرجل على آرائه هذه ، تأديبياً ، أمام « جماعة كبار العلماء » - باعتبارها قيادة الجماعة العلمية التي ينتسب إليها علماء الأزهر - وأدانت ، وأخرجته من زمرة العلماء بتاريخ ٢٢ من المحرم سنة ١٣٤٤هـ - ١٢ من أغسطس سنة ١٩٢٥م . . وفي اليوم التالي لصدور الحكم ، أدلى الشيخ على عبد الرازق لجريدة « البورص إجبسين » بحديث - أعادت نشره في اليوم التالي صحيفة [السياسة اليومية] - أعلن فيه تمسكه بآرائه ، بل وقال إنه سيواصل الإعلان عنها بكتابات ومحاضرات وأحاديث جديدة ، غير هذا الكتاب . . فعندما سأله المحرر:

- « وهل تعتزم ، برغم الحكم ، أن تستمر في آرائك ، وأن تستمر في نشرها؟

أجاب : - « بلا ريب . لأن الحكم لم يعدل طريقة تفكيري » .

فعاد المحرر ليسأل : - وبأى الوسائل ؟

فقال : - « بكل الوسائل الممكنة ، كتأليف كتب جديدة ، ومقالات في الصحف ومحاضرات وأحاديث » (٤٠) .

لكن الذى حدث ، هو أن الشيخ على عبد الرازق قد صمت عن الحديث وامتنع عن الكتابة في هذا الموضوع . . بل وحرص على الابتعاد عن ذكره أو التذكير به . . حتى لقد رفض التصريح بإعادة طبع كتابه - الذى

(٤٠) انظر كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ، ص ١٣١ . طبعة القاهرة - دار الشروق - سنة

١٩٨٩م .

نفتت طبعاته في العام نفسه - سنة ١٩٢٥ م - وظل على هذا الرفض حتى وفاته سنة ١٩٦٦ م (٤١)!! . .

● وبعد أقل من عشرين يوما من حكم هيئة كبار العلماء، نشرت جريدة « السياسة » كلاما للشيخ على عبد الرازق، تضمن عبارات عن الإسلام و« الشريعة »، في صياغة تضبط الفكر على نحو متميز عما جاء في كتابه . . فلقد قال : « إن الإسلام دين تشريعي ، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده ، وإن الله خاطبهم جميعا بذلك . ولكن الله لم يقيدهم بشكل مخصوص من أشكال الحكومات ، بل ترك لهم الاختيار في ذلك ، وفق مقتضيات الزمن ، وحيث تكون المصلحة . . » (٤٢) . . وهو كلام لا يختلف عليه اثنان . . فوجوب إقامة شرائع الإسلام ، يقتضى وجوب إقامة دولة إسلامية تقيم هذه الشرائع . . أما « شكل » هذه الدولة فهو متطور وفق المصالح والأزمنة .

● وفي مارس سنة ١٩٣٢ م ، ألقى الشيخ على عبد الرازق محاضرة بقاعة « إيوارت » - بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - عن « الدين وأثره في حضارة مصر الحديثة » . . قال فيها - ضمن ما قال - : « جرت مصر منذ العصور الأولى على أن يكون الحكم فيها شرعيا ، يرجع إلى أحكام الإسلام والأوضاع الإسلامية ، وكان المصريون يفزعون أن يحتكموا إلى غير الإسلام ، لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح في القرآن » (٤٣)!! . .

وهو كلام مناقض تماما لما قرره كتاب [الإسلام وأصول الحكم] من ترك الإسلام طبيعة الحكم للعقل والتجريب ، يختار المسلمون بهما حكومتهم ،

(٤١) انظر آخر حديث صحفى أدلى به للأستاذ محمود أمين العالم - مجلة « المصور » - والذي نشر عقب وفاته - ٧ - ١٠ - ١٩٦٦ م .

(٤٢) [السياسة] ، عدد ١ سبتمبر سنة ١٩٢٥ م .

(٤٣) انظر كتاب : [حضارة مصر الحديثة] . طبعة القاهرة - المطبعة العصرية ، سنة ١٩٣٣ م - الجامعة الأمريكية . .

استبدادية أو شوروية ، ديمقراطية أو بلشفية أو استبدادية! . .

● وحينما كان عضوا بمجلس النواب . سنة ١٩٤٦م . وعرض على المجلس المشروع الخاص بقانون الأوقاف . . ورأى فيه بعض الثغرات ، قال : « إنكم في هذا التشريع توشكون أن تفتحوا في باب التشريع الإسلامى حدثا جديدا أخشى أن يكون بعيد العواقب ، وأخشى أن تكون أقرب الآثار المترتبة عليه أن يمزق الفقه الإسلامى ، الذى هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامية»!! . .

وهو كلام لا يقوله إلا خصوم كتاب [الإسلام وأصول الحكم]!! . .

● وفى سنة ١٩٤٧م . أصدر كتابه [الإجماع فى الشريعة الإسلامية] ، وهو محاضرات ألقاها على طلاب كلية الحقوق ، جامعة فؤاد الأول - القاهرة - . . ومافيه من الفكر لا علاقة له بفكر كتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . بل هو على النقيض منه !!

● وفى سنة ١٩٥١م . جمع لقاء بين الشيخ على عبد الرازق وبين الأستاذ أحمد أمين ، دار فيه حوار حول جهود المسلمين وأسبابه ، والسييل إلى خلاصهم منه . . فقال على عبد الرازق فيما قال : « إن دواء ذلك أن نرجع إلى مانشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل . . إلخ . . » .

فلما تحدث أحمد أمين - بمقال له فى مجلة [رسالة الإسلام] (٤٤) - عن هذا اللقاء ، والحوار الذى دار فيه ، ونشر نص عبارة على عبد الرازق . . كتب الشيخ على تعقيبا نشر فى العدد التالى من المجلة (٤٥) . . اعترف فيه بأنه قد

(٤٤) [رسالة الإسلام] . عدد إبريل سنة ١٩٥١م - وعنوان مقال أحمد أمين : « الاجتهاد فى الإسلام » .

(٤٥) [رسالة الإسلام] . عدد مايو ، سنة ١٩٥١م . وعنوان التعقيب : « تعقيب على مقال الاجتهاد فى الإسلام » .

قال العبارة المنسوبة إليه ، ولكنه نفى أن يكون هذا رأيه ، لا اليوم ولا قديماً . . بل ونسب هذا الرأي والعبارة المعبرة عنه إلى الشيطان الذى ألقاها على لسانه . . وتبرأ منها . . وقال : « أرجو ألا يظن صديقى أحمد أمين بك ، أو من يقرأ كلمتى هذه ، أننى أمارى من قريب أو من بعيد فى صحة الحديث الذى رواه عنى ، فإننى لأذكر هذا الحديث نفسه ، وأذكر أين ومتى كان ، وما ينبغى لشيء يرويه أحمد بك أمين أن يكون موضعاً للمراء .

وما أرى فى الأمر إلا أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى فى المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين ، وما أدري كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ ؟ ! ولم أرد معناها ! ! ولم يكن يخطر لي ببال ! ! . .

بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة . . وللشيطان أحياناً كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس . هذه كلمة تصحح وضعاً شخصياً أرى من الإنصاف أن يصحح . . « (٤٦) .

فهو هنا ينفى أن يكون هذا رأى - أن الإسلام مجرد رسالة روحية - رأيه نفياً صريحاً وقاطعاً . .

● وبعد سنوات من وفاة الشيخ على عبد الرازق ، رغبت « دار الهلال » فى تجديد محاولة استئذان ورثته فى إعادة طبع كتابه [الإسلام وأصول الحكم] - بعد أن رفض هو ذلك عندما طلبه منه الأستاذ محمود أمين العالم - وكان يعمل بدار الهلال فى منتصف الستينيات - وطلبت « دار الهلال » منى السعى إلى الحصول على هذه الموافقة . . فلقيت أكبر أبناء الشيخ على - محمد - وكان يعمل يومئذ بوزارة « القوى العاملة » ، بمجمع التحرير ، ودار بيننا

(٤٦) انظر المقال كاملاً فى كتابنا : [الإسلام والسياسة - الرد على شبهات العلمانيين] . ص ١١٣

حوار طويل ، عبر فيه عن رغبته هو شخصيا في إعادة نشر الكتاب ، وكان يتوقع من ذلك ربحا ماديا كبيرا ، لكنه قال إن والده كان رافضا لإعادة النشر رفضا تاما . . وأنه - رحمه الله - أمام الإلحاح عليه من البعض لإعادة طبعه ، هم أن يكتب صفحات يسجل فيها ملابسات صدوره سنة ١٩٢٥م ، وحقيقة فكره إزاء القضايا التي أثارت الجدل عندما صدر الكتاب ، لأن فكره مغاير للمفهوم من الكتاب . . ولقد كتب ثلاث صفحات . . ثم مات دون أن يكمل البحث . . وحتى هذه الصفحات ، فإنها ضاعت . . هكذا أخبرني أكبر أبنائه . .

● وعندما نشرت مجلة [الطليعة] - المصرية - النص الكامل للكتاب ، « ملحقا » بعدد نوفمبر سنة ١٩٧١م - والذي نشرت أنا فيه « ملفا » عن المعركة الفكرية التي أثارها الكتاب عند صدوره . . . ثم نشرت « المؤسسة العربية للدراسات والنشر » ببيروت الكتاب ، مع دراستي عنه ، و« وثائق » معركته - التي جمعتها في سنة ١٩٧٢م - رفعت أسرة على عبد الرازق الأمر إلى القضاء ، طالبة من الناشرين تعويضا عن عدم الاستئذان ، وعن نشر كتاب كان صاحبه رافضا إعادة نشره ، الأمر الذي يجعل إعادة النشر إساءة إلى المؤلف . . ! !

* * *

وهكذا . . إذا نحن تتبعنا موقف على عبد الرازق من كتابه هذا ، نكاد نجده - منذ سبتمبر سنة ١٩٢٥م - موقف « المتبرئ » من مضمون هذا الكتاب . . فمواقفه الفكرية المتوالية تنقض القضية المحورية والخلافية التي قام عليها الكتاب - قضية تجريد الإسلام من الشريعة المنظمة لإسلامية الدولة والسلطة ، وعلاقته بشئون العمران البشري . . وإصراره - حتى في أثناء محاكمته التأديبية - في أغسطس سنة ١٩٢٥م - على أن القول بروحانية

الإسلام وشريعته، ونفى علاقته بالدولة وال عمران، ليس رأيه . بل كان يردد أنه لم يقله لا في هذا الكتاب ولا في غيره!! . .

وحتى عندما قال هذه العبارة « إن رسالة الإسلام روحانية فقط » ، في حوار مع أحمد أمين سنة ١٩٥١ ، لم يقلها معترفا بأنها « رأيه » . بل قال - وهذا هام ومثير لعلامة استفهام كبرى - . . قال : « ما نشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحانية فقط » . . . فهو « ناشر » [!!؟؟] . . وعاد في « التعقيب » على هذا الحوار ليردد موقفه الدائم من هذه القضية - موقف النفي أن يكون هذا « رأيه » ، وقال : « فقد زعم الطاعنون الذين جعلوا في قلوبهم الحمية يومئذ : أنني في ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة . . أما أنا فقد رددت ذلك عليهم ، وقلت لهم يومئذ ، صادقا ومخلصا : « إنني لم أقل ذلك مطلقا ، لا في هذا الكتاب ولا في غيره ، ولا قلت شيئا يشبه ذلك الرأي أو يدانيه » [!!؟؟] . .

فهو دائم الرفض لأن يكون هذا الرأي - الواضح في الكتاب وضوح الشمس - هو رأيه ، أو أنه قاله ، أو قال ما يشبهه أو يدانيه!! . . وعندما قاله ، في حوار مع أحمد أمين ، عبر عن علاقته به بكلمات : « ما نشرته قديما »!! . . تلك هي علامة الاستفهام الكبرى . . التي لا تكفى في الإجابة عنها حقيقة نقض الرجل في سنوات عمره التي تلت صدور الكتاب للفكرة المحورية التي دارت حولها صفحاته القليلة . . لكن هل كل ما في الأمر أن الرجل قد تراجع عن آرائه ، ثم استعظم أن يعلن التراجع ، فزعم أن ما فهمه الجميع - من المعارضين له والمؤيدين - لم يكن هو حقيقة رأيه!! . . أم أن الرجل كان مجرد « ناشر » لهذا الرأي ، الذي أثار ولا يزال يثير من الجدل واللغط في حياتنا الفكرية ما لم يثره رأى آخر في كتاب غير هذا الكتاب!! . .

تلك هي علامة الاستفهام الكبرى ، التي تبحث عن إجابة مؤسسة على البحث والتحقيق!

إن الاستقطاب حاد، بل شديد الحدة ، بين أنصار كتاب [الإسلام وأصول الحكم] وبين خصومه . . لكن الأنصار والخصوم جميعا متفقون كل الاتفاق على أن جوهر فكر هذا الكتاب هو أن الإسلام دين لا دولة ، ورسالة دينية روحية لا علاقة لها بنظام الحكم وفلسفته وبالعمران البشرى وضوابطه ؛ فكل ذلك متروك للعقل والتجريب . بل إن الكتاب ذاته قد ساق هذا الفكر الجوهري في باب من أبوابه تحت عنوان : « رسالة لا حكم ، ودين لا دولة » . . الأمر الذى يجعل قول «صاحب » هذا الكتاب إنه لم يقل ذلك مطلقا أمرا مستحيل التصديق ، بل ومستحيل التصور أيضا !! . .

فإذا انتهى المطاف بالشيخ على عبد الرازق ليقول - فى سنة ١٩٥١م - إنه قد «نشر» هذا الرأى قديما . . لكنه رأى « ألقاه الشيطان على لسانه » . . فإنه يفتح أمام البحث والتحقيق بابا للتنقيب عمّن يكون هو « الشيطان » الذى ألقى هذا «الرأى» إلى على عبد الرازق ، فنشره كتابا عن [الإسلام وأصول الحكم] ، فى إبريل سنة ١٩٢٥ ؟!

وإذا كان حسم هذه القضية - قضية المؤلف الحقيقى لما فى هذا الكتاب من آراء - هو « الأمل » الذى قد يصعب الوصول فيه إلى « اليقين العلمى » الذى تطمئن له القلوب كل الاطمئنان ، خصوصا وأطراف القضية وأركان الدعوى جميعا قد غدوا فى ذمة الله ، فإننا سنحاول هنا ترتيب وقائع هذه القضية ، وعرضها على « المنطق العلمى » ، آملين أن نقرب فيها من «اليقين» ، أو على الأقل « الظن الراجح » ، الذى يفتح الباب لمن يستكمل البحث فيصل بنا فيها إلى هذا «اليقين» ! . .

● لقد بدأت قصة التشكيك فى أن على عبد الرازق هو المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب ، فى نفس عام صدور هذا الكتاب سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م . .

. : ففى واحد من أهم الكتب التى تصدت له بالنقد والتفنيد ، وهو كتاب [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] الذى كتبه الشيخ محمد بخيت المطيعى [١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ ، ١٨٥٤ - ١٩٣٥ م] - وكان يومئذ عضواً بهيئة كبار العلماء ، التى حاکمت على عبد الرازق وأدانتة ، ومفتياً سابقاً لمصر .
وواحداً من أصحاب الإنتاج العلمى المتميز - فى هذا الكتاب نجد أول خيوط التشكيك فى تأليف على عبد الرازق لكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . يقول الشيخ بخيت :

« ومن هذا تعلم أن المؤلف - [على عبد الرازق] - يرمى ، كما قلنا ، إلى أن يجعل الملة الإسلامية قاصرة على أحكام الأمور الدينية ، ويلغى الأحكام المتعلقة بالأمور الدنيوية ، كما أنه يلغى تنفيذ الأحكام ، ويجعل رسالته ﷺ قاصرة على مجرد التبليغ ، فيجعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ؛ أما ما بين أفراد النوع الإنسانى من المعاملات الدنيوية وتدبير الأمور العامة ، فلا شأن للشريعة به ، وليس من مقاصدها ، ولا بعث له النبى ﷺ وأوحى بشىء منه إليه . وسيأتى المؤلف - [على عبد الرازق] - يصرح بذلك فى صحيفة ٧٨ و ٧٩ من كتابه .

ومن العجب أن المؤلف ، مع ذكره ذلك صريحاً فى كتابه ، بالخط العربى ، وهو عربى ، يذكر ^(٤٧) فى مذكرته التى قدمها فى دفاعه أمام هيئة كبار العلماء : أنه لم يقل ذلك مطلقاً لا فى الكتاب ولا فى غير الكتاب ولا قال قولاً يشبهه أو يدانيه . ١ هـ .

غير أن الشيخ علياً ربما كان صادقاً فيما يقول ، لأننا علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه عليه فقط ، فهو منسوب إليه فقط ، ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا

(٤٧) فى الأصل : « ينكر » . وهو خطأ .

الكتاب، وألبسوه ثوب الخزى والعار إلى يوم القيامة، وشهروا باسمه عند العقلاء تشهيرا لا يرضاه لنفسه من عنده أدنى مسكة من عقل . . » (٤٨) .

فالشيخ بخيت ينقل عن «كثيرين» ممن يترددون على الشيخ على عبدالرازق، أن الكتاب ليس من تأليفه، وإنما «واضعوه من غير المسلمين»، وليس لعلى عبد الرازق «فيه إلا وضع اسمه عليه فقط» !! . . أى أن الكتاب من وضع المستشرقين! . .

● ويأتى الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس، فيمسك بهذا الخيط . . بادئا بالتعليق على كلام الشيخ بخيت، حيث يقول : « . . ونحن لا نقبله كحقيقة نجزم بها . ولكن لا يجوز أيضا أن نهمله . وإنما ننظر إليه كخيط نمسك به ونسير على توجيهه ، لعله يصل بنا إلى الحقيقة » .

وبعد أن «استنتج» من آراء الكتاب المعادية للإسلام والمتطرفة فى عداؤها هذا، أن كاتبه لا يمكن أن يكون مسلما . . بدأت تساؤلاته واستنتاجاته عمن يكون المؤلف الحقيقى له ؟ . . فكتب يقول :

« فمن يكون إذن هذا الشخص غير المسلم الذى كتب عن الخلافة بهذه الصورة؟

الأظهر أنه كان أحد المستشرقين الإنجليز. ويغلب على الظن أن يكون هو المستر « مرجوليوث » اليهودى ، الذى كان أستاذا للغة العربية فى بريطانيا، وتدل كتاباته عن الإسلام على أنه كان صهيونيا معاديا له وللمسلمين، ويكتب عن الإسلام بجهالة ونزعة حققد. وقد فندنا نحن آراءه عن الدولة الإسلامية فى كتابنا « النظريات السياسية الإسلامية »، وأثبتنا خطأها وبطلانها بالأدلة العلمية، وبيننا جهله أو ضلاله

(٤٨) [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] . ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ . طبعة القاهرة - المطبعة السلفية ومكتبتها - سنة ١٣٤٤ هـ .

ومعروف أن الشيخ على ذهب إلى بريطانيا وبقي بها نحو عامين ، فلا بد أنه كان متصلا بالمستر مرجوليوث أو تتلمذ عليه . فإن لم يكن «مرجوليوث» نفسه فأحد أعوانه ، أو أحد المستشرقين الآخرين مثل «توماس آرنولد» ، الذى يشير إليه الشيخ أو الكتاب فى غير موضع ، ويصفه « بالعلامة» ، والذى ألف كتابا عن « الخلافة» هاجم فيه الخلافة بوجه عام ، والعثمانية بوجه خاص . وقد نقدناه وبيننا أخطاءه فى كتابنا الذى ذكرناه : [النظريات السياسية الإسلامية] . .

فالنظرية إذن - إذا سلمنا بصحة الخبر - أنه فى أثناء الحرب العالمية الأولى كلفت المخابرات البريطانية أحد المستشرقين الإنجليز المتصلين بالدراسات الإسلامية أن يضع كتابا يهاجم فيه الخلافة وعلاقتها بالإسلام ، ويشوه تاريخها ليهدم وجودها ومقامها ونفوذها بين المسلمين ، فكتب «مرجوليوث» أو « أورنولد» أو غيرها هذا الكتاب . . فاستخدمته السلطات فى الهند أو فى غيرها . ثم بعد أن انتهت الحرب - وكان الشيخ عبد الرازق قد اطلع على هذا الكتاب أو عثر عليه - هذا ، إن لم نفرض أن هذا كان باتفاق بينه وبين هذا المستشرق الذى اتصل به حينما كان فى إنجلترا ، أو بعض الجهات البريطانية التى كانت تعمل فى الخفاء للقضاء على فكرة الخلافة ، والتى تحارب الإسلام - أخذ الكتاب فترجمه إلى اللغة العربية ، أو أصلح لغته إن كان بالعربية ، وأضاف إليه بعض الأشعار والآيات القرآنية التى يبدو أنها لم تكن فى أصل الكتاب ، وبعض الهوامش وال فقرات ، وأخرجه للناس على أنه كتاب من تأليفه - ظنا منه أنه يكسبه شهرة ، ويظهره كباحث علمى ، ومتفلسف ذى نظريات جديدة ، غير مدرك ما فى آرائه أو ثنياه من خطورة» (٤٩) .

(٤٩) د . محمد ضياء الدين الرئيس : [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث . نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم] . ص ٢١٢ - ٢١٦ . الطبعة الثانية - القاهرة ، سنة ١٩٧٧ م .

والدكتور الرئيس ، فى هذا الذى كتبه ، لم « يحقق » رواية الشيخ بخيت . . وإنما وقف عند استنتاجات رآها « الأظهر » و«الظن الغالب» . . وإذا كانت استنتاجاته هذه و«ظنونه» لازالت بانتظار « التحقيق العلمى » الذى يخرجها من إطار « الظنون» . . فإن لنا عليها ملاحظات ، منها :

(أ) إن «توقعه» تكليف المخابرات البريطانية «مرجوليوث» أو «أرنولد» أو غيرهما كتابة كتاب يهاجم الخلافة ، أثناء الحرب العالمية الأولى ، للاستفادة به فى الحرب ضد الدولة العثمانية . . هو «توقع» ليس عليه دليل ، بل ربما رجحت الأدلة عدم حدوثه . . فكتاب « أرنولد » [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م] عن [الخلافة] كتب سنة ١٩٢٤ م ، بعد انتهاء الحرب بسبع سنوات . وبحث «مرجوليوث» [١٨٥٨ - ١٩٤٠ م] عن [الاعتبارات التاريخية فى الخلافة] ، كتب سنة ١٩٢١ م . . وبحثه عن [معنى كلمة الخليفة] ، كتب سنة ١٩٢٢ م . . وكتابه عن [الخلافة] كتب سنة ١٩٢٤ م . . وحتى كتاب «سانتيلانا» [١٨٥٥ - ١٩٣١ م] عن [الخلافة والسلطان فى الشرع الإسلامى] ، فإنه قد كتب هو الآخر سنة ١٩٢٤ م . . فكل هذه التأليف عن الخلافة ، قد كتبت بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات . . وبعد سنوات إقامة على عبد الرزاق فى إنجلترا - [١٩١٣ - ١٩١٥ م] - . . وكذلك الحال مع كل ماكتبه «جب» [١٨٩٥ - ١٩٦٧ م] عن الخلافة . . فدراسته عن [نظرية الماوردى فى الخلافة] ، كتبت سنة ١٩٣٧ م . . وبحثه عن [الخلافة فى الإسلام] ، كتب سنة ١٩٣٩ م . . و[الخلافة عند السنة] تاريخ كتابته سنة ١٩٤٧ م . . ودراسته عن [تطور الحكومة فى صدر الإسلام] ، صدرت سنة ١٩٥٥ م . . وبحثه عن [الحكومة والإسلام فى صدر العصر الجاهلى الأول] ، كتب سنة ١٩٦٢ م . . (٥٠) .

(٥٠) انظر ذلك فى الحديث عن أعمال هؤلاء المستشرقين : نجيب العقيقى ، [المستشرقون] . طبعة دار المعارف - القاهرة ، سنة ١٩٦٤ م .

«فالتوقع» الذى بنى عليه الدكتور الرئيس «ظنونه»، لا أساس له من الواقع والتحقيق! . .

(ب) الملاحظة الثانية: هى أن الدكتور الرئيس قد ناقش - فى كتابه الفذ [النظريات السياسية الإسلامية] - كل آراء المستشرقين فى الخلافة والحكومة الإسلامية والنظريات السياسية الإسلامية . . من «مرجوليوت» إلى «أرنولد» إلى «مكدونالد» إلى «سانتيلانا» إلى «موير»^(٥١) . . وناقش كذلك آراء على عبد الرازق^(٥٢) . . ولم يكتشف فى هذا الكتاب، الذى أورد فيه آراء المستشرقين - حتى بلغاتهم الأصلية - وآراء على عبد الرازق ، أن كتاب على عبد الرازق هو نفس كتابات وآراء هؤلاء المستشرقين!! . .

(جـ) والملاحظة الثالثة: هى أن دعاوى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] هى دعاوى غير مسبقة فى تاريخ الكتابة عن الإسلام والحكومة والسياسة على الإطلاق، سواء أكانت هذه الكتابة لمستشرقين أم لمسلمين . . لقد اختلف المستشرقون حول طبيعة دولة الخلافة الإسلامية . . «أوتوقراطية» - مستبدة؟ - أم «ثيوقراطية» - إلهية؟ . . أم «نوموقراطية» - حكومة «القانون»؟ . . وكان مرجع خلافهم هو موضوع بحثهم ونظرهم: «الخلافة الواقعية» - الناقصة . . التى شابتها شوائب «التاريخ الإسلامى»؟ . . أم «الخلافة، كفكرة، وكقانون وكنظريات»؟ . . كما شخص القضية بعمق الدكتور الرئيس نفسه^(٥٣) . . لكن أحدا من هؤلاء المستشرقين - ولا من غيرهم - لم يقل ماقاله كتاب [الإسلام وأصول الحكم]: إن الإسلام لا علاقة له بالملك والحكم والسياسة . . وإن رسول الإسلام لم يقيم حكومة ولا دولة ولم يقد أمة، بالمعنى السياسى، ولم يطبق شريعة تتجاوز بها حدود البلاغ عن الله

(٥١) [النظريات السياسية الإسلامية] . ص ٢٩٩ - ٣٠٤، وص ٣٢٠ - ٣٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م .

(٥٢) المرجع السابق . ص ٣٢٦ - ٣٣٢ . (٥٣) المرجع السابق . ص ٣٢٦ .

.. ففكر هذا الكتاب غير مسبوق في هذا « الشذوذ » و«الابتداع»! ومن ثم فإن نسبته إلى كتابات أى من هؤلاء المستشرقين هو « ظن » لم يقيم عليه دليل .. بل إن كتاباتهم عن الخلافة - والتي جاءت إبان إسقاطها - وليس أثناء الحرب العالمية الأولى - تنفى أى أساس لهذه « الظنون »!! ..

● فإذا جئنا إلى حقبة الثمانينيات - وإلى سنة ١٩٨٩ م على وجه التحديد - وجدنا القضية تثار مرة أخرى - بل وعلى نحو غير مسبوق! ..

فبعد أن نشرت كتابى [معركة الإسلام وأصول الحكم]^(٥٤)، والذي ضمته آراء على عبد الرازق .. ووثائق المعركة الفكرية التى أثارها هذه الآراء .. ورد الشيخ محمد الخضر حسين بكتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] على هذه الآراء .. وما قاله لى أكبر أبناء الشيخ على عبد الرازق - محمد - عن شروع والده، قبيل وفاته فى كتابة صفحات يوضح فيها حقيقة آرائه فى علاقة الدين بالدولة - وهى التى أسىء فهمها!! - وملابسات صدور كتابه سنة ١٩٢٥ م ، الأمر الذى يوحى بتراجعه عن الآراء التى فهمت من الكتاب ..

لما نشرت هذا الكتاب، كتبت ابنة الشيخ على - الدكتورة سعاد - مقالا بصحيفة [الوفد] نفت فيه تراجع أبيها عن آرائه الواردة والواضحة فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم]!! .. ولما كنت أعلم الموقع والتوجه الفكرى للدكتورة سعاد - مدرسة الفلسفة بجامعة عين شمس - وهو الموقع والتوجه العلمانى، الذى يرمى أبناءه فى حقل الفلسفة الإسلامية الحبر الكاثوليكي الأب جورج قنواتى - من قاعدته الفكرية: « دير الآباء الدومينكان » بالقاهرة - فلقد آثرت أن يكون مقال الدكتورة سعاد مناسبة « للتحقق » من القضية .. قضية تراجع أو عدم تراجع على عبد الرازق عن الآراء الواردة فى كتابه ..

(٥٤) طبعة القاهرة - دار الشروق - سنة ١٩٨٩ م.

فطلبت من أحد نبهاء المحررين في صحيفة « الوفد » - الأستاذ عماد الغزالي ، وهو من المتعاطفين فكريا مع العلمانية وكتاب على عبد الرازق ! - إن يجمع خيوط القضية ، ويبحث لعلامات استفهامها عن إجابات لدى الأحياء الذين كانوا على علاقة بصاحب [الإسلام وأصول الحكم] ، لتسجيل شهاداتهم عما سمعوه من الرجل حول هذا الموضوع . . وكانت الثمرة تحقيقا صحفيا ، نشر في [الوفد] على خمس حلقات . . شهد فيه الشيخ محمد الغزالي أن على عبد الرازق - وكان يصلي خلفه الجمعة بالجامع الأزهر - : « قد أعرب لي في العديد من اللقاءات عن أسفه وندمه الشديد إزاء ماجاء بكتابه . . وأنه قد عدل عن موقفه الوارد فيه ، وخاصة فيما يتعلق بروحانية الرسالة الإسلامية ، فقد أكد لي - [أى للشيخ الغزالي] - أنه لم يقصد ذلك على الإطلاق ، لأن الإسلام ليس كهنوتيا ، ولأنه دين ودولة ! . .

أما الدكتور محمد رجب بيومي ، وهو واحد من علماء الأزهر . . وعميد سابق لكلية اللغة العربية ، فقد شهد بأن الشيخ على عبد الرازق قد رغب في لقائه ، بعد أن اشترك الشيخ على في فحص كتاب الدكتور بيومي [الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير] ، في لجنة الأدب بمجمع اللغة العربية . وفي اللقاء ، الذي تم بمنزل الشيخ على ، سأل الدكتور بيومي الرجل « عما جاء في كتابه - [الإسلام وأصول الحكم] - من أن الإسلام رسالة روحية محضة » . . ويستطرد الدكتور بيومي ليحكى جواب على عبد الرازق فيقول : إنه « نفى بشدة ، ودعاني إلى البحث عن المقال المنشور في مجلة [رسالة الإسلام] . . » - [وهو المقال الذي قال فيه إن عبارة : « الإسلام مجرد رسالة روحية » هي كلمة ألقاها الشيطان على لساني . . وليست رأيي ، ولم تكن رأيي في يوم من الأيام ! . .] -

ويضيف الدكتور بيومي ، في « شهادته » فيقول : « وحينما قارنت المقال بآرائه الواردة في الكتاب زادت حيرتي ، فهو في الكتاب يعلن صراحة : أن

الإسلام دين لادولة، ولكنه في المقال يرى أن الكلمة تسربت على لسانه خطأ، وأن الشيطان ألقى في حديثه بتلك الكلمة. وقد تأكد لدى، بعد اللقاء، أن الرجل تراجع. وكان عليه أن يكون صريحاً في التراجع، دون أن يلف تراجعاً في أقنعة تكشف عما تستر» (٥٥)!

أما الشهادة الثالثة، فإنها كانت المفاجأة الكبرى، التي فتحت في قضية كتاب [الإسلام وأصول الحكم] باباً لا أظنه سيغلق في عهد قريب!!..

فلقد أدلى الشيخ أحمد حسن مسلم - وهو من علماء الأزهر. - وعضو لجنة الفتوى فيه - بشهادة قال فيها، إنه فيما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٨م، كان يعمل واعظاً بصعيد مصر. - في مركز بنى مزار. - حيث بلدة « أبو جرج »، بلدة الشيخ على عبد الرازق - وكان يوماً في قرية « المودة »، القرية من « أبوجرج »، فانقطعت به سبل العودة إلى منزله، فقرر الذهاب إلى « أبوجرج » في ضيافة أسرة عبد الرازق. - وهناك التقى بالشيخ على. وبعد صلاة المغرب، لاحظ الشيخ مسلم آيات الخشوع على الشيخ على عبد الرازق، حتى إنه « تنفل » بعد المغرب بست ركعات - والعادة أداء السنة بركعتين فقط - الأمر الذي جعل الشيخ مسلم يسأل الشيخ علياً :

« كيف يكون حرصك على أداء السنة بهذه الطريقة، وأنت مؤلف كتاب [الإسلام وأصول الحكم]، وهو كتاب عليه كثير من المآخذ التي تقدح في العقيدة؟! ».

ويحكى الشيخ مسلم بقية الحديث فيقول :

« فسكت الشيخ على عبد الرازق قليلاً، وقال لى :

- وهل أنا الذى ألفت هذا الكتاب؟! إنما ألفه الدكتور طه حسين!

(٥٥) وانظر أيضاً للدكتور محمد رجب بيومى : [كتاب الإسلام وأصول الحكم فى الميزان] . ص ٦٢ - ٦٤ - ملحق « مجلة الأزهر » - صفر، سنة ١٤١٤ هـ.

فسألته :

- ولماذا نسبته إليك ؟!

فقال الشيخ على عبد الرازق :

- لقد فاجأني بالكتاب وعليه اسمي . ولما سألته عن سبب ذلك - [أى لما سأل على عبد الرازق طه حسين] - أجاب طه حسين ، مازحا :

- «لكى تكون لك شهرة عالمية ، وذلك بعد أن تنقل عنك وسائل الإعلام الأجنبية والعالمية ، وتحدث عن هذا الكتاب ومابه من فكر !!» .

ولقد سأل الشيخ مسلم الشيخ على عبد الرازق ، عن السبب فى كتمان هذه الحقيقة ، وخاصة بعد أن تعرض لما تعرض له بسبب هذا الكتاب ، الذى لاهلاقة له به . . فكان جواب الشيخ على عبد الرازق - كما ورد فى شهادة الشيخ مسلم - وبأسلوب الحكاية :

- « إن أخلاقه أبت عليه أن يرفع قضية على صديق لعائلته . . كما أن تقاليد العائلة تمنع من إحراج الضيف أو وضعه فى موقف غير كريم » (٥٦) ؟! . .

تلك هى الشهادة « المفاجأة » . . بل « القنبلة » !! . . والتى فتحت فى قضية كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بابا سىظل مستعصيا على الإغلاق ، وخاصة بعد أن أصبح « الفاعلون الأصليون » فى ذمة الله . . ولم يبق على « المسرح » سوى « الرواة » !! . .

(٥٦) وانظر كذلك هذه الشهادة فى صحيفة « الجمهورية » - القاهرة - عدد ٢٨ - ٥ - ١٩٩٣ م . ولقد كتب الشيخ مسلم شهادته هذه بخطه - كعضو فى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - عندما جرى الحديث حول كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بمناسبة طبعته الجديدة ، سنة ١٩٩٣ م ، فى سلسلة كتب « التنوير - المواجهة » . وتاريخ هذه الشهادة المكتوبة بخطه - ولدينا صورة منها - هو ١٢ يونية سنة ١٩٩٣ م .

وإذا كنا لا نملك ولا نستطيع « قبول » هذه الشهادة على إطلاقها . . ولا « رفضها » أيضا على الإطلاق . . فإن ما لدينا الآن هو حقائق تشكك في « قبولها على إطلاقها » ، وتدعو إلى البحث عن الوقائع والأدلة التي تقيد إطلاقها الغريب وأبعاد دلالاتها الأكثر غرابة! . . والحقائق التي تشكك في « رواية » الشيخ مسلم - بصرف النظر عن انصراف الشك إلى « روايته هو » أو إلى « قول على عبد الرازق له » - فذلك أمر لا نملك عليه دليلا! . . هذه الحقائق مصدرها هو الشيخ على عبد الرازق نفسه . . وهي تقول: إن الرجل ، وإن شهد فكره وشهدت مواقفه - التي سبق رصدنا لها - أنه قد تراجع عن المقولة المحورية للكتاب ، وهي أن الإسلام رسالة روحية لا علاقة لها بالحكم والدولة والسياسة . . ورغم إصراره المستلقت للنظر على أن هذا الرأي لم يكن رأيه في يوم من الأيام ، وأنه لم يقله ولم يقل ما يشبهه ولا ما يدانيه حتى في هذا الكتاب الذي يحمل اسمه . . إن هذا الرجل قد ظل ، في مواقفه المعلنة والمسجلة ، معترفا بأن هذا الكتاب هو كتابه هو ، وليس كتاب طه حسين - كما تقول « رواية . . وشهادة » الشيخ مسلم! . .

ففى بداية « محاكمة » هيئة كبار العلماء للشيخ على عبد الرازق . . سأله رئيس الهيئة وشيخ الأزهر الأستاذ الأكبر الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى ، وهو ممسك الكتاب بيمينه :

- « الكتاب ده كتابك ؟

- [الشيخ على] - : أيوه كتابى .

- الشيخ أبو الفضل - : وأنت مصمم على كل اللى فيه ؟

- الشيخ على - : أيوه مصمم على كل اللى فيه » (٥٧) .

(٥٧) جريدة « السياسة » اليومية ، العدد ٨٦٥ ، فى ١٣ أغسطس ، سنة ١٩٢٥ م . وانظر وصف جلسة المحاكمة ووقائعها فى كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٨٨ - ٩٢ . طبعة دار الشروق - القاهرة ، سنة ١٩٨٩ م .

ولقد ظل هذا هو الموقف المعلن والثابت لعلى عبد الرازق بالنسبة لعلاقته بكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . ففى آخر لقاء صحفى تم معه . . وهو الذى قام به الأستاذ محمود أمين العالم فى منتصف سنة ١٩٦٦م . . أى قبل أقل من أربعة أشهر على وفاته فى ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٦٦م . . ذهب الأستاذ العالم ، وكان عضوا بالتنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى - طليعة الاشتراكيين - ويعمل بمؤسسة « دار الهلال » . . وكان المناخ الفكرى فى أعقاب محاكمة الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ ، ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] !! ذهب إلى على عبد الرازق ، معاودا الإلحاح عليه أن يأذن بإعادة طبع كتابه [الإسلام وأصول الحكم] . . وفى هذا اللقاء - الذى نشره الأستاذ العالم (٥٨) - ظل على عبد الرازق على موقفه :

● الاعتراف بأن هذا الكتاب كتابه . . وأنه لم يتخل عنه ! . .

● ورفض الإذن بإعادة طبعه ، مخافة أن يلاقى بسبب ذلك أذى جديدا . . إذ لا ضمانات تجعله بمأمن من أن يلاقى مثلما لاقى من نشر هذا الكتاب ! . .

لقد قال للأستاذ العالم - بعد إلحاحه عليه أن يأذن لدار الهلال فى إعادة طبع الكتاب :

- اطبعوا الكتاب كما تشاءون ، ولكن دون استئذانى . ما أريد أن أحمل أى مسئولية فى ذلك .

فلما قال له الأستاذ العالم :

- ولكنه كتابك ياسيدى ، كتابك الجدير بالفخر والاعتزاز . هل تتخلى عنه ؟ ! . .

(٥٨) مجلة « المصور » ، فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٦٦م .

كانت إجابة الشيخ :

- لا . لست أتخلى عنه ، ما تخليت عنه أبدا . على أنى لست مستعدا أن ألقى بسببه أى أذى جديد . ما عدت أستطيع ذلك . كفانى ما لاقيت . فقال له العالم . ليغريه بتغيير موقفه :

- لقد انتهى ذلك العهد البغيض . ولن تلقى اليوم ، ولن يلقي كتابك غير التكريم والتقدير والإشادة من المفكرين ومن الدولة على السواء . كان جوابه :

- من يدرينى ؟ من يدرينى ؟ أريد توكيدا من الدولة ، أريد ضمانا . فقال العالم :

- إن واقعنا الفكرى والاجتماعى الجديد هو خير ضمان . . .
فهز على عبد الرازق رأسه ، وقال :

- لم أعد أحتمل أى مغامرة جديدة . . من يدرى ؟ . . اطبعوا الكتاب على مسئوليتكم ، ولا تطلبوا منى إذنا بغير ضمان أكيد أطمئن إليه . . . !! .

ففى هذا اللقاء ، الذى تم قبل أقل من أربعة أشهر من وفاة الرجل ، ظل الرجل - مع إصراره على عدم إقامة العلاقة بينه وبين طبعة جديدة للكتاب - معترفا بأنه كتابه . . «لست أتخلى عنه ، ما تخليت عنه أبدا» . . الأمر الذى يدعو إلى «التوقف» و«البحث» فى «رواية» الشيخ أحمد حسن مسلم ، التى روى فيها عن على عبد الرازق قوله : «وهل أنا الذى ألفت هذا الكتاب؟ ! إنما ألفت الدكتور طه حسين» !!

على أن لقائل أن يقول : إن الشيخ على عبد الرازق قد أطلع عالم الأزهر الشيخ أحمد مسلم على « السر » الذى لم يكن ليطلع عليه المفكر الماركسى . .

عضو التنظيم الطليعى ، محمود أمين العالم . . وأن هذا « السر » ربما كان هو موضوع الصفحات التى هم الرجل بكتابتها أواخر حياته ، أمام الإلحاح على إعادة طبع الكتاب ، وفق رواية أكبر أبنائه محمد ، وهى الرواية التى سبقت إشارتنا إليها . .

لكن ذلك كله يظل فى إطار « الظنون » و« التخمينات » . . وفى أحسن الأحوال « الاستنتاجات » . . ولا يرقى شىء منه لمستوى الوقائع والأدلة التى يطمئن إليها « التحقيق » فى مثل هذا الأمر الخطير . . أمر المؤلف الحقيقى لكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . أهو على عبد الرازق ؟ . . أم الدكتور طه حسين ؟ . . ثم لماذا لم يبيع بهذا « السر » للشيخ الغزالي ؟ . . واكتفى بتأكيد تراجعه عما جاء بالكتاب ؟ . .

● وإذا كنا لا نملك الأدلة التى تجعلنا نقبل كامل « رواية » الشيخ أحمد مسلم . . فإن لدينا من الأدلة ما يجعلنا نقول بوجود « علاقة » بين الدكتور طه حسين وبين هذا الكتاب . . وهى « أدلة » تخطو بنا خطوات على درب تبديد الغموض المحيط بهذا الموضوع ! . .

وهذه الأدلة ستبدأ بما جاء فى كتاب صغير، لكنه هام . . وعنوانه [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] ، لأخيـنا وصديقنا الدكتور محمد الدسوقي - أستاذ الشريعة بجامعة قطر - وهو عبارة عن آراء وكلمات للدكتور طه حسين ، دونها الدكتور الدسوقي إبان عمله « سكرتيراً مجتمعياً » للدكتور طه حسين . . عندما كان طه حسين رئيساً لمجمع اللغة العربية ، وكان الدكتور الدسوقي يعمل بالمجمع ، وعهدت إليه مهمة قراءة الكتب والصحف والرسائل للدكتور طه - وذلك ما بين سنة ١٩٦٤ م وسنة ١٩٧٢ م - . . وكان الدكتور الدسوقي - كما قال - « يكتب » كلمات طه حسين فور سماعها منه (٥٩) ! . .

(٥٩) انظر هذا الكتاب [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] - طبعة دار المعارف ، سلسلة « اقرأ » ، سنة ١٩٩٢ م .

وفي هذا الكتاب أربع صفحات عن علاقة طه حسين بعلى عبد الرازق . . وبكتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . نستطيع أن نخرج منها بالحقائق الآتية :

١ - على غير ما هو شائع من أن العلاقة كانت أصلاً بين طه حسين و«أسرة» عبد الرازق . . يقول طه حسين لنا، في هذا الكتاب، إن العلاقة بدأت بينه وبين على عبد الرازق، منذ مرحلة طلبهما العلم في الجامع الأزهر، ثم أصبحت مع « الأسرة » . . وفي ذلك يقول الدكتور طه : «عرفت الأستاذ على عبد الرازق منذ أيام الطلب في الأزهر، ولم تقتصر علاقتي به وحده، فقد شملت الأسرة كلها. وكانت لنا جلسات ممتعة في بيت آل عبد الرازق، في عابدين. وأذكر أني رثيت والدته على عبد الرازق، وكذلك والده، وكان هذا الرثاء شعراً، ونشر في الجريدة . . » . .

ويحدد طه حسين عمق العلاقة بينه وبين على عبد الرازق، ودوام الصلة والزمالة، منذ كانا طالبيين بالأزهر، فيقول : «إن صلتى بعلى عبد الرازق كانت وثيقة جداً. وأذكر أن علياً، وهو طالب في الأزهر، قد استأجر حجرة قرب الأزهر ليستريح فيها بين الدروس، نظراً لبعده منزل الأسرة عن الأزهر. وكان يصر على أن أذهب معه إلى هذه الحجرة طوال فترة بقائه فيها، وكنا نقضى الوقت في مذاكرة بعض العلوم وقراءة كتب الأدب» (٦٠) .

فنحن أمام « علاقة حميمة » و«تلازم» بينهما منذ مرحلة « المجاورة » في الأزهر . . سبقت علاقة طه حسين بالأسرة، واستمرت معها، بل وكانت السبب فيها . . وهى علاقة فيها، إلى جانب الصداقة، الفكر . . الذى بدأ « بمذاكرة بعض العلوم وقراءة كتب الأدب » إبان طلبهما للعلم بالأزهر .

(٦٠) المرجع السابق . ص ٦٩ ، ٧٠ .

٢ - وفي يوم ١٧ - ١١ - ١٩٧٠م ، قرأ الدكتور محمد الدسوقي على الدكتور طه حسين دراسة نشرتها مجلة «آخر ساعة» ، للأستاذ محمود عوض ، عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، وفيها إشارة إلى مقال كتبه الدكتور طه دفاعاً عن الكتاب - في صحيفة «السياسة» - بعد الحكم على مؤلفه - سنة ١٩٢٥م ، فعلق الدكتور طه على هذه الإشارة بقوله :

« لقد كتبت مقالين في «السياسة» عن هذا الموضوع ، وهاجمت شيوخ الأزهر لتجريدهم الشيخ على عبد الرازق من درجة العالمية ، وإبعاده من القضاء الشرعى ، وخاصمت بعض هؤلاء ، مع اعترافى بفضلهم على ، مثل الشيخ سيد المرصفى ، بسبب اشتراكه فى محاكمة الشيخ على» . .

ثم استطرد الدكتور طه ، متحدثاً عن دور الملك فؤاد [١٢٨٥ - ١٣٥٥هـ ، ١٨٦٨ - ١٩٣٦م] فى المعركة التى دارت حول كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، فقال : « إن الملك فؤاد كان يروج لفكرة الخلافة الإسلامية ، بعد إلغاء هذه الخلافة فى تركيا ، وكان يطمع فى أن يصبح خليفة للمسلمين ، فجاء هذا الكتاب ليحارب هذه الفكرة ، لأنه [أى الكتاب] ينتهى إلى أن الإسلام دين لا دولة ، وأن الرسول ، ﷺ ، ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ، ﷺ ، لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها» .

ويستلفت نظرنا فى هذه العبارة التى لخص فيها طه حسين ما انتهى إليه كتاب الإسلام وأصول الحكم . . أنها - أى العبارة - هى نص حرفى لسطور من الكتاب ، كانت محفورة فى ذاكرة الرجل ، الذى لم يكن قارئاً (٦١)!! . . وبين زمن «الإملاء» وتأليف الكتاب قرابة نصف القرن من الزمان!! . .

فلما سأله الدكتور الدسوقي :

- هل تقر ما قاله الشيخ على عبد الرازق فى هذا الموضوع الخطير؟

(٦١) انظر هذه العبارة فى كتاب : [الإسلام وأصول الحكم] . ص ٦٤ ، ٦٥ .

أجاب :

- «هذا رأيه» . .

لكنه كرر - دفاعا عن هذا الرأي - الإشارة ، مجددا ، إلى دور الملك فؤاد في معركة [الإسلام وأصول الحكم] بل ومعركة كتاب [في الشعر الجاهلي] - للدكتور طه - . . فقال :

- « هذا رأيه ، وما كان يجب محاكمته بسببه . والواقع أن الملك كان من وراء محاكمة الشيخ على ، كما كان من وراء ما أثير حول كتاب [في الشعر الجاهلي] . . » .

وفي سياق هذا الحديث ، قال الدكتور طه حسين العبارة ، التي نعتبرها مفتاح باب العلاقة بينه وبين كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، العلاقة الفكرية ، التي تدخل في صميم المشاركة في الفكر الذي حمله هذا الكتاب ، وليس مجرد الدفاع عنه بعد صدوره مطبوعا . قال الدكتور طه :

« . . على أنى قرأت أصول كتاب الشيخ على ، قبل طبعه ، ثلاث مرات ، وعدلت فيه كثيرا » (٦٢) .

فنحن أمام اعتراف من الدكتور طه حسين بأن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] هو لعلى عبد الرازق . . مع الإقرار بأن لطه حسين دورا في « تأليفه » - وليس في « تصحيحه » - فهو قد قرأ « أصوله » وليس « تجارب طبعه » . . وقرأ هذه « الأصول » « ثلاث مرات » . . و« عدل » - وليس « صحح » - فيها « كثيرا » - وليس « قليلا » - . . ! . فهذا الكتاب ، إذن - وبعد هذا الاعتراف - هو « شركة » بين على عبد الرازق وبين طه حسين . . وإذا كان على عبد الرازق قد قال : « إنه كتابي . لست أتخلى عنه . ما تخليت عنه أبدا . . » . . فإن طه حسين قد قال إن له فيه إسهاما ، بالتعديلات الكثيرة التي أدخلها عليه ،

(٦٢) المرجع السابق . ص ٧٠ ، ٧١ .

ثلاث مرات، وهو في طور «الأصول . . والتأليف» . . فليس الكتاب بالخالص
لعلى عبد الرازق وحده . . ولا هو بالخالص للدكتور طه حسين!! . .

● وهنا . . وعند هذا الحد من تحقيق هذه القضية، علينا أن نسأل :

أى أفكار هذا الكتاب وأبوابه هى الأقرب إلى أن تكون إسهام على
عبدالرازق فيه ؟ . . وأيها هى الأقرب إلى إسهام طه حسين ؟ . .

نحن ندرك، بالطبع، أن الإجابة الدقيقة، والمثلة لكامل الحقيقة، لا
يملكها إلا الرجلان أو أحدهما . . ولقد أصبحا معا فى رحاب الله . .
ولذلك، فسنعتمد على أدوات « التحقيق الفكرى »، الذى « يقترب » بنا
ممانراه الصواب فى هذا الجواب . . وهو تحقيق نسوقه فى هذه النقاط :

١ - إن الأفكار المحورية فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] تدور حول

محورين رئيسيين :

(أ) محور « الخلافة »، وعلاقتها بالإسلام - وهذا المحور هو موضوع
« الكتاب الأول » بأبوابه الثلاثة . . و « الكتاب الثالث » بأبوابه
الثلاثة . .

(ب) ومحور « السياسة »، وعلاقتها بالإسلام - وهذا المحور هو موضوع
« الكتاب الثانى » بأبوابه الثلاثة . .

٢ - وبالنسبة للخلافة، يقدم لها الكتاب صورة سوداوية، تنفر الناس
منها كل النفور . . وتقطع أية صلة بينها وبين الإسلام . . فهى استبداد باسم
الدين، وثيوقراطية تغتصب وتحتكر سلطان الله والرسول . . وبنصوص
الكتاب . . فإن الخليفة « ولايته عامة ومطلقة، كولاية الله تعالى، وولاية رسوله
الكريم . . »^(٦٣) . . و« استمداد الخليفة لسلطانه من الله تعالى مذهب جار على
الألسنة، فاش بين المسلمين^(٦٤) . . » . . وهذه الخلافة « لم تركز إلا
على أساس القوة الرهيبة . وإن تلك القوة كانت، إلا فى النادر، قوة مادية

(٦٣) المرجع السابق . ص ٤ . (٦٤) المرجع السابق . ص ٩ .

مسلحة . . » (٦٥) . . تستوى في ذلك عهودها الراشدة وغير الراشدة ، الكاملة منها والناقصة . . فحتى خلافة الصديق أبى بكر كانت كذلك . . » . . وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لأبى بكر . . تبين لك . . أنها إنما قامت . . على أساس القوة والسيف . . » (٦٦) . . ولقد كانت علاقة المسلمين بخلفائهم هي علاقة « الخضوع الوثنى لجلالهم الدينى المزعوم » (٦٧) . . ولذلك « كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين ، وينبوع شر وفساد . . » (٦٨) . . !! . .

تلك هي صورة الخلافة الإسلامية في كتاب [الإسلام وأصول الحكم] . .

٣ - وهذه الصورة للخلافة الإسلامية هي أبعد ما تكون عن صورتها في الأعمال الفكرية المحقق نسبتها إلى الدكتور طه حسين . .

فهو في الجزء الأول من كتابه عن [الفتنة الكبرى] يقول عن الخلافة الإسلامية : « وما من شك في أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضا إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم ، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم . . فالخلافة عهد بين المسلمين وخلفائهم . . إن أمر الخلافة كله قام على البيعة ، أى على رضا الرعية ، فأصبحت الخلافة عقدا بين الحاكمين والمحكومين ، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل ، وأن يرعوا مصالحهم ، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما وسعهم ذلك ، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوهم ويعينوا . . » . . ولذلك ، فإن رأى القائل بأن هذا النظام « إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى . . هو أبعد الآراء عن الصواب » (٦٩) . .

(٦٥) المرجع السابق . ص ٢٥ .
(٦٦) المرجع السابق . ص ٣٨ .
(٦٧) المرجع السابق . ص ٣٦ .
(٦٩) د . طه حسين : [الفتنة الكبرى] ، ج ١ - عثمان - ص ٢٢ ، ٢٥ - ٢٧ . طبعة دار المعارف - القاهرة ، سنة ١٩٨٤ م .

فصاحب هذا الرأى فى الخلافة الإسلامية لايمكن أن يكون هو كاتب ورأس صورتها البائسة الكثيبة التى جاءت بكتاب [الإسلام وأصول الحكم] ..

٤ - أما محور السياسة وعلاقتها بالإسلام، والذي خصص له كتاب [الإسلام وأصول الحكم] « الكتاب الثانى » ، بأبوابه الثلاثة ، فإنه يجعل الإسلام كالمسيحية، دينا لا دولة، ورسالة لا حكما.. . ويصف عبارة الإنجيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» بأنها «الكلمة البالغة»^(٧٠)!! .. ويجعل الإسلام رسالة دينية خالصة للدين، لا سياسة فيها.. . وبلاغا محضا، لا أثر فيها للتنفيذ والتطبيق والإقامة للشرائع.. . ويصور رسول الإسلام، ﷺ، كخالين من الرسل، لم يقم دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يسس أمة «.. . فما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة. ولم يكن للنبي ملك ولا حكومة، ولم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتهما. ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى ملك^(٧١).. . فولاية الرسول على قومه ولاية روحية.. . وولاية الحاكم مادية.. . تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية. ويا بعد ما بين السياسة والدين.. .»^{(٧٢)!!}

٥ - وهذا الرأى - الذى جاء بكتاب [الإسلام وأصول الحكم] - عن علاقة الإسلام بالسياسة، والذي جعل الإسلام رسالة روحية محضة ودينية خالصة من السياسة والدولة والحكم والتنفيذ، والذي أحال جميع ذلك إلى «العقل والتجريب» دون الدين، «فهى خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها.. . نرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة.. .»^(٧٣).

(٧٠) [الإسلام وأصول الحكم]، ص ٤٩. (٧١) المرجع السابق. ص ٦٤، ٦٥.

(٧٢) المرجع السابق. ص ٦٩. (٧٣) المرجع السابق. ص ١٠٣.

هذا الرأي هو الذى كان الشيخ على عبد الرازق دائم الإصرار على أنه ليس رأيه، لم يقله، ولم يكتبه، لا فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ولا فى غيره . . بل ودائم الإصرار على أنه لم يقل شيئاً يشبهه أو يدانيه . . صنع ذلك منذ أن قدم دفاعه فى مذكرة مكتوبة إلى هيئة كبار العلماء أثناء مساءلته ومحاكمته تأديبياً فى أغسطس سنة ١٩٢٥ م^(٧٤) . . وحتى مقاله فى مجلة «رسالة الإسلام» - مايو سنة ١٩٥١ م - والذى قال فيه « إن فكرة روحانية الإسلام لم تكن رأياً لى يوم نشرت البحث المشار إليه - [كتاب الإسلام وأصول الحكم] . . ولقد رفضت يومئذ رفضاً باتاً أن يكون ذلك رأياً . . إننى لم أقل ذلك مطلقاً لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره، ولا قلت شيئاً يشبه ذلك الذى أو يدانيه » .

ثم عزا تسرب كلمة « إن الإسلام رسالة روحانية فقط » إلى لسانه فى حوار مع الدكتور أحمد أمين، إلى « أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى . . وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ، ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لى ببال؟ . بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة . . وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس »^(٧٥) !!

فالرجل عاشن يتبرأ من هذا الفكر الذى يجرد الإسلام من السياسة والدولة والتنفيذ، ويقف به عند حدود الروحانية والبلاغ . . وهو الفكر الواضح وضوح الشمس فى رائعة النهار بكتاب « الإسلام وأصول الحكم » !! . .

٦ - وهذا الفكر الذى يجرد الإسلام من السياسة - والذى يبرأ منه على عبد الرازق - هو فكر الدكتور طه حسين فى أعماله الفكرية التى لا شبهة فى إبداعه لها إبداعاً خالصاً ومستقلاً! . .

(٧٤) انظر نص هذه المذكرة بكتابنا: [معركة الإسلام وأصول الحكم]، ص ٩٣ - ١٠١ .

(٧٥) مقال « تعقيب على مقال: الاجتهاد فى الإسلام »، بقلم على عبد الرازق. مجلة « رسالة الإسلام »، عدد مايو، سنة ١٩٥١ م.

ففى كتاب [مستقبل الثقافة فى مصر] - وهو الذى نشر سنة ١٩٣٨ م -
ينفى طه حسين علاقة الدين بالسياسة . . فىقول : « إن السياسة شىء
والدين شىء آخر ، وإن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع
العملية قبل أن يقوموا على أى شىء آخر . . وهذا أصل من أصول الحياة
الحديثة . . »^(٧٦) بل ويرى هذا « الأصل » أقدم من الحياة الحديثة ، فىقول :
« . . ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة
الدين ، ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما
لتكوين الدول . »^(٧٧)!

ولا يرى طه حسين الإسلام متميزا عن النصرانية بالشرعية المنظمة لشئون
الدنيا ، والحاوية لفلسفة قانونية هى وضع إلهى ، ولحدود ومعالم ضابطة
لمقاصد العمران البشرى ومساراته الأساسية . . بل يرى التماثل تاما بين
الإسلام والنصرانية التى اتفق الجميع - من أهلها وغير أهلها - على أنها رسالة
روحانية محضة ، فىقول : « إن جوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية
ومصدرها . . والإسلام قد جاء متمما ومصدقا للتوراة والإنجيل . . والقرآن
إنما جاء متمما ومصدقا لما فى الإنجيل . . وإن بين الإسلام والمسيحية تشابها
فى التاريخ عظيم . . »^(٧٨)!

ونفس الفكر ، الذى ينفى علاقة الإسلام بالسياسة ، ويجعله نصرانية تدع
ما لقيصر لقيصر وما لله لله - وهو الذى رأيناه فى [الإسلام وأصول الحكم]
وفى [مستقبل الثقافة فى مصر] - نجده فى كتاب [الفتنة الكبرى] لطله
حسين!! . . ففىه يقول عن أن الإسلام هو دين فقط : « كان الإسلام وما زال
دينا قبل كل شىء وبعد كل شىء ، وجه الناس إلى مصالحهم فى الدنيا وفى

(٧٦) [مستقبل الثقافة فى مصر] . ج ١ ، ص ١٧ .

(٧٧) المرجع السابق . ج ١ ص ١٦ .

(٧٨) المرجع السابق . ج ١ ص ٢٣ ، ٢٩ ، ٢٢ .

الآخرة بما بين لهم من الحدود والأحكام التى تتصل بالتوحيد أولاً، وبتصديق
النبي ثانياً، وبتوخى الخير فى السيرة بعد ذلك . . » (٧٩) .

فما عدا « التوحيد » و« النبوة » - فى الإسلام - مجرد « أخلاق » !! . .

وعنده « أن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملًا أو مفصلاً، وإنما أمر
بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى،
ورسم لهم حدوداً عامة، ثم ترك لهم - [للناس] - تدبير أمورهم كما يحبون
على ألا يتعدوا هذه الحدود، وأن النبي نفسه لم يرسم بسنته نظاماً للحكم ولا
للسياسة . . ولو قد كان للمسلمين نظام سياسى منزل من السماء لرسمه
القرآن أو لبين النبي حدوده وأصوله، وفرض على المسلمين الإيمان به
والإذعان له فى غير مجادلة ولا منازلة ولا ممارسة . . » (٨٠) .

فليس فى القرآن ولا فى السنة نظام للسياسة أو الحكم، مجملًا كان هذا
النظام أو مفصلاً . . وتدبير ذلك متروك لما يحب الناس، بشرط ألا يتعدوا
ما جاء به الإسلام من « أخلاق » !! . .

أما هذه المماثلة بين الإسلام والنصرانية فى التجرد من السياسة والحكم
والإدارة والتشريع، والتى تحدث عنها [الإسلام وأصول الحكم] و[مستقبل
الثقافة فى مصر]، فإن كتاب [الفتنة الكبرى] يؤكد عليها، فيقول فيه طه
حسين: « فليس بين الإسلام وبين المسيحية فرق من هذه الناحية . فالإسلام
دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر،
ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور، ثم يخلى بعد ذلك
بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون ماداموا يرعون هذه الحدود . ولا تزيد
المسيحية على هذا ولا تنقص منه . ولأمر ما، قال عيسى عليه السلام للذين

(٧٩) [الفتنة الكبرى] . ج ١ - عثمان - ص ٢٢، ٢٣ .

(٨٠) المرجع السابق . ج ١، ص ٢٤، ٢٥ .

جادلوه من بنى إسرائيل : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله »^(٨١)!! . .

هكذا وجدنا : أن ما تبرأ منه على عبد الرازق ، من كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ، قد تبناه طه حسين في [مستقبل الثقافة] و[الفتنة الكبرى] . . فهل يكون « الكتاب الثانى » - بأبوابه الثلاثة - من كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - والذى تحدث عن « نظام الحكومة فى عصر النبوة » وعن « الرسالة والحكم » ليخلص إلى أن الإسلام : « رسالة لا حكم ، ودين لا دولة »^(٨٢) - هو إسهام طه حسين فى هذا الكتاب ، وثمرة « التعديلات الكثيرة » التى أدخلها فى أصول هذا الكتاب ، ثلاث مرات ، قبل طبعه ؟ . .

لعلنا بهذا « التحقيق » لوقائع هذه القضية ، فى غيبة أصحابها الأصليين . . وبهذه الإجابات عن علامات استفهامها ، بعد وفاة صناع علامات الاستفهام هذه . . لعلنا ، بذلك ، أن نكون قد اقتربنا كثيرا من اليقين ، الذى تطمئن إليه القلوب . . نقول « اقتربنا » . . ولا نزيد!! . .

* * *

● وهناك مشكلة أخرى من مشكلات هذا الكتاب ، قد ترجع إلى تعدد كُتَّابه ومؤلفيه ، وهى مشكلة المتناقضات الفكرية التى يمكن أن يلحظها المتأمل فيه . . ففى القضية الواحدة ترد عبارات وصياغات متفرقة بينها تفاوت ، وأحيانا تناقض فى المفاهيم والدلالات!! . .

ولقد أرجع الدكتور ضياء الدين الرئيس هذه المتناقضات إلى « سوء نية الكاتب ، الذى أودع كتابه الشئ ونقيضه ، ليفتح لنفسه أبواب المراءغة والهروب من الاتهامات التى توقعها!! . . فقال - فى معرض نقده القاسى للكتاب : « . . والأسلوب الذى كتب به الكتاب أسلوب غريب ، ليس

(٨١) المرجع السابق . ج ١ ، ص ٢٧ .

(٨٢) وهذه الجزء يشغل فى الكتاب صفحات : ٣٩ - ٨٠ .

مألوفاً في الكتب العربية . فهو أسلوب مناورات ومراوغة ، ويتصف بالالتواء واللف والدوران . فهو يوجه الطعنة أو يلقي بالشبهة ، ثم يعود فيتظاهر بأنه ينكرها ولا يوافق عليها ويفلت منها . . على طريقة « اضرب واهرب » . . وهذا ينم عن أسلوب رجل سياسى متمرن على المحاوراة والمخادعة . . » (٨٣) .

وإذا كنا لا نختلف على احتواء الكتاب على العديد من المفاهيم والدلالات المتناقضة ، فى القضية الواحدة ، فهل يكون مرجع هذه التناقضات تعدد وتمايز رؤى الذين أسهموا فى تأليف هذا الكتاب ؟ . . . وليس مجرد « المراوغة والمناورة » ؟ . . .

إن الأمر المؤكد هو احتواء الكتاب على الكثير من المتناقضات . . . ومن نهاذجها :

١ - فى الحديث عن خلافة أبى بكر الصديق وزعامته ، يصفها بأنها زعامة « من نوع لا دينى . . . وإذا كانت الزعامة لا دينية ، فهى ليست شيئاً أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية ، زعامة الحكومة والسلطان . لا زعامة الدين » (٨٤) . . . !

وفضلاً عن نفى علاقة خلافة أبى بكر وزعامته بالدين الإسلامى - وهو أمر لم يقل به مسلم ولا مستشرق - قبل تأليف هذا الكتاب - فإن استخدام كلمة « لا دينية » و« لا دينى » فى وصف خلافة الصديق هو قذف للصاعقة على آذان المسلمين ووجدانهم ! . . .

لكن المؤلف ، يدور ، بعيداً عن هذا التجريح ، دورة كاملة ، عندما يتحدث عن التزام أبى بكر بنهج الرسول ، ﷺ ، واتباعه له دون ابتداع ،

(٨٣) [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث . نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٨٤) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٩٠ .

حتى ليحكى كلمات أبى بكر التى خاطب بها الناس فقال : « أيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى ، لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله ﷺ يطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متبع ولست مبتدعاً » (٨٥) !

فهل الزعامة والخلافة « المتبعة » للرسول ، ﷺ ، ودون « ابتداع » ، تكون زعامة وخلافة لا دينية ؟ . . . إنما أمام تناقض فى الحكم والتقييم ! . . .

٢ - ومثال ثان على التناقضات الفكرية الواردة بالكتاب ، أثناء الحديث عن الخلافة . . . فهو يرفض منطق الفقهاء الذين يجعلونها « واجبا دينيا » لتوقف إقامة « الواجبات الدينية » - كواجبات وفروض « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وصلاح الرعية - على إقامتها . . . وما يتوقف عليه الفرض فهو فرض . . . يرفض الكتاب هذه الحجة وهذا المنطق (٨٦) . . .

ثم يعود فيسلم بأن ما قام فى العهد النبوى من « عمل حكومى ، ومظهر للملك والدولة . . . إنما كان وسيلة من الوسائل التى كان عليه ﷺ أن يلجأ إليها ، تثبيتاً للدين وتأييداً للدعوة . . . » (٨٧) !

فيعترف بلزوم « الدولة » لـ « تثبيت الدين وتأييد الدعوة » . . . وإذا كان وجوب تثبيت الدين وتأييد الدعوة مما لا خلاف عليه ولا مرية فيه ، فإن وجوب ما يلزم له ويتوقف عليه هو مثله فى الوجوب ! . . .

٣ - ومثال ثالث يجسد قمة التناقض ، فى أخطر القضايا التى عرض لها الكتاب ، وهى علاقة الإسلام بالسياسة والدولة والحكم . . . وهى التى يسميها الكتاب « كبرى العضلات . . . فهى الأصل وما عداها فروع ، وهى الأم وما عداها تبع » (٨٨) . . . وهى قضية : هل كان النبى ، ﷺ ، صاحب

(٨٥) المرجع السابق . ص ٩٤ . (٨٦) المرجع السابق . ص ١٣ .

(٨٧) المرجع السابق . ص ٧٩ . (٨٨) المرجع السابق . ص ٤٦ .

دولة سياسية ورئيس حكومة، كما كان رسول دعوة دينية وزعيم وحدة دينية أم لا ؟ . . » (٨٩) .

فهو، مرة، يثبت للرسول، ﷺ، في الأمة والمجتمع سلطانا هو جميع سلطان « الدولة . والحاكم . . والسياسي »، وأكثر كثيرا من هذا « السلطان » . . سلطان « الدنيا . . والمادة » و« سلطان « الدين . . والروح » . . فيقول : « . . فلا شيء مما تمتد إليه يد الحاكم إلا وقد شمله سلطان النبي ﷺ ، ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان إلا وهو داخل تحت ولاية النبي ﷺ على المؤمنين » (٩٠) .

فالرسول، هنا، « سلطان . . وحاكم . . وسياسي . . ورجل دولة » وله كل ما يتصور من أنواع الرياسة والسلطان . . وله أكثر من ذلك سلطان « الدين والروح » . .

بل إن الكتاب يبالي كثيرا فيجعل للرسول سلطانا عاما وتاما لا يعترف المسلمون به لغير الله، وذلك من مثل : « الاتصال بالأرواح التي في الأجساد . . ونزع الحجب ليطلع على القلوب التي في الصدور . . وشق قلوب أتباعه ليصل إلى مجامع الحب والضغينة، ومنابت الحسنة والسيئة، ومجاري الخواطر، ومكامن الوسوس، ومنابع النيات، ومستودع الأخلاق » . . بل ويجعل للرسول « حق التصريف لكل قلب تصريفا غير محدود » (٩١) ؟ ! . .

بعد هذه المبالغات - المرفوضة إسلاميا - والتي تجعل الرسول حاكما وسلطانا، وأكثر . . . نرى الكتاب يعود فيجرد الرسول، ﷺ، من أي سلطان في الحكم والسياسة . . فيقول : « إن النبي، ﷺ، لم يكن له شأن

(٩٠) المرجع السابق . ص ٦٨ .

(٨٩) المرجع السابق . ص ٤٧ .

(٩١) المرجع السابق . ص ٦٧ .

في الملك السياسي^(٩٢) . لم يكن له من الحق على أمته غير حق الرسالة . ولو كان ، ﷺ ، ملكا لكان له على أمته حق الملك أيضا . لم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس ، ولم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ ، وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به ، ولا أن يحملهم عليه^(٩٣) .

وهو هنا لا يفرق بين « تبليغ الإيمان الديني » ، الذي لا سلطان فيه للرسول غير « البلاغ » ، لأنه لا يملك فيه على الناس غير البلاغ ، لأنه من شئون « القلوب » . . وبين سياسة الدولة وتنظيم العمران ، والذي لا بد فيه من « الإلزام » بل و« القهر » في الكثير من الأحيان ! . .

المهم ، هو أن الكتاب بعد أن أثبت للرسول ، ﷺ ، سلطان « الملك » و« الحكم » و« السياسة » - وأكثر . عاد فنفي عن الرسول ذلك السلطان ! . .

وما على الذين يريدون « لوحة » تجسد « المتناقضات » إلا أن يتأملوا هاتين العبارتين ، الواردتين في صفحتين متقابلتين من صفحات الكتاب - صفحة ٧٠ ، ٧١ - والتي تقول أولاهما :

« وكان له ، ﷺ ، من السلطان على أمته ما لم يكن لملك قبله ولا بعده » . .
بينما تقول الثانية : « إن النبي ، ﷺ ، لم يكن له شأن في الملك السياسي » ! . .

فهل كانت هذه المتناقضات مجرد « مخارج » للمناورة والمراوغة ؟ - كما يرى الدكتور ضياء الدين الرئيس ؟ ! . .

أم أنها من ثمرات « المشاركة » في تأليف هذا الكتاب ؟ ! . .

(٩٢) المرجع السابق . ص ٧١ .

(٩٣) المرجع السابق . ص ٧٢ ، ٧٣ .

إن الله وحده هو الأعلم باليقين . . ولعل في عرض « المشكلة » أن يكون بمثابة الخطوات التى تقرب بنا من هذا اليقين ! . .

ومشكلة ثالثة من مشكلات هذا الكتاب ، مرجعها إلى تطاول السنين التى كتبت فيها صفحاته ، التى لم تتجاوز المائة إلا بثلاث صفحات . .

فالمؤلف يحدثنا فى المقدمة عن أنه قد بدأ يكتب عن القضاء فى الإسلام ، عندما ولى القضاء [١٣٣٣ هـ - ١٩١٥ م] ، فلما وجد القضاء فرعاً من الحكومة ، بدأ يمهد لبحثه فى القضاء بالبحث فى « الحكومة . . الخلافة » . . وأن « هذه الورقات » قد كتبت على امتداد نحو عشر سنوات . . كان المؤلف يعمل فيها يوماً ، ثم تصرفه الحوادث أياماً ، ويعود إلى العمل شهراً ، ثم ينقطع عنه أعواماً . . (٩٤) .

وهذا التطاول فى سنوات كتابة « هذه الورقات » ، قد جعل « الكتاب » الأول من هذا المؤلف ، بأبوابه الثلاثة ، وموضوعه الخلافة والإسلام ، حاوياً لإشارات تقول إنه كتب إبان قيام الخلافة العثمانية ، بينما الكتاب نشر بعد إلغائها . . ففيه حديث عن السلطان العثمانى محمد الخامس ، وهو الذى تولى الخلافة مابين ٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ هـ ، و ٢٣ من رمضان سنة ١٣٣٦ هـ ، إبريل سنة ١٩٠٩ م - يوليو ١٩١٩ م - (٩٥) . . وإشارة إلى « جماعة الاتحاد والترقى » . . وفى هذا الجزء من الكتاب - والذى يستغرق من ص ١ حتى ص ٣٨ - إشارات إلى مراجع صدرت سنة ١٩٢٣ م . . وسنة ١٩٢٤ م . . فهو قد كتب منفرداً ، وقبل سنوات طوال من تاريخ نشر الكتاب سنة ١٩٢٥ م ، وأضيفت إليه هوامش عند صياغته ضمن الكتاب . .

(٩٤) ص ف ، ص من التقديم .

(٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٥ . وانظر : محمد مختار باشا المصرى : [التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ] . تحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٠ م . وكذلك [معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى] ، لزამباور . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

وأهم من هذه الملاحظة هو « تميز أسلوب التأليف في هذا الجزء عن بقية الكتاب » !! . .

والذى نعينه بـ « الأسلوب » هنا هو « الضمير » الذى يتحدث به « المؤلف » عن المسلمين . . ففى هذا الجزء يتحدث المؤلف عن المسلمين بضمير « الغائب » ، وكأنه ليس منهم !! . . فيقول مثلاً : « الخلافة فى لسان المسلمين . . والخليفة عندهم . . والدين عند المسلمين . . ونصب الخليفة عندهم . . والأصل فى الخلافة عند المسلمين . . ومن الطبيعى فى أولئك المسلمين » إلخ . . إلخ . .

والضمير هنا راجع إلى الأمة . . وليس إلى طائفة من العلماء أو مذهب من المذاهب . . ومن ثم فالإشارة من المؤلف إلى الأمة بضمير الغائب قد مثلت باباً للذين قالوا إن مؤلف هذا الكتاب من غير المسلمين !! - مثل الشيخ محمد بخيت المطيعى . . والدكتور ضياء الدين الرئيس^(٩٦) ! - . . فغريب أن يشير المسلم للمسلمين باسم الإشارة للبعيد : « أولئك المسلمين » !! . .

بل إن هذا الجزء من الكتاب تنتهى سطورهُ على النحو الذى تكون عليه نهاية كل الكتاب والبحث . . فعنوان بابهِ الأخير - الثالث - فى الفهرس : « تنمة البحث » . . وعنوان فقرته الأخيرة : « النتيجة » . . بل ويختم سطرهُ الأخير بالعلامة التى تختم بها السطور الأخيرة للكتاب - [،] - !! . .

وفوق كل ذلك ، فإن السطور الأخيرة من هذا الجزء ، الذى كتب مستقلاً وفى تاريخ سابق على بقية أجزاء الكتاب ، وختم بما تختم به الكتب - [،] - . . إن هذه السطور تفتح للاستفهام علامة كبرى ، عندما تقول - بعد « الفقرة : النتيجة » التى قطعت بأن « تلك التى دعوها الخلافة أو الإمامة

(٩٦) انظر كتاب [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث] . ص ٢١٢ - ٢١٩ .

العظمى لم تكن شيئاً قام على أساس من الدين القويم ، أو العقل السليم ،
وبأن ما زعموا أن يكون برهاناً لها هو إذا نظرت وجدته غير برهان .

بعد «تتمة البحث» و«نتيجته» . . نقرأ هذه السطور:

« ولعل من حَقك علينا أن تسأل الآن عن رأينا الخاص في الخلافة وفي
منشئها . وإن علينا أن نأخذ بك في بيان ذلك ، مستمدين من الله جل شأنه
حسن المعونة والهدى والتوفيق ، »

فرأى من يكون ذلك الذى شغل هذا الجزء الأول من الكتاب : ص ١ -
٣٨ ؟ . . وهو الذى تحدث فيه كاتبه عن المسلمين « بضمير الغائب » !! . .
وأشار إليهم باسم الإشارة للبعيد !! . . رأى من هو ؟ . . إذا كان « رأى
الخاص » بالشيخ على عبد الرازق في الخلافة سيأتى بعد ذلك . . وفي نهاية
الكتاب : ص ٨١ - ١٠٣ ، في « الكتاب الثالث » عن « الخلافة والحكومة في
التاريخ » . . ! . .

تلك علامة كبرى من علامات الاستفهام التى فتحتها في هذا الكتاب
«تعدد مؤلفيه» !! . .

بل إن الناظر في «مناهج آليات التأليف والبحث» ، المستخدمة في تأليف
هذا الكتاب ، يجد «تعددًا» في هذه «المناهج» ، يشهد هو الآخر على «تعدد
المؤلفين» !! . .

١ - ففى «تخريج الآيات القرآنية» تتعدد المناهج في الكتاب . . فنجد :
(أ) مواطن «تخرج» فيها الآيات ، بالهامش ، بذكر اسم السورة ، مع
إغفال رقم الآية !! . .

(ب) ومواطن «تخرج» فيها الآيات ، بالمتن ، بذكر رقم السورة ورقم
الآية . .

(ج) ومواطن «تخرج» فيها الآيات ، بالمتن ، بذكر اسم السورة، مع
إغفال رقم الآية!!! . .

(د) وفي ترقيم « هوامش » تخريج الآيات ، يذكر الرقم أحيانا قبل
الآية . . وأحيانا بعدها!!! . .

٢ - ونفس الشيء - تعدد مناهج آليات البحث والتأليف - نجده في
توثيق النصوص ، بالإشارة إلى مصادرها ومراجعتها . .

(أ) ففي مواطن يذكر فيها عنوان المرجع ، بالهامش ، دون ذكر الجزء أو
الصفحة! . .

(ب) ومواطن أخرى يذكر فيها عنوان المرجع ، بالهامش ، مع ذكر الجزء
والصفحة . .

* * *

هكذا أثار كتاب [الإسلام وأصول الحكم] المعركة الفكرية التي لا تزال
مخدمة الأوار منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن . .

ويثير من علامات الاستفهام ما يستدعى أطروحة جامعية - ولتكن رسالة
ماجستير - يقوم بها أحد نبهاء الباحثين في العلوم السياسية ، ليقدم لنا بعد
الجمع لكل ماكتب عن الخلافة وعلاقة الإسلام بالسياسة والحكم والدولة
قبل سنة ١٩٢٥ م . . مما كتبه المستشرقون . . والترك . . والهنود . . والعرب ،
والمقارنة بينه وبين كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - مع رصد ردود الفعل
لمذهب هذا الكتاب في دوائر الفكر وتيارات السياسة المختلفة . . وتأثير كل
ذلك فيما عاصر صدوره وجاء بعده من « فكر » و« أحداث » . .

فلعل في هذا البحث المتخصص ما يجيب عن العديد من علامات
الاستفهام التي أثارها ويثيرها هذا الكتاب الصغير الحجم ، والمثير للجدل
الكبير!

٢ - التفريخ والانسلخ من الشرق والعروبة والإسلام

عند سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] - وبصدد التبنى للنموذج الحضارى الغربى، والدعوة إليه، والتبشير به - يختلف الأمر اختلافا جوهريا، فى المستوى . . والمنطلقات . . وفى المقاصد والغايات، عن غيره من جيل الرواد الذين انبهروا بالغرب، وأدهشتهم نهضته، فتبنوا نموذجه فى « التنوير - العلمانى » . . .

فسلامة موسى لم يكن « مجتهدا » أخطأ فى حقبة انبهاره، فلما نضج عاد عن هذا الانبهار، كما كان الحال لدى كثيرين من جيل هؤلاء الرواد: منصور فهمى باشا [١٣٠٣ - ١٣٧٨ هـ، ١٨٨٦ - ١٩٥٩ م]، والدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م]، والأستاذ الدكتور طه حسين باشا [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م]، وغيرهم من جيل الرواد، الذين بشروا « بالتنوير - الغربى - العلمانى »، ثم عادوا - بدرجات متفاوتة فى العمق، وفى صراحة وشجاعة النقد الذاتى - عن هذا الانبهار. . .

لم يكن سلامة موسى من هذا الفريق . . وإنما كان الرجل: مشروعا فكريا « للعمالة الحضارية »، بلغ حد « الصراحة . . العارية » حتى عن « ورقة التوت » التى تستر عورات « العمالة » الكاملة للحضارة الغربية . . بل لقد

(ج) ومواطن «تخرج» فيها الآيات ، بالمتن ، بذكر اسم السورة ، مع إغفال رقم الآية!!! .

(د) وفي ترقيم « هوامش » تخرج الآيات ، يذكر الرقم أحيانا قبل الآية . . وأحيانا بعدها!!! .

٢ - ونفس الشيء - تعدد مناهج آليات البحث والتأليف - نجده في توثيق النصوص ، بالإشارة إلى مصادرها ومراجعها . .

(أ) ففي مواطن يذكر فيها عنوان المرجع ، بالهامش ، دون ذكر الجزء أو الصفحة! . .

(ب) ومواطن أخرى يذكر فيها عنوان المرجع ، بالهامش ، مع ذكر الجزء والصفحة . .

* * *

هكذا أثار كتاب [الإسلام وأصول الحكم] المعركة الفكرية التي لا تزال محتمة الأوار منذ ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن . .

ويثير من علامات الاستفهام ما يستدعى أطروحة جامعية - ولتكن رسالة ماجستير - يقوم بها أحد نبهاء الباحثين في العلوم السياسية ، ليقدّم لنا بعد الجمع لكل ما كتب عن الخلافة وعلاقة الإسلام بالسياسة والحكم والدولة قبل سنة ١٩٢٥ م . . مما كتبه المستشرقون . . والترك . . والهنود . . والعرب ، والمقارنة بينه وبين كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - مع رصد ردود الفعل لمذهب هذا الكتاب في دوائر الفكر وتيارات السياسة المختلفة . . وتأثير كل ذلك فيما عاصر صدوره وجاء بعده من « فكر » و« أحداث » . .

فلعل في هذا البحث المتخصص ما يجيب عن العديد من علامات الاستفهام التي أثارها ويثيرها هذا الكتاب الصغير الحجم ، والمثير للجدل الكبير!

٢- التفريخ والانسلخ من الشرق والعروبة والإسلام

عند سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] - وبصدد التبنى للنموذج الحضارى الغربى، والدعوة إليه، والتبشير به - يختلف الأمر اختلافا جوهريا، فى المستوى . . والمنطلقات . . وفى المقاصد والغايات، عن غيره من جيل الرواد الذين انبهروا بالغرب، وأدهشتهم نهضته، فتبنا نموذجه فى « التنوير - العلمانى » . . .

فسلامة موسى لم يكن « مجتهدا » أخطأ فى حقبة انبهاره، فلما نضج عاد عن هذا الانبهار، كما كان الحال لدى كثيرين من جيل هؤلاء الرواد: منصور فهمى باشا [١٣٠٣ - ١٣٧٨ هـ، ١٨٨٦ - ١٩٥٩ م]، والدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م]، والأستاذ الدكتور طه حسين باشا [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م]، وغيرهم من جيل الرواد، الذين بشروا « بالتنوير - الغربى - العلمانى »، ثم عادوا - بدرجات متفاوتة فى العمق، وفى صراحة وشجاعة النقد الذاتى - عن هذا الانبهار . . .

لم يكن سلامة موسى من هذا الفريق . . وإنما كان الرجل : مشروعا فكريا « للعمالة الحضارية »، بلغ حد « الصراحة . . العارية » حتى عن « ورقة التوت » التى تستر عورات « العمالة » الكاملة للحضارة الغربية . . بل لقد

مثل القمة في مشروع « التفرنج » الذي استهدف نزع أسلحة المقاومة الحضارية لدى الأمة عندما عمتها بلوى الاحتلال الاستعماري ، وسقطت فريسة تحديات التغريب والمسخ والنسخ والتشويه لذاتيتها القومية وهويتها الحضارية . .

وإذا كانت الحرب الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٦ هـ ، ١٩١٤ - ١٩١٨ م] قد مثلت حقبة عموم هذه البلوى . . فسقطت ديار الإسلام تحت سنانك الاحتلال الاستعماري الغربي . . وبدأ التنفيذ لمخطط المشاركة « الصهيونية - الصليبية » في قلب وطن العروبة وعالم الإسلام . . وأسقط « المشروع العربي » باتفاقية « سيكس » - « بيكو » [١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م] . . وطويت صفحة « الخلافة الإسلامية » - رمز « المشروع الإسلامي » - بإلغائها [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م] . . وتخلقت في واقعنا الفكري والسياسي الداخلي دعوات وأحزاب ومذاهب جعلت النموذج الغربي - نموذج الغالب المستعمر - المثل الأعلى الذي يتعلق به المغلوبون سبيلا للتحرر والخلاص . . !

إذا كانت الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ، والسنوات التي أعقبتها حتى إلغاء الخلافة الإسلامية . . قد مثلت ذروة مأساة القهر الخارجي - الغربي - لوطن العروبة وعالم الإسلام . . والتي جسدتها كلمات الجنرال الفرنسي « جورو » [١٨٦٧ - ١٩٤٦ م] عندما احتل دمشق ، وذهب ليركل بقدمه قبر صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ، ١١٣٧ - ١١٩٣ م] ، ويقول للأمة - في صورة بطلها الأسطوري - : « ها نحن أولاء قد عدنا يا صلاح الدين » . . !

إذا كانت تلك هي ذروة مأساة القهر الخارجي . . . فإن عامي ١٩٢٥ م و ١٩٢٦ م - اللذين أعقبا إلغاء « الخلافة - الرمز » ، قد مثلا بداية ذروة الهجمة التغريبية ، التي استعار روادها أسلحة « التنوير - الغربي - العلماني » ليواجهوا بها الإسلام ، ساعين إلى أن يصنعوا به ومعه وفيه ما صنع « التنوير -

الغربي» مع النصرانية الأوروبية في عصورها الوسطى . . ففى هذين العامين قامت أعنف معارك « التنوير - الغربي » ضد المشروع الإسلامى ، عندما صدر كتاب [الإسلام وأصول الحكم] سنة ١٩٢٥ م . . وكتاب [فى الشعر الجاهلى] سنة ١٩٢٦ م . .

ولهذه الحقيقة من حقائق تاريخ أمتنا مع هذا « التنوير - الغربى - العلمانى » ، كان اختيارنا لكتاب سلامة موسى [اليوم والغد] ليكون نموذجا لمشروعه الذى استهدف « فرنجة » الأمة ، والإجهاز على أى أثر لخصوصيتها الحضارية ، سواء فى الشكل أو فى المضمون . . فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل . . ! . فهذا الكتاب - [اليوم والغد] - هو مقالاته فى هذين العامين - ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ م - وفيه معالم المشروع الفكرى الذى نذر له قلمه وحياته ، وقسمات المذهب الفلسفى الذى ناضل فى سبيله حتى الرمق الأخير . . ففيه وبه حدد « مفترق الطرق » أو « خاتمة اليوم والغد » ، عندما صاح بأعلى صوته : إننا أوربيون فى كل شىء حتى فى الخُلُقَة والدماء . . منذ فجر التاريخ . . واليوم . . والغد . . فعلينا أن «نتفرنج» ، ونلعن العرب والإسلام والشرق ، بكل اللغات ، وفى جميع الساحات . . ! .

وأمام تميز هذا المشروع التغريبي لسلامة موسى ، فى المستوى الذى بلغ حد « العمالة الحضارية » - وليس الاجتهاد الخاطئ - وفى « الصراحة » التى جردت مخطط « الإلحاق التغريبي » حتى من « ورقة التوت » . . الأمر الذى بلغ بهذا المشروع حد « التجريح » لكرامة الأمة ووطنيتها وعروبته وشرقيتها - ناهيك عن إسلامها - حتى لقد غدا « استفزازا » شديدا للعقل والوجدان . . أمام هذه الحقيقة المميزة لمشروع سلامة موسى التغريبي . . فلأننى أدعو القارئ - ونحن على أبواب عرض معالم هذا المشروع - إلى التجميل والتخلق بعدد من الخصال والمؤهلات :

● أدعو القارئ « للصبر » على « وخز » هذه « الصراحة » - التى قد يراها

البعض « وقاحة » - التى ساق بها سلامة موسى آراءه . . فما نجده عند الرجل « عاريا » ، نجده عند غيره - من رواد وتلاميذ « التنوير - الغربى - العلمانى » « مغلفا » على أنحاء متفاوثة فى ألوان ودرجات « التغليف » . . وما نجده فى مشروعه الفكرى « سُما خالصا » نجده مدسوسا فى « العسل » عند الآخرين !! . . فللرجل - برأى - فضل « الصراحة » التى تجاوزت حدود مضامين هذا الاصطلاح !! . .

● وأدعو القارئ ، أيضا إلى أمر هام . . وهو عدم الخلط بين آراء سلامة موسى - كقبطى نصرانى - وبين وطنية نصارى مصر وأقباطها . . « فالعمالة الحضارية » للرجل - وهى غير « العمالة السياسية » التى لا دليل عليها - لا علاقة لها بالوجه المشرق لوطنية جمهور الأقباط المصريين ، الذين شاركوا فى الثورات الوطنية لمصر جنبا إلى جنب مع جمهور الأغلبية المسلمة ، حتى قامت ، فى الحياة الوطنية المصرية ، على هذا الوجه المشرق لوطنية الأقباط وإخلاصهم لوطنهم الكثير من الأدلة والبراهين . . .

بل لقد تجاوز عقلاء النصارى ، من المصريين والعرب ، إطار « التلاحم الوطنى » مع المسلمين ، إلى حيث أدركوا ما فى الإسلام الحضارى والثقافى من جامعة للتوحيد الوطنى والقومى والحضارى لأبناء الأمة جميعا ومن مختلف الديانات . . فقال مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٦١ م] : « نحن مسلمون وطنا . . ونصارى ديننا » . . وكان يناجى ربه فيقول : « اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصارا . واللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين » ^(١) !! . .

وكتب ميشيل عفلق [١٣٢٨ - ١٤٠٩ هـ ، ١٩١٠ - ١٩٨٩ م] - النصرانى الأرثوذكسى - عن الإسلام كجامعة للنصارى والمسلمين جميعا : « لا يوجد عربى غير مسلم ! . . فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ،

(١) صحيفة [الوفد] - لقاء مع د . غالى شكرى - فى ٢١ يناير ، سنة ١٩٩٣ م .

وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . . إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . . وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم ، إذا كان هذا العربى صادق العروبة ، وإذا كان متجردا من الأهواء ، ومتجردا من المصالح الذاتية . . وإن المسيحيين العرب ، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عربيتهم . .

ولئن كان عجبى شديدا للمسلم الذى لا يحب العرب ، فعجبى أشد للعربى الذى لا يحب الإسلام»^(٢)!! . .

وقال القس القبطى الكاثوليكي يوحنا قلته : « أوافق تماما على أن أكون مصرياً . . مسيحياً ، تحت حضارة إسلامية . . بل أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة . . أنا عضو فى الحضارة الإسلامية . . التى تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحى . . والتى تعلو من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض . . فكلنا مسلمون حضارة وثقافة . . وإنه يشرفنى ، وأفتخر أننى مسيحى عربى ، أعيش فى حضارة إسلامية ، وفى بلد إسلامى . . وأساهم وأبنى ، مع جميع المواطنين ، هذه الحضارة الرائعة . . »^(٣)!

والدكتور غالى شكرى . . يقول - فى لحظة صدق مع الحقيقة - : «على الشباب القبطى أن يدرك جيدا أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى حضارته الأساسية . . إنها الانتماء الأساسى لكافة المواطنين . . لقد ورثت كل ماسبقها من حضارات ، وأصبحت هى الانتماء الأساسى ، والذى بدونه

(٢) [الكتابات السياسية الكاملة] ، ج ٣ ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، ج ٥ ص ٦٨ . طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٧ م ، سنة ١٩٨٨ م .

(٣) انظر كتابنا : [الإسلام والسياسة - الرد على شبهات العلمانيين] ، ص ٢٠٥ ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ، سنة ١٩٩٢ م .

[١٧٤٥ - ١٨٠١ م] . . الذى صنع فى مصر صنيع بعض اليهود الصهاينة ، عندما استجابوا لنداء بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] إبان حملته على مصر [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م] . . ندائه للأقليات الدينية ، كى تعاونه فى إلحاق الشرق بالغرب . . فتخلقت ، منذ ذلك التاريخ ، فى الأوساط اليهودية بواكير الحركة الصهيونية الحديثة . . وبدأت « بالمعلم يعقوب » بواكير الدعوة إلى :

١ - « استقلال » - وإن شئت الدقة فقل : « عزل » - مصر عن تراثها العربى والإسلامى . .

٢ - و« استقلالها » - « عزلها » - عن المحيط العربى والإسلامى ، والذى تمثل يومئذ فى الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية . .

٣ - وإخضاع مصر وإلحاقها بالغرب - السياسى والحضارى - كبديل عن الحضارة العربية الإسلامية . وكانت إنجلترا - فى مشروع « المعلم يعقوب » - هى ممثل الغرب فى ذلك الحين . . كما كانت فى مشروع سلامة موسى !! . .

والذين يتأملون مشروع سلامة موسى « لِفَرْنَجَة » مصر ، وإلحاقها بأوروبا - كما سنعرضه ، بنصوص الرجل - ثم يطالعون البواكير الأولى لهذا الاتجاه عند « المعلم يعقوب » ، الذى أوصى إنجلترا ، وهو يودع الحياة ، بإلحاق مصر حضاريا ، بدلا من امتلاكها كمستعمرة . . فأملى فى هذه الوصية : « إن الإمبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب . ولهذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزقها التاريخى بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقبلية . . إن بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة ، لأنها ستستأثر دائما بالتجارة معها ، نتيجة طبيعية لتفوقها البحرى ، فهى ستؤثر إذن فى مصر باختيارها » (٥) . .

(٥) انظر تفصيل الحديث عن مشروع « المعلم يعقوب » فى كتاب : د. لويس عوض : [تاريخ الفكر المصرى الحديث] ، ج١ - ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ ، طبعة دار الهلال - القاهرة ، سنة ١٩٦٩ م .

إن الذين يتأملون مشروع سلامة موسى ، الذى انبرى للتبشير به ، وخاصة عقب انهيار الدولة العثمانية ، وإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ م . . يجدون هذا المشروع « التفصيل - التطبيقى » لوصية المعلم يعقوب وهو يحتضر على ظهر السفينة التى أقلته مع جيوش الحملة الفرنسية المنسحبة من مصر سنة ١٨٠١ م . .

وكما تبرزت الكنيسة المصرية ، إبان الحملة الفرنسية ، من خيانة المعلم يعقوب ، الذى التحق بجيش بوناپرت ، وأصبح « جنرالاً » و« قائمقام سارى عسكر الفرنسيس » . . وسوط عذاب الفرنسيين على ظهور المصريين ، حتى لقد سماه الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ، ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م] : « يعقوب اللعين » !! . . كما كان الحال فى علاقة يعقوب اللعين ومشروعه بالكنيسة المصرية ووطنية الأقباط المصريين . . كذلك كان ، ويجب أن يكون حال العلاقة بين سلامة موسى . . ووطنية ونصرانية نصارى مصر وكنيستها الأرثوذكسية . .

فمشروع سلامة موسى « لتفرنج مصر » ، وإلحاقها بأوربا ، هو « الإعلان الفج » عن مشروع سلفه المعلم يعقوب . . ولا ضير على أقباط مصر ولا على كنيستها من كون الرجلين قد ولدا قبطين وحملأ أسماء الأقباط . . فكثير من المسلمين ، الذين ساروا على درب التغريب والإلحاق الحضارى ، و« التنوير - الغربى - العلمانى » قد سلكوا ذات السبيل . . وإن لم يبلغوا فى « الحدة » و« الصراحة » ما بلغه « سلامة موسى » و« يعقوب اللعين » !! . .

والآن . . وبعد هذه المقدمات ، التى دعوت القارئ إلى استحضارها . . ونحن مقبلون على عرض ملامح وأركان « التنوير - الغربى - العلمانى » ، كما تجسد فى المشروع الفكرى لسلامة موسى . . نبدأ باستعراض ملامح هذا المشروع . . ومن خلال نصوص الرجل ، حتى لا تكون هناك أدنى شبهة فى أى لون من ألوان المبالغات . .

سلامة موسى . . والإيمان الدينى :

إذا كان الإيمان بآله خالق لهذا العالم وللإنسان ، ومنعم على هذا الإنسان بالنعمة التى أفاضها فى الطبيعة ، هو جوهر الدين ، والحد الأدنى للتدين بأى دين . . فإننا لانجد هذا الحد الأدنى فى المشروع « التنويرى - العلمانى » الذى تحدثت عنه كتابات سلامة موسى . . بل إن كتاباته قد رفضت هذا الحد الأدنى للإيمان الدينى ! . .

● فهو، عندما يتحدث عن الذى هدى المصريين إلى الزراعة ، يقول : إن « النيل هو الذى هداهم إلى الزراعة ، التى هى أصل الحضارة »^(٦) . . فالنيل عنده هو « الهادى » . . وليس الله ! . .

● وعندما يزعم أن المصريين أوربيون ، حتى فى الشكل و« السحنة » ، يحمد على ذلك « الأقدار » ، ولا يحمد الله ، فيقول : « . . ولكننا نحمد الأقدار على أننا ما زلنا فى السحنة والنزعة أوربيين . . »^(٧) ! !

● وعندما يتحدث عن الذى أنعم على المصرى بنعمة النيل ، يرى « الطبيعة » هى المنعم ، والنيل مصدر العلم والفقهاء ! . . أما الدين فى حياة المصرى القديم فمصدره « جفاف المناخ » ، وليس الله ! . . وكذلك الاعتقاد بالعالم الآخر ، عالم ما بعد الموت ، مصدره « التحنيط » ! . . وما قصة « نوح » و« الفيضان » إلا من ثمرات « النيل » فى حياة المصرى القديم ! . .

كل هذا « التنوير - الغربى - الملحد » ينقله سلامة موسى ، عن فلاسفة « التنوير - الغربى » ، الذين يذكر منهم « إليوت سمث » ، فيقول : « وكما أن الطبيعة أنعمت على المصرى بالنيل يعلمه الزراعة ، وفقهه فى علاقة الماء بها ، كذلك جفاف المناخ المصرى علمه الدين . . . ومن التحنيط نشأ الاعتقاد بالعالم الثانى . وكان للنيل دخل آخر فى الدين ، وهو أنه

(٦) [اليوم والغد] ، ص ٩ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٢٨ م . (٧) المرجع السابق . ص ٦ .

جعل المصري يقدس الماء ، ويعتقد أنه أصل كل شيء حى ، وأنه يظهر كل شيء . وليست قصة الفيضان ، ونجاة نوح منه ، إلا إحدى نتائج الاعتقاد بفيضان النيل ، وأنه أصل الحياة ، كما أثبت ذلك إليوت سميث . . .^(٨) ! . .

● أما العقل الإنسانى ، فهو من «مخترعات الطبيعة» . . «فقد اخترعت لنا الطبيعة العقل للتمييز والحكم بين غرائزنا ، ومعرفة النافع والضار فى أحوال معاشنا . .»^(٩) ! .

● والجنين ينمو ، على نحو دون الآخر ، بفعل «الذاكرة» . . وليس بفعل الإله الخالق ! . . «للجنين ذاكرة تلهمه بأن ينمو على طريقة بعينها . .»^(١٠) ! .

وكما نزع «التنويريون - الغربيون» عن الدين «المطلق» ، وجردوه من مصدره الإلهى ، وسووا بين حقائق علومه وحقائق العلوم المادية الطبيعية ، فى نسبيتها وتغيرها ، كذلك صنع سلامة موسى فيما استعار من فكر وفلسفة التنوير الغربى . . فهو يستنكر عدم إخضاع الحياة الروحية وعلومها الدينية لما خضعت وتخضع له علوم الكيمياء وأمثالها ! . . فيقول : «هذه الحياة الروحية فى الإنسان قد تأخرت تأخرا هائلا . وكيف لا تتأخر إذا كنا نمنع الناس من انتقادها ؟ ! . . وهل كان علم الكيمياء يتقدم لو كنا نمنع الناس من انتقاده كما نمنعهم من انتقاد الأديان ؟ ! . . فما لم نفعل ذلك ، وننظر إلى العلوم الدينية كما ننظر إلى الكيمياء ، فإننا لن نتقدم»^(١١) ! . .

وهو هنا : «تنويرى - غربى» ، أنكر وجود إله مفارق للمادة ، ذى علم مطلق . . فدعا إلى معاملة العلوم الدينية - ذات المصدر الإلهى . . والتى

(٨) المرجع السابق . ص ١٠ ، ١١ . (٩) المرجع السابق . ص ٢٥ .
(١٠) المرجع السابق . ص ٤٢ . (١١) المرجع السابق . ص ٢٠ ، ٢١ .

هى قبس من العلم الإلهى الكلى والمطلق - دعا إلى التعامل معها كما نتعامل مع العلوم المادية، المدركة بالعقل النسبى والحواس النسبية . . والمتغيرة والمتطورة حقائقها بسبب هذه النسبية المجردة من الإطلاق! . .

ولهذا السبب، فهو معجب بالتراث اليونانى، الذى تعامل مع الآلهة بحسبان قدراتها نسبية ومحدودة . . ومع القيم بحسبانها نسبية، وغير مطلقة . . ويعبر عن هذا الإعجاب فيقول: « . . ومن يقرأ « جمهورية » أفلاطون، ويرى الحرية التى يتكلم بها عن الزواج، أو من يقرأ « الأخلاق » لأرسطوطاليس، ويقف عند قوله: إن الآلهة، على قدرتها، لا يمكنها أن تبدل نواميس الطبيعة، يأسف لفقدان هذه الروح من الأدب العربى . والغريب فى العرب أنهم عنوا بعلوم الإغريق وطبهم، وهو أسخف ما كتبوا- [!!] - دون أن يعنوا بأدابهم وفنونهم . . »^(١٢)!! . .

فالرجل لم يكن يريد لنا علوم اليونان، وإنما كان يريد ما لديهم من وثنية وإلحاد! . . ولعله فى ذلك فريد غير مسبوق! . .

● ولذلك، فلقد كان طبيعيا مع من يستعير « فلسفة التنوير الغربى الإلحادية » - أو « الوضعية - التى ترى الدين إفرازا بشريا . . ونسبيا لا مطلق فيه » - . . كان طبيعيا مع من يستعير هذا « التنوير - الملحد » أن يجرّد النصرانية من نسبها الإلهى، حتى ولو كان نصرانى الاسم والميلاد! . .

لقد قسم سلامة موسى النصرانية إلى « لاهوت » . . و« أخلاق » . . وحكم بأن « لاهوتها » هو ذات الوثنية المصرية القديمة - فى عقيدة الثالوث - . . أما « أخلاقها » فهى إغريقية . . ومن ثم فلا شىء فى النصرانية لله والسماء والوحى والدين الإلهى!! . . هكذا رأى النصرانية، وكتب يقول: « . . ويمكن أن نقول إن أوربا استفادت ديانتها من الشرق . ولكن، يجب ألا

(١٢) المرجع السابق . ص ١١٠ .

نلقى هذا القول جزافاً . فالديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين : أحدهما خاص باللاهوت ، والآخر خاص بالأخلاق .

فالأول ، وهو اللاهوت ، يرجع الفضل فيه إلى المصريين ، فإن النظريات الخاصة بالثالوث المقدس ، أو التجسد ، أو البعث ، هى نفسها تلك النظريات التى كانت شائعة عند المصريين . ونظرية الثالوث هى أهم أركان الديانة المصرية القديمة . فإن الربة إيسيس هى العذراء التى تلد هورس من رب الأرباب أوزوريس . ويمكن أن نتبع تطور الفن المسيحى من مصر إلى روما ، حتى تصوير إيسيس وابنها هورس كلاهما : مريم وابنها السيد المسيح .

هذا من حيث اللاهوت . وأما من حيث الآداب المسيحية ، فالفضل فيها يرجع إلى الإغريق . فإن من يقرأ مجادلات الرسل يشعر بالروح الإغريقية التى كانوا مشبعين بها فى تبشيرهم الأمم الوثنية» (١٣) . . .

ونحن هنا لا نناقش ما فى هذا الكلام من صواب أو خطأ . . وإنما نقول : إن سلامة موسى ، الذى أرجع المسيحية إلى المصادر الوثنية - المصرية . . والإغريقية - لا يمكن أن يعده المسيحيون الابن البار للنصرانية كدين سماوى ، ولا الابن البار للكنيسة الأرثوذكسية ، التى جعلت من خلاص الروح ورعاية مملكة السماء رسالتها الوحيدة على هذه الأرض . . وإنما هو الامتداد السرطانى « للتنوير - الغربى - الملحد » ، جاء لاقتلاع الدين الإلهى ، مطلق الدين ، من حياة الأمة التى انتسب إليها! . . ولذلك ، كان الرجل صريحاً صراحته « العارية»! . . عندما رفض عقيدة النصرانية فى العذراء والمسيح ، باعتبارها عقيدة بالية لا تليق بالعقل المتعلم والمثقف! . . فكتب يقول : «إنه من البديهي أن عبادة إيسيس العذراء وابنها هورس قد قدمت وبليت ، ولم يعد فيها مقنع لنفس إنسان متعلم مثقف . .» (١٤)!

(١٣) المرجع السابق . ص ١٠٨ . (١٤) المرجع السابق . ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وإذا كنا نقرأ الآن لتلامذة سلامة موسى وغيره من رواد « التنوير - الغربى - الإلحادى » كلاما كثيرا عن « تاريخية النصوص المقدسة » ، وهى « تاريخية » تنزع القدسية والإطلاق والخلود والثبات عن هذه النصوص . . ونقرأ لهم وصفا للشريعة الإسلامية - التى نؤمن بأنها « وضع إلهى - ثابت » - بأنها « شريعة البداوة » !! . . أى تجاوزها التطور التاريخى الذى تجاوز مجتمعات البداوة !! . . كما قرأنا لنظيرهم التركى « عزيز نسين » تعجبه من المسلمين الذين لا يزالون ، « كالبهائم » ، يتبعون قرآنا « مؤلفا » - [!؟] - منذ أكثر من أربعة عشر قرنا !! . .

إذا كنا نقرأ لتلامذة سلامة موسى هذا الكلام . . وغيره الذى يدعون فيه إلى « تطوير العقائد الدينية بما يجارى تطور العلوم الطبيعية الحديثة » !!

إذا كنا نقرأ هذا الذى يعده الدين والتدين والإيمان والمؤمنون - بأى دين - « هديانا إلحاديا » . . فإن علينا أن ندرك أن هذا « الهديان الإلحادى » هو « الفكر الوضعى » الذى عممه « التنوير الغربى » على الدين ، وذلك عندما سوى المطلق بالنسبى . . والإلهى بالإنسانى . . والثابت بالمتغير . . والمقدس بما لا قدسية فيه . . فنحن أمام « التنوير - الغربى » فى جيل التلامذة ، الذين يمثلون روادهم وأساتذتهم فى هذا الميدان . . وفى المشروع الفكرى لسلامة موسى ، نجده ينقل عن الكاتب الإنجليزى « هـ . ج . ويلز » [١٨٦٦ - ١٩٤٦ م] هذا الذى يردده تلامذة « التنوير - الغربى » عن تاريخية النصوص المقدسة ، وضرورة « تطوير العقائد » وفق تطور العلوم . .

لقد كتب سلامة موسى عن هذا الملمح من ملامح « التنوير - الغربى - الوضعى » . . فقال : « . . ليس يعقل أن يعيش الإنسان آلاف السنين ، يتعاوره التقدم المادى فى جميع ما يلبسه ويزاوله ، ثم يبقى الدين جامدا لا يتطور وفق التطور المادى » !! . .

ثم مضى ، فساق تصور الكاتب الإنجليزى « ويلز » لتطوير الكتب المقدسة سنويا ، حتى لكأنها «حولية» تتغير كل عام . . وحتى لكأنها «متغيرات» لا «ثوابت» فيها . . ومما يستقل العقل الإنسانى - نسبى القدرات والإدراكات - بعلم كل ما فيها من أخبار عالمى الغيب والشهادة . . . مضى سلامة موسى ، فساق تصور فلسفة «التنوير - الوضعى - الغربى» لتطوير الكتب المقدسة ، كنموذج على مايريده لنا . . فقال : « وقد عالج « ولز » هذا الموضوع فقال : إنه يجب أن تؤلف تورا جديدة توافق العصر الحاضر، تضعها فئة منتقاة من العلماء والفلاسفة والأدباء . وينبغى تنقيحها كل عام وفق مطالب الحياة الجديدة . . ويجب أن تؤلف التورا الجديدة على غرار التورا القديمة ، فيبدأ فيها بسفر التكوين ، فتستبدل بقصة آدم وحواء تاريخا علميا لتكوين الأرض وظهور الحياة عليها ، وتطور النبات والحيوان ، وتنازعها البقاء ، وانقراض بعضها . ثم ظهور الإنسان ، ووصف جهاده للطبيعة ، والتغلب عليها ، وانتقاله من عهد الصيد إلى الرعاية إلى الزراعة ثم معرفته المعادن ونشوء الصناعة .

ويلى ذلك ناموس يسير عليه بنو البشر، يتضمن أهم قواعد الصحة وصيانة الجسد، وضرورة الرياضة التى لم تكن لازمة لليهود وهم يرعون أغنامهم بالمروج ، ولكنها تلزمنا الآن فى أشغالنا الراهنة . ثم يجب أيضا أن يتضمن هذا القسم كل ما عرف عن الحكمة الجنسية ، والعلاقات الزوجية ، وما تنبغى معرفته عن آداب الامتلاك ، وعلاقة العمال بالملك ، وقيمة المراهنات والمضاربات وآداب البورصة ، وما إليها مما يلتصق بحياتنا .

ثم يلى ذلك «نشيد الإنشاد» فى التورا ، ويقابله عندنا الآداب الشهيرة عند الأمم المختلفة . . توضع فى مكان الملحق بالتورا . .

ثم يلى ذلك فصل عن التنبؤات . يضعه ساسة العالم ، ويسجلون فيه على أنفسهم مايتنبئون به عن مستقبل الأمم التى يسوسونها . .

ثم ، هذه التوراة يجب أن تكون لها لجنة عليا ، لا تنى عن تنقيحها كل عام ، بما يوافق المستكشفات والمخترعات . والخلاصة ، أنه يجب أن تجعل الأخلاق وفق المستكشفات والمخترعات الحديثة . وذلك بتعديل قوانين الامتلاك ، وتخفيف الروح الوطنية . . وإزالة النزعة الوطنية من التاريخ ، وفرض الولاء لعصبة الأمم على كل أفراد العالم .

ثم ، لكى يتحد الناس فى نزعة صحيحة ، يجب أن يكون لهم ناموس جديد مؤلف على نمط علمى ، يربطهم جميعا فى رابطة روحانية واحدة»^(١٥)!!! . . .

تلك هى صورة تطوير الكتب المقدسة ، كى تستجيب « للتاريخية » التى يريد لها « التنوير - الغربى - الوضعى » . . وهى ليست صورة هزلية فقط . . بل هى أساس « الهزل » الذى نطالعه « للتنويريين - المتغربين » عن تحديث الدين ، وتطوير العقائد الدينية ، وتجاوز الموروث الحضارى ، وتبعية الفكر الدينى - بحسبانه « بناء فوقيا » للأبنية « التحتية - المادية » فى التغير والتطور والزوال!!! . . .

إنه « الدين - الوضعى » . . الذى وضعه البشر ، وتواضعوا عليه . . ذلك الذى « آمن » به سلامة موسى . . ورواد وتلاميذ « التنوير - الوضعى - الغربى » . . والذى يبشرون به بيننا حتى هذا التاريخ! . . فعليه يُحَسَّبُونَ . . وبمعاييره يكون نقدهم . . لأن الديانات السماوية - مطلق الديانات السماوية - بريئة منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب!!! . . .

تلك هى صفحة « الإيمان الدينى » فى مشروع سلامة موسى « لتفرنج الأمة » حتى فى الدين! . . .

(١٥) المرجع السابق . ص ١١٥ - ١١٧ .

المذهب : التفرنج . . واحتقار الشرق ! . .

فيما كتبه سلامة موسى ، في العشرينيات ، وتبعه فيه طه حسين في الثلاثينيات - بعبارات أقل حدة - حول انتمائنا الثقافي والحضارى والعقلى إلى الإغريق والرومان والغرب ، وليس إلى الشرق ، «خداع فكرى» يعجب المرء كيف جاز على الكتابين ، وعلى الذين أيدوا هذا الاتجاه! . .

لقد عقدوا المقارنة والمقابلة والمفاضلة بين العقل الشرقى ، بمعنى حضارة وثقافة الشرق الأقصى ، فى اليابان والصين . . وبين العقل الغربى الأوروبى ، بمعنى حضارة وثقافة الإغريق والرومان وأوروبا الحديثة والمعاصرة . . ثم خلصوا إلى أن أمتنا غربية العقل ، أوربية الحضارة والثقافة ، إذ لا رابطة تربطها بالصينيين واليابانيين! . .

ولست أدرى ، فى أى مرحلة من مراحل التاريخ ، ولا فى أى مذهب من مذاهب الفكر، قد طرحت قضية انتمائنا الفكرى والثقافى والحضارى على هذا النحو الذى زعموه؟! إن تاريخنا لم يعرف صوتا واحدا قال إن الانتماء الحضارى للعرب والمسلمين هو إلى حضارات اليابان والصين والهنود ، ومن ثم فلم تقم فى تاريخنا مقابلة بين شريقتنا ، بمعنى يابانيتنا أو صينييتنا ، وبين إغريقيتنا ورومانيتنا . . وإنما المقابلة كانت ولا تزال بين شريقتنا ، بمعنى إسلاميتنا وعروبتنا ، المتميزة حضاريا ، عن كل من الغرب الإغريقى ، وعن اليابان والصين والهند أيضا ، وبين الحضارات الأخرى . .

إن حضارات الشرق الأقصى قد طبعتها فلسفات الديانات الوضعية الوثنية التى سادت عقائد أممها وشعوبها . . والحضارة الغربية قد طبعتها موارد الإغريق والرومان ، حتى لقد طُوِّعت مسيحيتها لهذه الموارد . . وبين حضارات الشرق الأقصى والحضارة الغربية تميزت الحضارة الإسلامية ، تلك التى دار ويدور الجدل حول علاقتها بالحضارة الغربية ، وهل هى علاقة « التميز . . والتفاعل »؟ . . أم « التبعية . . والدوبان والاندماج »؟ . .

تلك هي حقيقة المقابلة والمفاضلة : شرقيتنا الحضارية نحن العرب والمسلمين؟ أم غربييتنا الحضارية كإغريق في الثقافة نعيش في الشرق الأدنى من بلاد الإغريق؟! أما استدعاء حضارات الشرق الأقصى ، وتصويرها في صورة البديل الذي علينا أن نختار بينه وبين الغرب الحضارى ، فلم يكن إلا لونا من الخداع الفكرى ، قصد به أصحابه إخفاء تميزنا كشرق عربى إسلامى عن كل من حضارات الشرق الأقصى والحضارة الغربية جميعا! . .

لقد استدعى دعاة التبعية والإلحاق الحضارى نقيضا وهميا ، ليصوروا أن بديله هو الاندماج في الحضارة الغربية ، في محاولة غريبة لإخفاء القضية الجوهرية التى دار ويدور حولها الخلاف ، وهى مدى تميزنا ، كمرب ومسلمين ، حضاريا . . ومشروعية استقلالنا الحضارى ، الذى يعترف به الجميع للهنود واليابانيين والصينيين والغربيين . .

في ضوء هذه الحقيقة ، التى كشفت وتكشف هذا « الخداع الفكرى » ، نقرأ مذهب سلامة موسى ، الذى عبرت عنه كلماته الحادة ، حول حقيقة انتماء الأمة ثقافيا وحضاريا . . والذى لخصه الرجل في الادعاء بأننا « فرنجة » ، علينا أن نحتقر كل ما هو شرقى ، ونندمج في كل ما هو أوربى! . . . ولحسن الحظ ، فإنه لم ينجح ، أثناء عرض مذهبه ، فى أن يخفى مراده من مصطلح « الشرق » . . فكل « الشرق » الذى صب عليه جام غضبه كان عربيا إسلاميا ، ولم يتوجه نقده إلى شىء من « شرق » الصين واليابان! . . .

* * *

لم يكن لسلامة موسى من مقومات « الانتماء للذات الثقافية العربية الإسلامية » ما كان للدكتور طه حسين ، ولذلك اختلف مستوى التعبير لدى كل منهما عن هذه « المقومات » . فطه حسين « يحترمها » مع الادعاء بأنها

«إغريقية الجذور. . والمستقبل» ، بينما سلامة موسى « يحتقرها» ويدعو إلى التخلص منها ، واستبدال الثقافة والمكونات الحضارية الأوربية بها!!! . . وله في ذلك صفحات كثيرة لا تحتاج أفكارها إلى تأويل ، أو حتى تفسير! . . فهو يقول :

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة ، توضحت أمامى أغراضى . . فهى تتلخص فى أنه : يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا . فإننى كلما زادت معرفتى بالشرق ، زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب عنى . وكلما زادت معرفتى بأوربا ، زاد حبى لها ، وتعلقى بها ، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها .

فأنا أزالو حرفة الأدب ، لكى أدأب فى وعظ أمتى بوجوب كفها عن ممارسة العادات التى اكتسبتها من آسيا ، ووجوب اصطناعها عادات أوربا . .

وأريد من التعليم أن يكون تعليما أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه . . .

وأريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية برلمانية كما هى فى أوربا ، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أتوقراطية دينية . . .

وأريد من الأدب أن يكون أدبا أوربيا . . أبطاله فتیان مصر وفتياتها ، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية . . .

ثم أريد أن تكون ثقافتنا أوربية . . أما الثقافة الشرقية ، فيجب أن نعرفها لكى نتجنبها ، لما نرى من آثارها فى الشرق ، آثار: العبودية والذل والتوكل على الآلهة . . .»!!! . . .

وجدير بنا ، وقبل أن نكمل النصوص المعبرة عن مذهب سلامة

موسى . . أن نستلفت النظر إلى حقيقة المراد ببعض المصطلحات . .

● فالرجل يدعو إلى « الخروج من آسيا » و« الالتحاق بأوروبا » . . وبديهي أنه لم يكن داعية هجرة من « جغرافية المكان » . . فآسيا هنا مصطلح حضارى وثقافى معناه : الإسلام وحضارته . . والمستشرق والسياسى الفرنسى « جبرييل هانوتو » [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] - صاحب الحوار الشهير، الذى رد عليه الإمام محمد عبده، حول « المسألة الإسلامية » - يعبر عن بوادر انسلاخ « تونس » من الإسلام وحضارته، والتحاقها بالحضارة اللاتينية، فيقول : « يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضى الآسيوى »^(١٦) . . و« نمط الإنتاج الآسيوى » - الذى تحدث عنه كارل ماركس فى مراسلاته مع فريدريك إنجلز - هو نمط الإسلام فى التملك والإنتاج . . والمجلات والجمعيات الاستشراقية التى حملت كلمة « آسيا » كانت متخصصة فى دراسة الإسلام وحضارته . . ف« مكة . . والماضى الآسيوى » - بعبارة هانوتو - العنوان على الإسلام وثقافته وحضارته . . وليس مصطلحاً جغرافياً مجرداً . .

● أما « الشرق »، الذى يدعو سلامة موسى إلى استبدال أوروبا به . . والذى عدد « مثالبه » . . فإنه - بتعداد « المثالب » - لم يدع للشك مجالا فى أن مراده « الشرق العربى الإسلامى »، وليس « الشرق الأقصى » . . اليابانى أو الصينى، كما حاول هو ووطه حسين خداع القراء وتخفيف الصدمة على المتلقين . .

فالدين الذى يدعو إلى إخراجه من التعليم، حتى يكون التعليم « أوروبا - علمانيا » هو الإسلام، الذى كان يدرس فى مدارسنا . . فلم تعرف مدارسنا ديانات الصين أو اليابان أو الهنود !!

(١٦) [الإسلام والرد على منتقديه] - لمجموعة من العلماء - ص ٢٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

والحكومة التى يرفضها هى التى تحتكم إلى الشريعة الإسلامية ، كما كان الحال فى عهد الرشيد والمأمون . . وهو يريد بدلا منها حكومة « أوربية - علمانية » . .

والأدب الذى يريده هو أدب « العامية المصرية » ، لا العربية الفصحى . . أدب الإقليم المصرى ، وليس الانتماء العربى والإسلامى . .

وهو لا يريد الثقافة الإسلامية المؤمنة ، التى تعلم الإنسان « التوكل على الله » ! . . بل يريد ثقافة علمانية أوربية تلتزم بفلسفة « التنوير - الغربى » الوضعية ، التى عزلت الدين والله والسماء عن الفكر والثقافة وكل شئون العمران الإنسانى . .

ف « آسيا » و « الشرق » هنا يراد بهما حضارة الإسلام . . لا حضارة الصين واليابان ! . . !

ويمضى سلامة موسى ليهون على قرائه هذه المهمة التى يدعو إليها - احتقار الشرق العربى الإسلامى . . والانسلاخ منه . . والالتحاق بأوروبا ، ثقافيا وحضاريا . . فىقول إن ألف عام من الحكم والحضارة والثقافة الآسيوية - [وهنا ننبه إلى أن هذه الحقبة ، الألف عام ، هى عمر سيادة الإسلام والعربية فى المنطقة ، ولا علاقة للأمر بآسيا اليابان أو الصين ! !] . . يقول إن هذا الزمن من حكم الإسلام وثقافته لم يغير من انتمائنا الأوروبى ! . . ونص عباراته يقول :

«ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو ألف عام ، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها ، بل ودست دمها فى دماء أبنائها . ولكننا نحمد الأقدار - [! !] - أننا مازلنا فى السّحنة والنزعة أوروبيين ، إذ نحن أقرب فى هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزى أو الإيطالى . . وكذلك الحال فى سوريا وشمال إفريقيا العربى ، فإن سكان هذه الأقطار أوروبيون سحنة ونزعة .

فلماذا إذن لا نصطنع جميعا الثقافة والحضارة الأوربيتين ، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا؟! . .

هذا هو مذهبي الذى أعمل له طول حياتى ، سرا وجهرة . فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . وفى كل ما أكتب أحاول أن أغرس فى ذهن القارئ تلك النزعات التى اتسمت بها أوربا فى العصر الحديث ، وأن أجعل قرائى يولون وجوههم نحو الغرب ، ويتصلون من الشرق . . « (١٧) ! !

ذلك هو مذهب سلامة موسى : مواجهة الإسلام وحضارته . . واحتقار كل ما له صلة بالعروبة والإسلام . . ودعوة لطفى صفحة تاريخنا الحضارى العربى الإسلامى ، والتنصل من كل آثارها . . والاندماج فى الحضارة الغربية وثقافتها باعتبارنا « أوربيين سحنة ونزعة » أى فى الخلق والخلق والفكر والثقافة جميعا ! ! . .

وعلى هذا المذهب يطلق جيل التلاميذ - تلاميذ سلامة موسى - مصطلح « التنوير » ، ويطبعون كتبه ليواجهوا بها المشروع الإسلامى هذه الأيام ! ! . . فهل بقى فى الأمر غموض أو إبهام؟! . .

* * *

وإمعانا فى « التمويه » - ولا أظنه الجهل - الذى يريد استبعاد « الشرق الإسلامى » تحت ستار استبعاد « الشرق الأقصى » ، الصينى واليابانى ، يتحدث سلامة موسى عن قيام « الرابطة الشرقية » بالقاهرة فى العشرينيات ، باعتبارها « إحدى كوارث هذا الاعتقاد فى شقيتنا » ! ! . . بل ويجعل عنوان مقاله هذا : [الرابطة الشرقية سخافة] . . ويدعو - بدلا من هذه « الكارثة » . . والسخافة - إلى « رابطة غربية » بيننا وبين أبناء أوربا . . فيقول : « . . وإحدى كوارث هذا الاعتقاد فى شقيتنا : اهتمامنا بالشرق

(١٧) [اليوم والغد] . ص ٥ - ٧ .

دون الغرب ، حتى لقد تأسست في القاهرة جمعية تدعى « الرابطة الشرقية » ، فيها أعضاء من الهند وجاوة ، ولعل بها أعضاء أيضا من الصين . فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية ؟! وأية مصلحة تربطنا بأهل جاوة ؟ وماذا ننتفع منهم ؟ وماذا هم ينتفعون منا ؟! . . . إننا في حاجة إلى رابطة غربية . كأن تؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم . . . مثل هؤلاء النظاف الأذكياء - [!!] - نستطيع أن نؤلف رابطة معهم . ولكن ما الفائدة من تأليف رابطة مع الهندي أو الجاوى ؟! . . . إننا أمة قد سرنا شوطا بعيدا في الحضارة الغربية ، التي هي منا ونحن منها . . » (١٨) .

وكما أشرنا ، فإن هذا الاعتراض على « الرابطة الشرقية » هو إمعان في « التمويه » ، ذلك أنها كانت رابطة بين المجاهدين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية الشرقيين ، الذين جمعتهم وتجمعهم ، مع رابطة العقيدة الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، آمال وآلام المواجهة مع الاستعمار الغربى الذى احتل بلادهم جميعا . . فعلاوة على الرابطة الإسلامية ، التى يريد سلامة موسى استبعادها ، بإخفائها تحت عنوان « الشرق » ، الذى أوهم قراءه أنه « الشرق الأقصى » - شرق اليابان والصين - . . علاوة على « إسلامية » هذه الرابطة « الشرقية » ، فإنها كانت رابطة شعوب جمعتها المعاناة من الاستعمار الغربى ، والسعى لتحرير الوطنى من نير اجتلاله واستغلاله . . وكفى بهذه المهمة مبررا لقيامها . . ومع ذلك . . فسلامة موسى يرشح للمصريين رابطة غربية تجمعهم والإنجليز المستعمرين لهم ولأبناء الشرق كله ، بدلا من رابطة تجمع المستضعفين المجاهدين فى سبيل التحرر الوطنى والنهوض الحضارى !! . .

والأغرب من ذلك . . أن هذا الذى كتبه سلامة موسى فى العشرينيات ، يعود الدكتور طه حسين ليكتبه فى الثلاثينيات . . فيقول : « ومهما أنس فلن أنسى مواقف الحيرة والعجز عن الفهم التى كنت أقفها منذ أعوام ، أمام

(١٨) المرجع السابق . ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

جماعة كانت تقوم في مصر، وكانت تسمى نفسها جماعة الرابطة الشرقية، وكانت تذهب في سيرتها وتفكيرها هذا المذهب الغريب، مؤثرة التضامن مع أهل الشرق الأقصى على التضامن مع أهل الغرب الأدنى» (١٩).

وإذا كان سلامة موسى قد مات في الخمسينيات، أى بعد قيام «مؤتمر باندونج» سنة ١٩٥٥ م، فإن «عمالته الحضارية» قد ميزت بينه وبين الدكتور طه حسين، الذى عايش أنشطة التضامن الآسيوى الإفريقى وأسهم فيها، في حقبة تطوره الفكرى، منذ ارتباطه بالأوثق بالمشروع الوطنى والقومى - في امتداداته التضامنية مع الشعوب المستضعفة - إبان المواجهة الحادة مع الغرب لتصفية استعمارهم للأمم وحضارات الشرق كلها .



لقد كانت مقاصد سلامة موسى واضحة: نحن فرنجة . . وعلينا أن نتفرنج، ونندمج في الحضارة الأوربية، التى تمثل المثل الأعلى في كل شىء . . من الإنسان - خَلْقَه وَخُلُقًا - إلى الفكر والثقافة والحضارة . . حتى لقد بلغ في عشق الأوربيين حد لوم المصريين وتعنيفهم على « حسد هم » لمستعمرهم الإنجليز! . .

ولما كانت الجامعة الشرقية . . بل وحتى « الشرق » كمصطلح . . تمثل عقبة في طريق التفرنج والإلحاق الحضارى والدمج الفكرى والتبعية الثقافية، فلقد ذهب سلامة موسى في ذمها والهجوم عليها كل مذهب، بما في ذلك مذاهب العبث اللامعقول! . .

ولما لم يكن هناك سبيل لإلغاء كلمة « الشرق » - كمصطلح - فلقد زعم سلامة موسى أننا سميننا شرقيين، لا لأننا غير الغربيين، وإنما لأننا غربيون! . . فسبب التسمية أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية! . .

(١٩) [مستقبل الثقافة في مصر]، ج ١، ص ١٥

وفي هذا «العبث اللامعقول»، يقول «رائد التنوير»، الذي يواجه تلاميذه اليوم بكتبه المشروع الإسلامى والصحة الإسلامية . . يقول : «إن للألفاظ تأثيرا كبيرا فى العقول . فإذا نحن غرسنا فى أذهان المصرى أنه شرقى ، فإنه لا يلبث أن ينشأ على احترام الشرق وكراهة الغرب ، وينمو فى نفسه كبرياء شرقى ، ويحس بكرامة لا تطيق أن يجرحها أحد الغربيين بكلمة ، فينشأ على كراهة الحضارة الغربية ، ويقاومها ، ولا يصطنعها إلا مقهورا مغلوبا على نفسه .

ولكن الواقع أننا لسنا شرقيين . وإنما جاءنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية . . » (٢٠) ! !

فهو لا يريد للإنسان الشرقى الكبرياء ، ولا الكرامة التى لا تطيق أن يجرحها الغربى . . وهو يكتب ذلك وبلاده محتلة من قبل الإنجليز الغربيين ! ! . لقد كان داعية لنزع الاحترام والكبرياء والكرامة عن الشرق والشرقيين ! ! . .

أما أن «شرقيتنا» - كاسم - قد جاءتنا من أننا كنا جزءا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فهو عبث كان يقتضى لاستقامته أن يعلل الرجل « شرقية الفرس » وغيرهم من الأمم الآسيوية ، والذين لم يكونوا فى يوم من الأيام جزءا من الدولة الرومانية الشرقية ! ! . .

لكن الرجل يعود فينقض دعواه العبثية ، بادعاء عبثى آخر . . فبعد أن زعم أن « شرقية العرب » قد جاءت من عيشهم نحو ألف سنة جزءا من الدولة الرومانية الشرقية . . عاد ليزعم أنهم - العرب - قد صاروا شرقيين «بتوغلهم فى آسيا إلى حدود الصين ، وأيضا بعادة التسرى وعادة الضرار - [تعدد الزوجات] - اللتين أجازهما لهم الإسلام ، فدخلهم دم آسيوى ،

(٢٠) [اليوم والغد] . ص ١٧٩ .

وخاصة صينى ، كثير، فإن لفظة أمة ، بمعنى جارية ، هى لفظة صينية ، وقد دخلت اللغة العربية لكثرة الإماء التى كان يشتريها العرب من الصين» (٢١)!! . .

والمرء يدهش لكثرة الأكاذيب فى هذه العبارة الموجزة . . فزواج العرب المسلمين من الصينيات ، ووجود جوار صينيات ، فى حقبة الرق بالتاريخ الإسلامى - أمران لا أثر لهما ولا ذكر عنهما فى تاريخ العرب والمسلمين!! . . والرجل نفسه ، فى مكان آخر ، هو الذى يكذب ذاته ، عندما يقول : «نحن فى هيئة الوجه أوربيون . ولو لبس السورى أو العربى أو المصرى قبعة ، لما استطاع الإنسان تمييزه من الإيطالى أو الإسباني . ولكن مهما لبسنا ، فلإننا نتميز من الصينى أو الجاوى أو اليابانى . . » (٢٢)!

فأين هى الدماء الصينية الكثيرة والأسىوية التى دخلت العرب بعد الإسلام؟!!

ثم ، من علم سلامة موسى أن لفظة « أمة » صينية ، دخلت العربية بعد الإسلام بسبب الجوارى اللائى أتت بهن الفتوحات؟! . . ألم يسأل أحدا من العامة ليعلم أن « أمة » كلمة عربية ، جاءت فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى الشريف؟! . . «ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم» (٢٣) . . «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم» (٢٤) . . «أيا رجل ولدت أمته منه فهى معتقة . . » (٢٥) . . إلخ . . إلخ . . إلخ . .

لقد كان الرجل باحثا - بالحق أو بالباطل - وإن شئت فقل بكل ضروب الباطل - عن مبررات « التفرنج » والإلحاق بثقافة الغرب وحضارته . . «فذوقنا

(٢١) المرجع السابق . ص ١٩٦ . (٢٢) المرجع السابق . ص ١٨٠ .

(٢٣) البقرة : ٢٢١ . (٢٤) النور : ٣٢ .

(٢٥) رواه ابن ماجة والدارمى والإمام أحمد . . ومفردها وجمعها وإردان فى عشرات الأحاديث . .

— [كما يقول] — ودمنا هما الذوق والدم الغربيان . ونحن في هيئة الوجه أوريون!! . . بل لقد سعى إلى إثبات أن المصريين — الذين يستعمرهم الإنجليز — هم والإنجليز شعب واحد!! . . وحتى اللغة المصرية القديمة — الهيروغليفية — بينها وبين اللغة الإنجليزية اشتراك في مئات الكلمات . . «فلقد أثبت إليوت سمث أن الشعب الأول الذى سكن مصر، لا يختلف البتة عن الشعب الذى كان يسكن إنجلترا قبل ٤٠٠٠ سنة. وبين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظا ومعنى» (٢٦)!!

والرجل ، بهذا الحديث عن اتحاد المصريين بمستعمرهم الإنجليز، إنما يتجاوز «العمالة الحضارية» ليقرب من «العمالة السياسية»!! . . وإلا فبماذا نفسر قوله : «إن الأجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق» ؟! — وهل هذا كلام إنسان وطنى ؟! . . وقوله : «كانت أكثر كراهيتنا للأجانب حسدا» [!!] — لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا ، واشتغلوا بالتجارة والصناعة والصيرفة ، ولم يتركوا لنا سوى الزراعة نعمل فيها كالعبيد» ؟! فأمته — فى رأيه وتبعاً للدارونية — محكوم عليها بالفناء فى صراع البقاء مع الأجانب الأقوياء ، الذين نحسداهم ونكرههم بغير حق ، بينما هم محقون فى احتقارنا!! . .

ولذلك كانت دعوة سلامة موسى إلى دمج الأجانب فى المصريين . . وليس إلى تحرير مصر منهم . . وإلى إزالة مخاوفهم « بفصل الدين عن الدولة ، وإلغاء التعليم الدينى من المدارس »!! . . والدين هنا هو الإسلام وحده . . وإلا فالمدارس الأجنبية كلها مدارس إرساليات « تبشيرية!! ، وكانت إشادته بالإنجليز المستعمرين لمصر « كأرقى أمة فى العالم . . جسماً . . وعقلاً . . وخلقاً . . »!! (٢٧) . .

(٢٦) [اليوم والغد]، ص ١٨٠ . (٢٧) المرجع السابق، ص ٢٠٠، ٣٥، ٣٧، ٣٨.

فماذا تكون « العمالة السياسية » - في أمة مستعمرة - غير هذا الذى قال
«رائد التنوير» سلامة موسى؟! . . .

وسلامة موسى عندما قال : «إننى أدعو إلى التنصل من آسيا والانضمام
إلى أوربا ، والإيمان بحضارتها وثقافتها»^(٢٨) . . كان واضحاً في الدعوة إلى
«التنصل» من كل المكونات والمقومات الشرقية - «العربية - الإسلامية» - في
فكرنا وثقافتنا وحضارتنا وعاداتنا وتقاليدينا وأعرافنا . . كان داعية لإلغاء
«الذات» الحضارية ، واستبدال « الآخر - الحضارى - الأوربى » بها . .

● فهو يدعو إلى هجر الثقافة العربية . . وتحويلها إلى « المتاحف » ،
تدرسها قلة من علماء الجفريات ، كما يدرسون آثار « بابل » و«أشور»!! . .
فيقول : «إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمريض . ولهذا المرض
مضاعفات . فنحن لا نكره الغربيين فقط ، ولا نتأفف من طغيان حضارتهم
فقط ، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية ، فندرس
كتب العرب ، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل أدباؤنا المساكين
أمثال المازنى والرافعى ، وندرس ابن الرومى ، ونبحث عن أصل المتنبى ،
ونبحث عن على ومعاوية ونفاضل بينهما ، ونتعصب للجاحظ ، ونحاول أن
نثبت أن العرب عرفوا الفنون . . وكل ذلك إنما يدفعه فى أنفسنا كراهتنا
للغرب ، وأنفتنا من جهة ، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى»^(٢٩)!!

كل هذا ، برأى سلامة موسى ، من أعراض «مرض الشرقية» . . أى
الاعتقاد بأننا شرقيون . فكراهة الغرب ، بل مجرد التأفف من طغيان حضارته
علينا ، وأى مظهر من مظاهر الولاء للثقافة العربية ، وأى لون من «الأنفة» ،

(٢٨) المرجع السابق . ص ٢٠٤ . (٢٩) المرجع السابق . ص ١٨٣ .

هى أعراض لمرض الاعتقاد بأننا شرق عربى له ثقافة عربية ، ولسنا غربا ، ثقافتنا وحضارتنا هى ثقافة الغرب وحضارته . .

ولذلك ، فإن علاج هذا « المرض » - عند سلامة موسى - : هو إلغاء الثقافة العربية ، وإحلال الثقافة الغربية محلها . . وفى وصف هذا العلاج يقول : « إنه ليس علينا للعرب أى ولاء . وإدمان الدرس لثقافتهم مضیعة للشباب ، وبعثرة لقواهم . فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصرى الحديث ، لا بالأسلوب العربى القديم . ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب . . وليس معنى هذا تحريم درس العرب وتاريخهم وثقافتهم ، فإن العرب أمة قديمة يجب أن يكون لها أثريون يدرسونها كما يدرسون آشور وبابل . . » (٣١) !!

● ونفس الموقف يتخذه سلامة موسى من الفنون والآداب العربية والإسلامية . . يدعو إلى هجرانها ، والاستعاضة عنها بالفنون والآداب الأوربية . . فيخاطب قارئه قائلا : « ألا يرى القارئ ما جره علينا تعلقنا بالشرق ، وتوهمنا أننا أمة شرقية ، حتى إننا ليس لنا ما يغذى عواطفنا الآن من شعر أو موسيقى أو رقص أو غناء ؟ . . إننا نحتاج الآن إلى ما يهيج قلوبنا ، ويملؤها تفاؤلا بالحياة ، ولن نجد ذلك إلا بارتباطنا بالغرب ، واصطناع ما عند الغربيين من رقص وألحان وموسيقى . . أما الشعر العربى ، فقد سئمتنا قوافيه الرتيبة التى تشبه دق الطبل عند السودانيين . . » (٣١) !!

ورغم أن سلامة موسى قد كان يعيش ويعايش شعر أحمد شوقى [١٢٨٥ - ١٣٥١هـ ، ١٨٦٨ - ١٩٣٢م] ، وحافظ إبراهيم [١٢٨٧ - ١٣٥١هـ ، ١٨٧١ - ١٩٣٢م] ، وعباس العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٦٤م] ، وأحمد محرم [١٢٩٤ - ١٣٦٤هـ ، ١٨٧٧ - ١٩٤٥م] ، وجيلا كاملا

(٣٠) المرجع السابق . ص ١٨٣ ، ١٨٤ . (٣١) المرجع السابق . ص ١٩٠ .

من فحول الشعر العربى ، الذين جمعوا - فى الشعر بين « الأصالة » و« المعاصرة » ، إلا أنه يفترى على الشعر العربى ، فيزعم أنه لا يزال جامدا عند صورته الجاهلية . . بل ويعمم الاتهام على مجمل الأدب العربى المعاصر ، فيقول : « إن نزعة الجمود - أى ما للقديم من حرمة - منعت هؤلاء الأدباء من استئنان أى سنة جديدة فى عالم الأدب العربى . ولذلك بقى الشعر فى أيام الدول الإسلامية المتقدمة والمتأخرة كما كان أيام الجاهلية . . » (٣٢) ! ! .

● ولما كانت اللغة العربية هى وعاء هذه الثقافة والفنون والآداب ، التى دعا سلامة موسى إلى هجرانها ، وتحويلها إلى المتحف مع آثار بابل وأشور . . وهى لغة القرآن ، وتقاليد العرب وتراثهم . . فلقد صب عليها الرجل جام الغضب . . ودعا إلى هجرها ، والاستعاضة عنها بلغة الهكسوس ، أى العامية المصرية ، التى رفض حتى أن يعترف بعلاقتها باللغة العربية ! ! .

لقد اتهم العربية بالعجز حتى عن وصف أثاث الغرفة التى يجلس فيها . . وقال إنها غريبة عنا . . وإنها عاجزة عن الوفاء بمتطلبات الترجمة عن اللغات الأخرى . . وإنها لغة بدوية . . وإنها تبعثر الوطنية المصرية فى إطار القومية العربية الأوسع ! ! . . وإنها تربطنا بالشرق ، وتحول دون توجعنا إلى الغرب . . ودعا إلى تحويلها إلى متحف اللغات الأجنبية ، ندرسها كما ندرس الروسية والإيطالية ! ! .

فهى ، عنده : « لغة بدوية ، لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيتها الآن . فها أنا ذا فى غرفتى هذه لا أعرف كيف أصف أثاثها بالعربية ، ولكنى أستطيع إجادة وصفها بالإنجليزية » (٣٣) .

(٣٢) المرجع السابق . ص ٦٨ .

(٣٣) المرجع السابق . ص ١٨٥ .

ولأنه يسير على مذهب المهندس الإنجليزي « وليم ولكوكس » [١٨٢٥ - ١٩٣٢م] الذى دعا المصريين إلى إحلال العامية محل الفصحى . . . والذى ترجم الإنجيل إلى العامية ، لينافس بترجمته هذه ترجمته الفصحى . . . فلقد كان نصيب الفصحى من هجوم سلامة موسى نصيب الأسد من الفريسة! . . .

فهو يتهمها بأنها « لغة ميتة » ، ليس الآن فقط ، بل وحتى فى عصر نزول القرآن!! . . . فيقول : « إن الفصحى فى اعتقادى كانت لغة الكتابة فقط ، أى لغة ميتة حتى فى زمن ظهور القرآن . ولكن تعليم العربية فى مصر لا يزال فى أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعا فى الثقافة العربية ، أى فى ثقافة القرون المظلمة ، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ، ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطا بعيدا فى الثقافة الحديثة . ونحن إنما ننزع للغة العرب القديمة ، لما تأصل فى أذهاننا من ذلك الفرض السخيف ، وهو أننا شرقيون ، يجب علينا أن نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم . وهذا الاعتقاد فى شرقتنا يجر علينا عددا من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها . . . » (٣٤)!

فأصل الكوارث ، عند سلامة موسى ، هو الاعتقاد بتميزنا الحضارى كشرقيين . فمنه ترى كوارث الولاء للغة . . . والثقافة . . . والحفاظ على الكرامة ، والتاريخ!! . . . أى والله! هذه كوارث بنظر سلامة موسى ، الذى ينشر تلامذته اليوم كتبه ، باعتباره رائد « التنوير » ، الذى سيواجه المشروع الإسلامى والصحة الإسلامية! . . .

وسلامة موسى يجعل من جهله وعجزه فى العربية دليلا على عجزها عن الوفاء بما تتطلبه الحياة الحديثة . . . فبعد أن ادعى عجزها ، لأنه عاجز عن أن

(٣٤) المرجع السابق . ص ١٨٦ .

يصف بها أثاث حجرته!! . . اتهمها بالعجز لأنه عاجز عن الترجمة بها عن اللغات الأخرى . . فقال : «إننا لالآن نرطن اللغة الفصحى رطانة، ولم تُشَرِّبها بعد نفوسنا، ولا أمل في أن تُشَرِّبها ، لأنها غريبة عن مزاجنا . وقد عانيت الترجمة إلى اللغة الفصحى عدة سنوات فما رضيت مرة عن نفسى وارتضيت الترجمة . فإنما نحن نؤلف ونعتقد أو ندعى أننا نترجم، وذلك لأن هذه اللغة الفصحى هى لغة بدوية ، والثقافة هى بنت الحضارة وليست بنت البداوة ، فلهذا يشق علينا جدا أن نضع معانى الثقافة فى هذه اللغة سواء بالترجمة أم بالتأليف» (٣٥)!!

ولم يسأل سلامة موسى نفسه : كيف ترجمت حضارات الدنيا إلى العربية . . من الفرس إلى الهند إلى اليونان إلى الحضارة الأوربية الحديثة؟! . . بل إن الرجل لم يتنبه ، فى غمرة كراهيته للغة العربية ، إلى أنه قد كذب نفسه بنفسه ، وذلك عندما اعترف بأن العربية قد مثلت لغة العلم والروح العلمية التى تميزت بها الحضارة العربية ، والتى تتلمذ فيها الغرب على الإسلام والعربية ، حتى إن علماء أوربا ، الذين أخذوا العلم والمنهج التجريبي - أى المصدر الثالث من مصادر الثقافة الأوربية - بتعبير سلامة موسى - إن هؤلاء العلماء الأوربيين المجددين ، الذين صنعوا النهضة الأوربية إنما «كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية»!! . .

يعترف سلامة موسى بهذه الحقيقة ، الشاهدة على مجد العربية وعظمتها وإمكاناتها ، فيكذب نفسه بنفسه ، عندما يقول : « . . أما الأصل الثالث للثقافة الأوربية ، فهو الروح العلمية التى ظهرت فى الأندلس على أيدي العرب . فقد أنغمس الإغريق فى النظريات الفلسفية ، وانتقلت هذه العدوى إلى العرب ، لكنها لم تغمرهم ، فإنهم أخذوا فى العمليات ، أى فى التجربة ، وكان للتجربة عندهم شأن كبير ، وخاصة عندما أخذوا فى محاولة

(٣٥) المرجع السابق . ص ٧٧ ، ٧٨ .

إيجاد الذهب من الزئبق ، فدرسوا أشياء . . هى فى الواقع أصل النزعة العلمية الحديثة التى تتسم بالتجربة . ومما هو ذو دلالة فى النهضة الأوربية أن المجددين من أمثال روجر بيكون كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية . . » (٣٦) !

لكن سلامة موسى ينسى هذه الحقائق ، ويتناسى دلالتها على قدرة العربية الفصحى على التواصل والتفاعل مع اللغات والحضارات . . . ويمضى ليصب عليها جام الغضب . . وكيف لا ، والرجل داعية انسلاخ عن الشرق والعرب والإسلام ، بينما العربية رباط بين مصر والشرق والعرب والإسلام؟! . . فهو - وبتعبيره - «ينقم» عليها أنها تجمع مصر بهذا الإطار الحضارى الأوسع الذى يريد أن يحطمه ويلغيه . . فيقول : «ومما يمكن أن ينقم على اللغة الفصحى أيضا ، أنها تبعر وطنيتنا المصرية ، وتجعلها شائعة فى القومية العربية . فالتعمق فى اللغة الفصحى يُشرب روح العرب ، ويُعجب بأبطال بغداد القدماء . . فنظره متجه أبدا نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية . مع أننا ، فى كثير من الأحيان ، نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب . والثقافة تقرر الذوق والنزعة ، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق . . » (٣٧) !

فالرجل يريد عزل مصر عن جسمها العربى ، ليسهل تحقيق حلم سلفه القديم « المعلم يعقوب اللعين » فى إلحاقها بالغرب الأوربى . . والعربية تمثل عقبة أمام العزل والانسلاخ وأمام الضم والإلحاق كليهما . . فلذلك استحقت منه النقمة التى نراها فى هذه النصوص! . .

أما البديل الذى رشحه سلامة موسى ليحل محل العربية ، فهو العامية المصرية . . بل لقد اجتهد حتى أجهد الحقيقة ، فزعم أن لا علاقة لهذه

(٣٦) المرجع السابق . ص ١١٠ ، ١١١ . وانظر كذلك : ص ١١٢ .

(٣٧) المرجع السابق . ص ٧٤ .

العامية المصرية بالعربية الفصحى ، وجاء بكلام مضحك زعم فيه أن هذه العامية هى لغة الهكسوس القدماء!! . .

والمرء يعجب من رفض الرجل للعربية لأنها آسيوية . . قديمة . . فى ذات الوقت الذى يدعو فيه إلى لغة الهكسوس ، وهم رعاة آسيويون ، غزوا مصر ، ولغتهم أقدم من العربية فى مصر!! . . لكن العجب يزول عندما نعلم أن العربية جامع لمصر بالعرب والشرق والإسلام ، وفى ذلك العقبات أمام رسالة الرجل فى سلخ مصر عن محيطها وتراثها لإلحاقها بالغرب الأوربى . . ولذلك فهو يفضل لغة الهكسوس ، الذين غزوا مصر قبل الميلاد بثمانية عشر قرناً ، على العربية التى جاءت إلى مصر مع الفتح الذى حررها من الاضطهاد الذى يؤرخ به أقباطها حتى الآن!! . .

ولذلك ، تجاهل الرجل تلك الحقيقة اللغوية التى أكدت وتؤكد أن العامية المصرية هى لهجة عربية ، وليست هكسوسية . . وهى حقيقة وضعت فيها كتب ودراسات . . بل إن قاموساً خاصاً قد أحضى كلماتها وعاد بها جميعها إلى [القاموس المحيط] للفيروزآبادى [٨١٧ هـ - ١٤١٤ م] (٣٨) . .

يتجاهل سلامة موسى هذه الحقيقة اللغوية عن عروبة العامية المصرية ، ويسير خلف المهندس الإنجليزى السير « وليم ولكوكس » [١٨٥٢ - ١٩٣٢ م] ، الذى نعرف من سلامة موسى أنه كان مهتماً « بتنصير المصريين » أيضاً ، حتى لقد ترجم الإنجيل إلى العامية المصرية !! ، والذى تزعم الدعوة إلى استبدال مصر العامية بالفصحى . . فكتب سلامة موسى عن « الداعية » و« الدعوة » يقول : « إن السير وليم ولكوكس هو أحد أولئك

(٣٨) انظر ليوسف المغربى : [دفع الإصر عن كلام أهل مصر] . تحقيق : . عبد السلام أحمد عواد . طبعة موسكو ، سنة ١٩٦٨ م .

الأجانب القلائل الذين تقرر مصر بفضلهم وولائهم . . وهموم السير «ولكوكس» مصرية أكثر مما هي إنجليزية . فهو يقيم في مصر ويفكر في صالح مصر، لأن مصر هي وطنه الثاني^(٣٩). ولأنها كانت أيضا الوسطة التي تمكن فيها من استغلال مواهبه في خدمة الناس وزيادة رفاههم .

والهم الكبير الذى يشغل بال السير ولكوكس ، بل يقلقه ، هو هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها - [!!] - فهو يرغب في أن هجرها ونعود إلى لغتنا العامية ، فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا . . إنه يدعونا إلى هجر اللغة الفصحى هجرة تامة ، واصطناع العامية . وقد ترجم هو نفسه الإنجيل إلى اللغة العامية المصرية ، فوفق إلى ترجمة حية يقرأها المصرى فيلذ له الأسلوب ، ويرى فيه جوا مألوفاً يشم منه النكهة البلدية . وهو في اعتقاده أوقع في النفس من الإنجيل المترجم إلى اللغة الفصحى .

وقد خطب منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة ، جمع فيها اختبارات عنها ، وارتأى فيها أن هذه العامية التي نتكلمها في مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى ، فكل منها لغة متميزة عن الأخرى ، ونحن لم نكتسبها عن العرب ، وإنما نزلت إلينا من الهكسوس الذين أقاموا في مصر نحو ٥٠٠ سنة . . »^(٤٠) .

هكذا رأينا المهندس الزراعى الإنجليزى «ولكوكس» «الإمام اللغوى» في دعوة سلامة موسى إلى هجر العربية ، لأنها لغة القرآن والتقاليد العربية

(٣٩) مع أن الرجل إنجليزى ، ولد في الهند حيث الاستعمار الإنجليزى . . وخدم حيث النفوذ الاستعماري الإنجليزى . . فبعد مصر، ذهب إلى العراق . . وعدن . . والأردن . . وله كتاب عنوانه [من جنة عدن إلى مخاضة الأردن] . انظر [موسوعة العلماء والمخترعين] ، إعداد : د . إبراهيم بدران ، د . محمد أسعد فارس . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٨ م .
(٤٠) [اليوم والغد] ، ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ .

والثقافية العربية والوحدة العربية . . وخلف « ولكوكس » سار الرجل ، داعيا إلى التعامل مع العربية وكأنها « لغة أجنبية » عنا . . إذ « يجب أن ننظر إلى لغة النابغة أو المتنبي كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، لأنها ليست لغتنا ولسنا نستفيد بدرسها . . » (٤١) ! !

وللمرء أن يسأل دعاة العامية ، الذين زعموا عجز العربية عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة والحضارة : هل العامية أقدر منها في هذه الميادين ؟ . . أم أن القضية قضية « مراحل » ؟ ! فبعد قطع الروابط القومية والعقدية والحضارية ، بالعامية ، تأتى مرحلة الإلحاق اللغوى ، كجزء من الإلحاق الثقافى والحضارى ، بالغرب الأوروبى ؟ . . !

إن مقازنة الدعوة إلى العامية ، فى مصر ، بدلا من العربية الفصحى ، بدعوة الاستعمار الفرنسى ، ببلاد الشمال الإفريقى ، إلى « البربرية » ، بدلا من العربية تكشف لنا وحدة المخطط . . مخطط الاستعمار الغربى - إنجليزيا كان أم فرنسيا - ووحدة مقاصد « الغملاء » - فى مضر كانوا أم فى الشمال الإفريقى - . . فى السنوات التى كان فيها « ولكوكس » يدعو مصر إلى « العامية » ، كان « ليوطى » - أول حاكم استعمارى فرنسى فى المغرب - يدعو لإحلال « البربرية » محل العربية ، ليتم الانتقال من « البربرية » إلى « الفرنسية » . . ولذات الأهداف التى تحدث عنها سلامة موسى . . فالعربية : لغة القرآن . . وفيه العقبة أمام الدمج فى الغرب والإلحاق بحضارته والتأيد لاستعمارها . . ! ! وإذا كنا قد عرضنا لآراء « ولكوكس » . . ولنصوص سلامة موسى . . وإذا كنا نقرأ اليوم لمن يريدون - فى بعض بلاد الشمال الإفريقى - التراجع عن « التعريب » لأن « الحرف العربى يؤدى إلى الفكر الغيبى » ! ! - أى الإسلام الذى يكرهون ويحاربون - . . إذا كانت هذه هى حقيقة المقاصد والغايات ، فإن كلمات « ليوطى » - المقيم العام الفرنسى فى المغرب سنة

(٤١) المرجع السابق . ص ١٨٤ .

١٩١٢م - تلقى المزيد من الأضواء على هذه الحقيقة . . فالرجل قد كتب يومئذ يقول : «إن اللغة العربية تخرج إلى الإسلام ، لأن هذه اللغة تُتَعَلَّم في القرآن . هذا في حين أن مصلحتنا تحتم علينا العمل على جعل البربر يتطورون خارج إطار الإسلام . ومن الناحية اللغوية يجب أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية»^(٤٢) . . .

ولقد كان « ولكوكس » وسلامة موسى يريدان لمصر ما أراد « ليوطى » للبربر: التطور خارج إطار الإسلام ، وهجر العربية - لغة القرآن . . التي تُتَعَلَّم فيه - إلى العامية ، للعبور منها إلى الإنجليزية! . . وإلا فماذا تعنى كلمات سلامة موسى عن تراث العربية : «إنه تراث لغوى ، يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها! . . فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتليفون، بل لغة القرآن وتقاليد العرب . .»^(٤٣)! . . ماذا تعنى هذه الكلمات إذا لم تعن ما أراد « ليوطى » وأضرابه من أساطين الاستعمار والسحق لهوية الأمة العربية الإسلامية! . .

تلك هى رسالة سلامة موسى حيال تميز الحضارة الشرقية - فى الإطار العربى الإسلامى - عن الحضارة الأوربية . . وتلك هى « نصوصه » - أو بالأحرى « معاوله » - التى انهار بها على المكونات التى ميزت وتميز حضارتنا عن الغرب ، فى الثقافة . . والفنون والآداب . . والتراث . . وفى اللغة التى مثلت وتمثل الوعاء لكل هذه المكونات! . .

* * *

(٤٢) د . محمد عابد الجابرى : « يقظة الوعي العربى فى المغرب » - ضمن كتاب [تطور الوعي القومى فى المغرب العربى] ، ص ٤٤ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٦م .
(٤٣) [البلاغة العصرية واللغة العربية] - والنص فى : د . على عقله عرسان [الفصحى والعامية والحوار المسرحى] ، ص ٩ . طبعة الرياض ، سنة ١٩٩٠م .

ولم تخف صراحة سلامة موسى - وهى من فضائله - أن الأب الشرعى لدعوته : «هجران الشرق . . والالتحاق بالغرب» هو بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] قائد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] . . فهو - بعبارة سلامة موسى - «الذى شرع يغرس فينا الحضارة الأوربية ويزيل عنا كابوس الشرق» ! . . فرسالة سلامة موسى هى غصن من غراس نابليون!! . .

لكنه يتململ من قصور « الغرس » وبطئه فى النمو . . ويشكو من «العقبات» التى تجعل الكثيرين يترددون عن السعى فى هذا الطريق . . فيقول : «لقد مضى علينا أكثر من ١٣٠ سنة^(٤٤) ونحن فى موقف التردد، لا ندرى هل نحن شرقيون، يجب أن نسير على ما سارت عليه آسيا؟ أم غربيون، يجب أن ننضم إلى أوروبا قلبا وقالبا، نعتاد عادات الأوربيين، ونلبس لباسهم، ونأكل طعامهم، ونصطنع أساليبهم فى الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة؟ ولقد شرع نابليون يغرس فينا الحضارة الأوربية، ويزيل عنا كابوس الشرق . . ثم جاء محمد على فاعتمد على فرنسا فى تمدين البلاد . . ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن إسماعيل، حين رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد لنا من أن نتفرنح، ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا . . ثم جعلنا نلبس الملابس الأوربية، ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الجركس لكى يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوربية . . وجاء الإنجليز، فساروا بنا شوطا بعيدا فى إدخال الأساليب الأوربية فى إدارة الحكومة .

وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن مترددين بين الشرق والغرب .

(٤٤) هى السنوات الفاصلة بين الحملة الفرنسية - سنة ١٧٩٨م - ونشر كتاب [اليوم والغد] ، سنة ١٩٢٨م .

لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوروبية ، ولكن وسط الحكومة أجساما شرقية ، مثل وزارة الأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، تؤخر تقدم البلاد .
ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدن ، ولكن الأزهر يقف إلى جانبها يبيث بيننا ثقافة القرون المظلمة . .

ولنا أفندية قد تفرنجوا . . ولكن إلى جانبهم شيوخا لا يزالون يلبسون الجلب والقفاطين ، ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق في الأرياف ، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود « كفارا » ، كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة . . إنهم شيوخ مأفونون ، يعدون التفرنج رذيلة ، مع أنه عين الفضيلة . . » (٤٥) !

والطريف ، أن سلامة موسى ، على كراهيته لآسيا وللدم الآسيوى ، قد رأى في دماء الجوارى الشركسيات مصدرا لتحسين شكل المصريين ، حتى تقارب بشرتهم « البشرة الأوروبية » . . ولم ير فيهن - كما رأى في الأزهر والأوقاف والثقافة الإسلامية - عقبات أمام « التفرنج » الذى زرعه نابليون والإنجليز! . .

وأمام هذا التردد ، الذى حال دون عموم « التفرنج » ، دعا سلامة موسى إلى إلغاء كل مكونات ومؤسسات الموروث . . ففى رأيه : أنه « ما من أمة تنهض إلا وتنسلخ من قديمها . . وكل ما هو باق لنا من القديم سيئ لا يزال يؤذينا . . مثل وزارة الأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، والمجالس المليية ، والبطركيات العديدة . . والأزهر . . الذى يشتغل بثقافة قديمة بائدة ، فى عصر حديث . . فهو أداة الثقافة المظلمة ، ثقافة القرون الوسطى . . وإيثاره على الجامعة المصرية يشبه إيثار الجمل على الأتومبيل ، أو الحمار على

(٤٥) [اليوم والغد] ، ص ١٧٧ - ١٧٩ ، ١٩٤ .

الطيارة . . ولذلك ، لا أتردد في القول بإلغاء الأزهر والاكتفاء بالجامعة المصرية ، لأنها أداة الثقافة الجديدة النيرة . . » (٤٦) !!

هكذا رأى سلامة موسى : الشرق . . والرابطة الشرقية . . والحضارة الشرقية . . ومكوناتها العربية الإسلامية ، في الفكر ، والثقافة ، والآداب والفنون ، واللغة . . فدعا إلى إلغائها جميعا . . بل ودعا إلى إلغاء « الكرامة الشرقية » ، لأنها ، مع هذه المكونات ، عقبات أمام « التفرنج » ! . . ولم يتردد في الدعوة إلى إلغاء كل المؤسسات التي ترعى هذه الخصوصيات الحضارية . . من الأزهر . . إلى المحاكم الشرعية . . إلى الأوقاف . . إلى المجالس المليية والبطركيات ! . . وكان صريحا إلى درجة « الحدة » ، فلم يغلف ولم ينافق ، كما صنع ويصنع آخرون !! . .

وماذا عن الرابطة الدينية ؟! . .

وبعد أن تحدث سلامة موسى عن الرابطة الشرقية ، وتميزنا ، كشرقيين ، حضاريا وفكريا وثقافيا عن الغرب الأوربي ، فاعتبر ذلك كله « سخافة » كبرى . . بلغ قمة هذا الهجوم عندما تحدث عن « الرابطة الدينية » . .

والرابطة الدينية التي عناها ، وصب عليها الحمم هي الرابطة الإسلامية ، التي تجمع بين أمة الإسلام . . ولقد رآها الرجل جماع حجج القائلين بتميزنا حضاريا عن الغرب ، ومن ثم بضرورة استقلالنا بسمات وقسمات حضارية تميزنا . .

لقد اعتبر الإيمان بوجود رابطة تجمع الأمة الإسلامية ، وتميز انتماءها عقديا وحضاريا . . اعتبر ذلك لونا من الجهل بروح الزمن ، الذي رآه قد

(٤٦) المرجع السابق . ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ١٨٢ .

تجاوز الدين وروابطه كلها . . وسخر من دعوة الحزب الوطنى ، بزعامة مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ، ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] إلى رابطة الجامعة الإسلامية ، بل ومن اهتمام المصريين « بأخبار العالم الإسلامى » . . . وأحوال المسلمين فى « أدنة وبخارى » وغيرها من حواضر الإسلام . . . وأثنى على تجربة أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧ هـ ، ١٨٨١ - ١٩٣٨ م] التى اقتلعت الانتماء الإسلامى من تركيا اقتلاعاً . . . وزعم وجود تناقض بين « الوطنية » وبين الانتماء للجامعة الإسلامية ، حتى لقد ذهب فى هذا الزعم إلى أن « الوطنية » « مبدأ أوربى لم يعرفه العرب قط » . . . واتهم دعاة الجامعة الإسلامية بأنهم دعاة « فتنة بين الأقباط » ، وبأن دعوتهم هذه إلى الجامعة الإسلامية إنما تمثل « ردة عن الوطنية » . . . بل لقد ذهب الرجل على درب محاولات إزاحة الرابطة الدينية عن طريق سعيه « للتفرنج والاندماج فى أوربا » ، إلى حد الزعم بأن ديننا - حتى الإسلامى - لا يميزنا عن أوربا ، فقال : « إن أدياننا لا تختلف البتة عن أديان أوربا ، حتى الإسلام نفسه يكاد يكون مذهباً من المسيحية » . . . وذلك ليخلص إلى غايته ، وهى « أن حضارتنا هى حضارة أوربا » (٤٧) ! !

والأكثر غرابة فى « فكر » سلامة موسى ، المعادى للرابطة والجامعة والانتماء الإسلامى . . أنه بعد أن أقام تناقضاً بين « الوطنية » و« الجامعة الإسلامية » ، وطلب من المصريين التضحية بانتمائهم الإسلامى فى سبيل وطنيتهم ، عاد ليطلب منهم التضحية بوطنيتهم فى سبيل العالم . . . إذ « غاية كل مصرى أن يكون باراً بالعالم » (٤٨) . . . وإذا كنا نضحى بأنفسنا لأجل مصر ، فيجب أن نضحى بمصر لأجل العالم . فالعالم هو وطننا الأكبر ، وليست تركز الوطنية على أننا نحب مصر أكثر من العالم . . . » (٤٩) ! ! فهو يدعو للتضحية

(٤٨) المرجع السابق . ص ١٩٥ .

(٤٧) المرجع السابق . ص ١٦٧ .

(٤٩) المرجع السابق . ص ١٩٤ .

«بالعالم الإسلامى» فى سبيل مصر . ثم يدعو للتضحية بمصر فى سبيل العالم الأكبر، وكأنها العالم الإسلامى ليس جزءا من هذا العالم الأكبر!! . . . وكأنها دعاة الجامعة الإسلامية - وفى مقدمتهم مصطفى كامل - لم يكونوا رواد البعث للوطنية المصرية بعد هزيمة العربيين، حتى لقد كان شعارهم: « لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً »!! . . .

لقد كان هدف سلامة موسى، فى الحقيقة: إزاحة الرابطة الإسلامية، لا لأنها - كما زعم - تنكر «الوطنية» أو تتجاهلها، وإنما لأنها هى « المميز الحضارى » للمصريين والعرب والمسلمين عن الحضارة الغربية، التى جعل الاندماج فيها والذوبان بها رسالته الأولى فى هذه الحياة . . . ولذلك عقد مقالا جعل عنوانه: «الرابطة الدينية وقاحة»!! . . . قال فيه: «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة . فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا . وقد كان مصطفى كامل، لجهله بروح الزمن، يخبرنا، ولا يزال فلول المحررين من « المؤيد »^(٥٠) و«الحزب الوطنى» يخبروننا، نحن المصريين عن: الإسلام فى الصين تحت عنوان: « أخبار العالم الإسلامى ».

وقد شبت تركيا من الجامعة الإسلامية، ونفضتها عن نفسها، وتخلصت منها، لا لأنها أضاعت دينها، ولم تعد تؤمن به، بل لأنها لم تعد تؤمن بفائدة الجامعة الإسلامية، بعد أن خبرتها فى الحرب الكبرى فوجدتها قصبة مرضوضة لا تغنى ولا تنفع . . .

إن الدين الآن ليس تشترك فيه الجماعات، وإنما هو عقيدة يعتقدها الفرد عن علاقته بالكون، ويبدو لى أنه لا يمكن أن يتفق اثنان فى العالم فى عقيدة دينية، كما لا يتفقان فى ملامح الوجه، فديانة المستقبل هى ديانة فردية لا

(٥٠) صحيفة الشيخ على يوسف .

جماعية ، بل هى صوفية حرة لا يتقيد فيها الفرد بما يؤمن به فرد آخر أو أمة أخرى .

وكيف يمكننا أن نعتمد على جامعة دينية ، بينما فى العالم نظرية تقول إن الإنسان لم يكن راقيا فانحط ، كما تقول الأديان ، بل هو كان منحطا فارتقى ؟ نعى بها نظرية التطور . بل كيف يمكن إنسانا مستنيرا قرأ تاريخ السحر والعقائد أن يطلب منه أن يحترم جامعة دينية ؟ ! . إن الجامعة الدينية فى القرن العشرين ، وقاحة شنيعة . . (٥١) إننا فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ماتكون عن الأديان . . ويجب أن نفصل الدين عن الدولة ، ونلغى تعليمه فى المدارس» (٥٢) !!

ثم ينتقل من الافتراء على الجامعة الإسلامية ، من حيث المبدأ والقيمة . . إلى الافتراء على علاقتها بالوطنية والانتماء الوطنى ، فيقول : «وربما كان إسماعيل باشا [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ ، ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] أول من بذر بذور الوطنية المصرية ، لأنه هو الذى جعل الأمة تصطنع الحضارة والمبادئ الغربية . والوطنية مبدأ أوربى ، لم يعرفه العرب قط ، ولذلك لا وجود لهذه الكلمة فى المعاجم العربية ، لأن العرب لم يعرفوا سوى الإسلام جامعة تجمعهم . . . وظهر عرابى ، وحاول أن يقوى هذه الوطنية ، ويجعل مصر أمة دستورية ، ولكنه خاب فى مسعاه . ثم حدث ارتداد فى الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل ، والخديوى عباس [١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ ، ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م] و«المؤيد» ، فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام . . . وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته أن يحدثوا فتنة بين الأقباط بهذا السخف والهراء . ولكن الأقدار هيأت لنا رجلا آخر هو لطفى السيد ، صاحب «الجريدة» ، فإنه نظر حوله فرآنا شائعين فى العالم الإسلامى ، ورأى الأذهان

(٥١) [اليوم والغد] . ص ١٨٧ ، ١٨٨ . (٥٢) المرجع السابق . ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

قد زاغت عن الصراط الوطنى ، حتى المزارع أو التاجر أو الصانع المصرى
يبالى بقراءة أخبار المسلمين فى « أدنة » و « بخارى » أكثر مما يبالى بحادث قتل
فى الجيزة . وعندما شبت الحرب بين تركيا واليونان سنة ١٨٩٨ م ، جمع
المصريون نحو ستين ألف جنيه أرسلوها إلى الأستانة لمعاونة الأتراك ، مع أنهم
كانوا فى حاجة إلى ستين ألف ملين لتعليم صبي مصرى .

وشرع لطفى السيد يكتب لنا دروسا كل يوم عن الوطنية ، وأن المصرى
يجب أن يقصر جهوده على مصر . . . وأخذ يفشى المبادئ الأوربية بيننا عن
العائلة وحرية المرأة ، واللغة والأدب ، والسياسة . ورأى الأقباط ، بعد أن
كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوى عباس ، ومصطفى كامل ، و « المؤيد » ، أن
وطنية لطفى السيد مصرية لا شائبة فيها ، وأنها لا تزيف بهم إلى الجامعة
الإسلامية ، أو الجامعة العثمانية ، فصاروا يؤمنون بالوطنية . « (٥٣) .

والناظر فى هذه السطور ، لسلامة موسى ، يجد فيها من الأكاذيب الجريئة
بعدد ما فيها من العبارات ! ! . .

● فهو يزعم أن الوطنية مبدأ أوربى ، لم يعرفه العرب ، ولا وجود له فى
معاجمهم . . مع أن مصطلح « الوطن » ، الذى تنسب إليه الوطنية ، مادته
قائمة ، والحديث فيها طويل فى كل معاجم العربية وقواميس الفكر
الإسلامى ، لغوية كانت أو فكرية . . هذه القواميس . . من [لسان العرب]
لابن منظور . . إلى [الكليات] لأبى البقاء . . إلى [كشاف اصطلاحات
الفنون] للتهانوى . . إلى غيرها من المعاجم والقواميس . . بل إن قائمة
المؤلفات الإسلامية والعربية فى الوطن وحب الوطن كفطرة إنسانية فى الحياة
والتراث العربى والإسلامى . . هذه القائمة استلفت الأنظار ، فكانت
موضوعا لدراسات متخصصة . . فمن رسالة الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ ،

(٥٣) المرجع السابق . ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

٧٨٠ - ٨٦٩م]: في [الحنين إلى الأوطان] - والتي تحدث فيها عن كيف
« كانت العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعَفْراً
تستنشقهُ . . »^(٥٤)!! - إلى [المنازل والديار] لأسامة بن منقذ [٤٨٨ -
٥٨٤ هـ ، ١٠٩٥ - ١١٨٨ م] . . إلى [زبدة حلب] لابن العديم [٥٨٦ -
٦٦٠ هـ ، ١١٩١ - ١٢٦٢ م] . . إلى [الديارات] للشابشتي [٣٩٠ هـ -
١٠٠٠ م] . . إلى [مطالع البدور ومنازل السرور] لعلی بن عبد الله البهائي
[٨١٥ هـ - ١٤١٢ م] . . إلخ . . إلخ . .

بل إن الإسلام، الذي علم الأمة أن وحدتها - جامعتها الإسلامية - هي
فريضة إلهية، هو الذي يعلمنا قرآنه الكريم أن « حب الوطن » هو قرين
« حب الحياة »، فالإخراج من الوطن قرين الإخراج من الحياة - أي الموت -
﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا
قليل منهم ﴾^(٥٥) . . كما جعل الإخراج من الديار أعظم أسباب الجهاد ضد
الذين يخرجوننا من الديار أو يظاهرون على هذا الإخراج، وسوى بين ذلك
وبين القتال في الدين والفتنة عن الاعتقاد، وجعلها معايير « الصداقة »
و« العداوة » و« الولاء » و« البراء » ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله
على نصرهم لقدير ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا
الله ﴿^(٥٦) . حتى لقد غدت عبارة: « حب الوطن من الإيمان » مأثورة
إسلامية، اشتهرت بين العامة باعتبارها من سنة الرسول ﷺ . . فوحدة الأمة
الإسلامية، ووحدة دار الإسلام، لا تنتقص من الوطنية، ولكنها توسع دائر
الوطن، فلا تحصره في إقليم ضيق، يحدد العنصر أو العصبية الجاهلية
حدوده، وإنما تجعل العقيدة والحضارة معياراً لهذه الحدود . .

(٥٤) الجاحظ: [الحنين إلى الأوطان]، ج ٢، ص ٣٩٢، من [رسائل الجاحظ] تحقيق:

عبد السلام هارون . طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.

(٥٥) النساء: ٦٦ . (٥٦) الحج: ٣٩، ٤٠ .

● وإذا كانت الوطنية التى يعجب بها سلامة موسى هى التى تجعل «المصرى يقصر جهوده على مصر» - حسب تعبيره - فلم يكن الخديوى إسماعيل - كما زعم - على هذا المذهب فى الوطنية . . فى عهد إسماعيل ، وصلت حدود مصر - سلما وحربا - إلى « أوغنده » ، عبر « السودان » ، وإلى « زيلع » و« هرر » فى القرن الإفريقى . . بل وكان لها إسهام فى نزاعات البلقان !!^(٥٧) . . فلم تكن « الوطنية » بالمعنى « القطرى الضيق » هى مذهب الخديوى إسماعيل . .

● وعرابى [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ ، ١٨٤١ - ١٩١١ م] الذى يزعم سلامة موسى أن الوطنية كانت لديه تعنى « أن المصرى يقصر جهوده على مصر » هو الذى جمعت وطنيته بين « مصر للمصريين » وبين « الجامعة الإسلامية » . . وعندما سأله جرجى زيدان [١٢٧٧ - ١٣٣٢ هـ ، ١٨٦١ - ١٩١٤ م] عن صحة دعوى سعى ثورته إلى إسقاط الدائرة الإسلامية من اهتماماتها؟ قال : « إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين . . لأننى أرى فى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه »^(٥٨) !!

● أما مصطفى كامل ، الذى رأى سلامة موسى التناقض بين دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » وبين « الوطنية المصرية » ، حتى لقد اعتبرها ردة عن الوطنية ، فإنه هو الذى جعل حب مصر عقيدة أسس عليها حزبه الوطنى ، مع رؤيته للعلاقة الحضارية والتضامنية التى تجمع « الوطن » بدار الإسلام . . حتى لقد جسد النموذج العبقرى فى الجمع بين هذه الدوائر المتكاملة والمتعاضدة فى سلم « الانتماء » . . ومن الصفحات المشرقة التى كتبها فى هذا

(٥٧) انظر وقائع هذه الأحداث فى : محمد مختار باشا المصرى ، [التوفيقات الإلهامية] ، ج ٢ - سنوات حكم إسماعيل [١٨٦٢ - ١٨٧٩ م] - تحقيق : د. محمد عمارة ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٠ م .

(٥٨) جرجى زيدان ، [تراجم مشاهير الشرق] . انظر كتابنا : [جمال الدين الأفغانى المفترى عليه] ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٤ م .

الموضوع ، نسوق هذه العبارات التى يقول فيها : «إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا . . فمصر للمصريين . . ومحال أن نطلب مالكا أجنبيا عنا . . لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية [العثمانية] . . فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها . . بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع . . فميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى ، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابا واحدة . . وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية» (٥٩)!

أما فرية إحداث مصطفى كامل لفتنة مع الأقباط ، بسبب شعار الجامعة الإسلامية . . فالتاريخ شاهد على أن أول إسهام للأقباط فى العمل الوطنى المنظم كان فى « الحزب الوطنى » الذى قاده مصطفى كامل . . وشهيرة هى نداءاته للأمة : «إياك والانقسامات ، فإنها منشأ الخراب والدمار . إياك وهوس العداوات الدينية ، فإنها آفة الآفات . . إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش . ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد . . إنهم إخوة لنا فى الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق . .» (٦٠) .

ولقد شهد له زعماء الأقباط - الذين تعلموا الوطنية فى مدرسته - بذلك ، فقال عنه مرقص حنا باشا [١٢٨٩ - ١٣٥٣ هـ ، ١٨٧٢ - ١٩٣٤ م] : إن مصطفى كامل «قد كَوَّن الوحدة الوطنية ، وأرانا طريق الإخاء والحرية . . ورسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال . . إنه لم يكن

(٥٩) انظر كتابنا : [الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل] ، ص ٤٦ - ٨٢ .

طبعة دمشق ، سنة ١٩٨٩ م .

(٦٠) المرجع السابق . ص ٧٧ .

صديقا لفريق من المصريين ، بل كان صديقا لجميع الوطنيين على السواء ،
إن حياته تعنى أن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد
وهو مصر ، هو الوطن العزيز» (٦١)!

وإذا كان سلامة موسى معجبا بـ «وطنية» لطفى السيد [١٢٨٨ -
١٣٨٢ هـ ، ١٨٧٠ - ١٩٦٣ م] بينما يرى في مصطفى كامل ردة عن الوطنية
إلى الجامعة الإسلامية — بافتعال التناقض بينهما — . . فيكفى لتبديد هذا
الزعم أن نسوق رأى لطفى السيد في وطنية مصطفى كامل !! . . لقد كان
يرى في مصطفى كامل التجسيد للوطنية ، حتى لقد كتب عنه فقال : «إن
مصطفى كامل كان شعاره : الوطنية ، ووسيلته : الوطنية ، وغرضه :
الوطنية ، وكلماته : الوطنية ، وكتابات : الوطنية ، وحياته : الوطنية . حتى
لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهني والعرفي ؛ فإذا ذكرت مصطفى
كامل بخير فإنما تطرى الوطنية ، وإذا قلت : الوطنية ، فإن أول ما يتمثل في
خيالك شخص مصطفى كامل ، فكأنما هو والوطنية شيء واحد . . إن
مصطفى كامل كان تمثال الوطنية . . إن مصطفى كامل كان مصريا لجميع
المصريين . . » (٦٢)!

هكذا سقطت كل دعاوى سلامة موسى ضد وطنية دعاة الجامعة
الإسلامية . . وشهد شهوده هو على سقوط هذه الدعاوى . . ولم يبق له إلا
الفكر الشائه لهذا المعنى الشاذ من معاني « الوطنية » . . والذي يستنكر أن
يهتم الإنسان المصري بأخبار العالم الإسلامي ، وأن يكون عضوا حيا في جسد
الأمة الإسلامية . . بينما يطلب منه سلامة موسى أن يقصر جهوده على مصر ،
ثم يضحى بمصر لأجل العالم ، طالما أن هذا العالم ليس إسلاميا !! . .

(٦١) المرجع السابق . ص ٧٩ .

(٦٢) المرجع السابق . ص ٧٢ .

ذلك هو المعنى الشائئ « للوطنية » عند سلامة موسى . . والذي عقد له الصفحات التي هاجم فيها « الرابطة الدينية » ، معتبرا إياها « وقاحة شنيعة » . . وذلك بعد أن هاجم « الرابطة الشرقية » ، واصفا إياها « بالسخافة » . . وداعيا إلى التملص منهما . . وإلى « التفرنج » والذوبان في الإنجليز خاصة ، وفي عموم الأوربيين ! . .

* * *

ولما كان هجوم الرجل - كما شهدت نصوصه - على الرابطة الشرقية والرابطة الدينية إنما هو ، في حقيقته ، هجوم على المكونات الحضارية الإسلامية ، التي تمثل عوامل تميزنا الحضارى عن الغرب الأوربى ، فإن تاريخ الإسلام ، بما فى ذلك خلافته الراشدة ، لم تسلم من افتراءاته . . فالفاروق عمر بن الخطاب كان حاكما مستبدا !! والخلفاء كانوا أسوأ من البابوات !! . . وفى ذلك يقول : « إن الحكومة العربية كانت فى أرقى وأحسن أوقاتها حكومة استبدادية . ولا عبرة لما يقال بأن الإسلام أمر بالشورى ، فإن عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يستشير أحدا فيما يراه خيرا لرعيته . . والخلفاء كانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرا بابويا ، بل البابا نفسه إذا قيس إليهم فى بعض الأشياء يعد دستوريا !! » (٦٣) .

يقول سلامة موسى ذلك . . وهو يعلم - أو مفترض أن يعلم قبل أن يكتب - أنه حتى الرسول ﷺ ، وهو المعصوم ، كان يلزم نفسه فى الأمور الاجتهادية بالشورى ، كآلية لاتخاذ القرارات وإدارة شئون الدولة ، حتى لقد قال - وهو رئيس الدولة - : « لو كنت مؤمرا أحدا دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد » - [عبد الله بن مسعود] (٦٤) . . فبغير شورى المؤمنين لا يستطيع

(٦٣) [اليوم والغد] ، ص ١٨٥ .

(٦٤) رواه الترمذى وابن ماجه والإمام أحمد .

رئيس الدولة - النبي المعصوم - أن يُؤمّر أميراً . . . أما عمر بن الخطاب -
الذي يتهمة سلامة موسى بالاستبداد - فهو القائل : « الخلافة شورى . . ومن
بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ، ولا بيعة للذي بايعه . . » (٦٥) !

أما اتهام الخلافة الإسلامية بأنها كانت « بابوية » . . فهو زعم نفاه - وليس
فقط لم يقل به - كل المستشرقين الذين درسوا فلسفة الحكم الإسلامى ، ونظام
الخلافة فى تاريخ الإسلام . . بل وقالوا إن فلسفة الحكم الإسلامى على
العكس من فلسفة البابوية وحكمها تماماً . . والمستشرق « سانتيلانا »
David de Santillana [١٨٤٥ - ١٩٣١ م] - وهو الضليع فى الشريعة
الإسلامية ومذاهبها - وصاحب الدراسات القانونية الشهيرة - يتحدث عن
علاقة الخليفة بالأمة ، فيصفها « بالرابطة التعاونية » تقوم إذا قام الخليفة
بواجبه ، وتنفسخ إذا عجز عن ذلك . . « إن الرابطة التعاونية الموجودة بين
الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحاً للقيام بواجبه
فى حماية المجتمع الإسلامى ، فإذا لم يعد أهلاً لمنح شعبه ما يريد منه ، بطل
سلطانه ، وفسخ العقد شرعاً بين المتعاقدين . . » (٦٦) . ثم يقطع بنفسى أية
مشابهة بين « الخلافة » وبين « البابوية » - مع اعترافه بمهام الخليفة فى
« تعضيد المصالح الدينية والدنيوية » - فيقول : « والحقيقة أن سلطة الخليفة ،
كرئيس دينى ، لا يمكن أن تعتبر سلطة خبرية أو بابوية مثلاً ، فهو متجرد
تماماً من صفة الكهنوت ، لأن حكومة المسلمين ما كانت فى أى زمن أو ظرف
حكومة دينية Hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب رسولى . . » (٦٧) !

(٦٥) رواه البخارى والإمام أحمد . - وانظر فصل « ضرورة الشورى » فى كتابنا : [الإسلام وحقوق
الإنسان] ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٩ م .

(٦٦) [القانون والمجتمع] - بحث منشور ضمن كتاب : [تراث الإسلام] . ص ٤٢٧ . ترجمة :
جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢ م .

(٦٧) المرجع السابق . ص ٤٢٥ .

وعندما نتأمل قول «سانتيلانا»: «إن حكومة المسلمين ما كانت في أى زمن أو ظرف حكومة دينية»، ونقارنه بقول سلامة موسى: «لقد استوى العرب والإفرنج، في القرون الوسطى، أو كادوا يستوون، في نظام الحكومة الاستبدادية التى يسيطر عليها رئيس دينى هو البابا أو الخليفة. . بل إن البابا إذا قيس بالخلفاء في بعض الأشياء يعد دستوريا»^(٦٨)!! . . ندرك الفارق بين «العالم» الذى ينصف الحقيقة، بصرف النظر عن موقعه من الإسلام وموقفه من المسلمين، وبين الذين زيفوا حقائق الفكر والتاريخ، ليفتعلوا مماثلة بين الإسلام وبين النصرانية الأوربية. . بين الخلافة الإسلامية - وهى دولة مدنية ملتزمة بالشرعية الإلهية - بين الكهانة البابوية التى ادعت العصمة فحكمت بالحق والتفويض الإلهيين. . بين تطورنا التاريخى، الذى لم يعرف حكومة الفقهاء، وبين التطور الأوربى المغاير لتطورنا كل المغايرة. . يفتعلون هذه المماثلة، ليستعيروا «المشكلة الأوربية» حتى يستعيروا لها «الحل الأوربى»، أى «التنوير - العلمانى»، الذى يعزل السماء عن الأرض، والدين عن العمران، ويحل «العقل. . والعلم. . والفلسفة» - آلهة التنوير الغربى - محل الله والقرآن والسنة، أو محل الشريعة على الأقل عند غير الملحدين من دعاة التنوير! . . وما هذه الاستعارات الفاسدة إلا بهدف إيهامنا بأننا غرب في كل شىء. . في المنطلقات. . والمكونات الحضارية. . والدين. . والتطور التاريخى، ومشكلاته وحلوله، لنسير وراء دعوتهم إلى الانسلاخ عن إسلامنا وتميزنا الحضارى النابع من تميز إسلامنا، الذى ميز تطورنا الحضارى. . وإلى الذوبان في الغرب والاندماج فيه. لقد حاولوا ذلك، في جيل «الرواد». ولا يزالون يحاولون، في جيل «التلاميذ»، مدعومين بالغرب، الذى رأى ويرى في هذا الإلحاق الحضارى والتذويب الثقافى السبيل الوحيد لتأييد وتأييد تبعية عالم الإسلام

(٦٨) [اليوم والغد]، ص ٥٠، ١٨٥.

لمركزه الغربى فى « الأمن » و« السياسة » و« الاقتصاد » . . تلك هى حقيقة المقاصد التى يريدونها من وراء محاربة المشروع الإسلامى للنهضة والتغيير بهذا « التنوير - الغربى - العلمانى » ! . .

* * *

والنزعة الفرعونية :

وكما تميزت دعوة سلامة موسى ، إزاء « الرابطة الشرقية » و« الرابطة الدينية » ، بهذه « الصراحة العارية » . . إلى الحد الذى دعانا فيه إلى التضحية بالإسلام والعالم الإسلامى والعروبة والعربية فى سبيل مصر، ثم دعانا إلى التضحية بمصر فى سبيل العالم ، بشرط ألا يكون هذا العالم إسلاميا ! بل وبشرط أن يكون أوربيا وغربيا على وجه التحديد ! . . كما صنع الرجل ذلك مع « الرابطة الشرقية » و« الرابطة الدينية » ، صنع أيضا مع « النزعة الفرعونية » . . فهو مع الفرعونية إذا كانت المقارنة بينها وبين العرب والإسلام والمسلمين ، بل لقد وجدناه مع لغة الهكسوس ضد اللغة العربية . . لغة القرآن ! . . ولكن إذا كانت الفرعونية ستمثل « ذاتية خاصة » لمصر، تحول دون « تفرنجها » وإلحاقها بالحضارة الأوربية ، فهو ضدها ، يدعو إلى تجاوزها ، ويتحدث عن استحالة العودة إليها من جديد ! . . إنه ضد أى تميز عن الغرب فرعونيا أو عربيا أو إسلاميا أو شرقيا . . حتى لقد ذهب - كما سبقت إشارتنا - إلى أن دياناتنا المسيحية منها والإسلام لا تختلف عن أديان أوربا ! . . رغم ما هو معروف له من موقف الكنيسة الأرثوذكسية المصرية من مذاهب الغرب المسيحية ، والتى تضعها فى دائرة « الكفر » بالنصرانية التى تؤمن بها ! . .

لكن ، هكذا حكمت « مقاصد » الرجل ، فحددت له الاختيارات والوسائل و« الأدلة » والآليات ! . .

فهو يفضل الفرعونية على العروبة والشرقية والإسلام ، لكن إذا كانت الفرعونية ستتصبح « انتماء » مستقلا عن الانتماء للغرب ، وبديلا له ، فإنه يدعو إلى ضمها مع التاريخ العربى إلى « متحف الآثار » وبرامج « الدراسة فى الحفريات » ! . . . فيبدأ حديثه فى هذه القضية متسائلا : « ولكن ، هل الغاية من التخلص من آسيا ، والشرق ، والتاريخ العربى ، أن نعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخها ؟

لست أشك فى أننا لو فعلنا ذلك لكان أصلح لنا . . . خير لنا أن ندرس الفراعنة من أن ندرس العرب ، لا لأنهم جدودنا فقط ، بل أيضا لأن فى درسهم تفتيقا للأذهان . . . ولكن صلتنا بالفراعنة قد انقطعت ، إذ لا نتصل الآن بهم بثقافة أو حضارة ، وغاية مانرجوه أن يختص عندنا شبان بدرسهم ، كما يختص آخرون بدرس العرب ، وكلا الفريقين يشتغلان فى درسهما بالآثار . وإذا كان المصريون القدماء لا يدخلون الآن فى عقائدنا أو أدبنا أو علمنا ، فليس لأحد أن يقحم أدب العرب أو عقائدهم أو علمهم على آدابنا وعقائدنا وعلومنا وحضارتنا . فالمصرى القديم والعربى القديم من الآثار التى ندرسها ، كما ندرس الفينيقي القديم . وإن كان المصرى يمتاز بأنه ينير أذهاننا عن نشوء الحضارات الأولى .

ولكن المهم الذى أرى وجوب تأكيده : أننا ونحن نخلع أنفسنا من الشرق ، لا نفعل ذلك لكى نعود إلى وطنية فرعونية . كلا ، إنما نريد وطنية مصرية حديثة تنهج منهج القرن العشرين فى الوطنيات والقوميات ، وتسير على المبادئ الأوربية فيها . . . » (٦٩) .

فالفرض عام وتام لكل أصالة ولكل تراث ولكل قديم لا يسير « على المبادئ الأوربية » ! ! . . . فالذين « يستمسكون بالشرق يتعلمون به فى كراهة

(٦٩) المرجع السابق . ص ١٩٠ ، ١٩١ .

الغرب ، ويستمسكون بالقديم كبرياء وأنفة من أن يقال إن حضارتنا ، باعتبارنا شرقيين ، قد أفلست أمام حضارة أوربا»^(٧٠)! . . . وسلامة موسى يريد أن يحرم الأمة حتى من «الكبرياء . . . والأنفة» ، ولا يريد منها أقل من التسليم والاعتراف بالهزيمة والإفلاس الحضارى « أمام حضارة أوربا»! . . . وفى الوقت الذى ينكر على المصريين أية «روابط» مع العرب والمسلمين والشرقيين ، يزعم «وحدتهم» مع الأوروبيين فى « الدم . . . والأصل . . . والثقافة من عهد مدرسة الإسكندرية ومجمع أثينا»! . . . أى منذ ما قبل الميلاد . . . فيقول : « وإذا كنا نحب السير مع أوربا ، فليس ذلك لأننا والأوروبيين من دم واحد وأصل واحد فقط ، بل لأن ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الإسكندرية ومجمع أثينا . وأيضاً لأن حضارتها هى حضارة العالم الحديث كله»^(٧١)!

لكن الرجل ، إمعاناً فى « الدونية» ، وتكريساً «للهزيمة النفسية» - وهى مؤهلات «التبعية للغرب والتشبه به والذوبان فيه» - عاد ، فى موضع آخر ، ليلغى أى فضل للمصريين القدماء فى حضارة الإغريق والرومان! . . . فعلى حين يردد الكثيرون تأثير مصر القديمة على فلاسفة اليونان : طالس [٦٢٤ - ٥٥٠ ق.م] ، وفيثاغورس [القرن السادس قبل الميلاد] ، وأفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م] - الذى قال عن اليونان «إنهم أطفال» إذا ما قيسوا بالمصريين! . . . على حين يردد الكثيرون ذلك ، حتى ليثبتوا الصلات التى تزكى دعوتهم لوحدتنا مع الغرب فى الحضارة^{(٧٢)؟}! . . . نجد سلامة موسى يعدل عن سبيل «المماثلة فى التأسيس الحضارى» إلى سبيل «الدونية . . . والإفلاس» مبرراً يدعو للاندماج فى الغرب الحضارى الحديث . . . فبعد أن

(٧١) المرجع السابق . ص ١٨٢ .

(٧٠) المرجع السابق . ص ١٨١ .

(٧٢) انظر: د. مراد وهبة «ثقافة شرق أوسطية» - صحيفة [الحياة] ، عدد ١ أغسطس .

سنة ١٩٩٣ م .

زعم أننا مثل الغرب حتى في الديانات ، ادعى أن الغرب لم يستفد منا ثقافيا . . فقال : « وأول ما يجب إثباته ، أن أوربا الحديثة لم تستفد كثيرا من «الشرق» من حيث الثقافة ، فإن الإغريق ، وهم أول أمة أوربية عنيت بالثقافة ، لم يكتسبوا شيئا من المصريين . لأن الفلسفة الإغريقية ، ثم الآداب الإغريقية ، لا تمتان بنسب إلى فلسفة المصريين أو آدابهم . وقد أنشأ الإغريق مدرسة الإسكندرية ، ولكن علماءها كانوا كلهم من الإغريق ، وكانت لغتهم إغريقية ، فلم يكن للمصريين فضل في هذه المدرسة ، ولم ينبغ منهم واحد فيها . بل يجوز لنا أن نشك في دخول المصريين فيها . . »^(٧٣)!! . .

وهو هنا ، إذ ينفى أى فضل للشرق والمصريين على الغرب ، قديما ووسيطا ، ينسى ما قاله هو نفسه من أن أوربا قد أخذت النزعة العلمية والتجريبية عن العرب والمسلمين ، حتى «إن المجددين من أبناء وعلماء النهضة الأوربية ، أمثال روجر بيكون ، كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة العربية»^(٧٤)!! . ينسى سلامة موسى ذلك ، ليكرس الهزيمة ، ويتنزع «الكبرياء والأنفة» منا . . «فنولّي وجوهنا شطر أوربا»^(٧٥) ، دوننا أنفة أو كبرياء! . .

وعندما وقف ، كما قال « في مفترق الطرق » ، ورأى الحضارة الأوربية - بتعبيره هو - «تغزونا بشراسة الظافر واستكلاب القوى»!! . . لم يتردد في دعوتنا لقبول هذا «الغزو الشرس» ، بل لقد دعانا إلى «الطفرة» في قبول نتائج هذا « الغزو والاستكلاب»!! . . وقال : « . . إن الطفرة ، على كل حال ، خير من الجمود ، وخاصة في مثل قطرنا ، وفي مثل وقتنا ، حين نجد كثيرا من العادات الآسيوية تكاد تزهرق أرواحنا وتعمل لإبادتنا ، أمام الحضارة الأوربية التي تغزونا بشراسة الظافر واستكلاب القوى»^(٧٦)!! . . فمخطط

(٧٣) [اليوم والغد] . ص ١٠٨ . (٧٤) المرجع السابق . ص ١١٠ ، ١١١ .

(٧٥) المرجع السابق . ص ٢٠٥ . (٧٦) المرجع السابق . ص ٨٥ ،

جل ، ورسالته الفكرية أن يذبح الرابطة الشرقية . . والعربية . .
سلامية . . وأيضا الفرعونية على مذبح الغرب وحضارته . . نضحى بكل
، الروابط في سبيل مصر، لنضحى بمصر في سبيل العالم ، بشرط ألا يكون
العالم شرقيا ولا عربيا ولا إسلاميا . . بل عالما أوربيا على وجه الخصوص
حديد!! . .

تلك هي رسالة سلامة موسى وجيل الرواد الذين بشروا بالإلحاق
نضارى . . و«بالتنوير - الغربى - العلمانى» الذى يقتلع المشروع
سلامى ، باعتباره العقبة أمام هذا الإلحاق! . .

بطة الحقيقية :

في الوقت الذى «غلف» فيه آخرون «مذهب» سلامة موسى في التبعية
إلحاق الحضارى . . . فساها البعض «وحدة الحضارة - العالمية . .
إنسانية» . . وساها الدكتور مراد وهبة : «الحضارة المتوسطة» ، أى
سارة البحر المتوسط التى تضم العرب والغرب الأوربى . . ثم أخذ يوسع
رتها ، مع الحديث عن « الرابطة الشرق أوسطية» - التى تضم إسرائيل -
عما إلى «ثقافة شرق أوسطية» تقوم على الفيلسوف العربى : ابن رشد [٥٢٠
٥٩٥هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨م] والفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون
٥٢ - ٦٠١هـ ، ١١٣٥ - ١٢٠٤م] . . كما ساها الدكتور طه حسين :
سبيل الواحدة الفذة التى ليس لها تعدد، وهى أن نسير سيرة الأوربيين
ملك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها
رها، حلوها ومرها، ما يُحب منها وما يُكره، ما يُحمد منها وما
ب»^(٧٧) . . فى الوقت الذى تعددت فيه التسميات لهذا المذهب

(٧) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، ج ١ ص ٤٥ .

الواحد في الإلحاق الحضارى ، والتغريب الثقافى ، والتبعية الفكرية . . كان لسلامة موسى فضل «الصراحة - العارية» فى التعبير عن هذا الموقف . . والمفهوم . . والمضمون . . لقد قال ، دون موارد أوتمويه : «إنه لا بد لنا من أن نتفرنج . . فالتفرنج هو عين الفضيلة - على عكس الشيوخ المأفونين الذين يعدونه رذيلة . .» (٧٨)!! . . .

فبعد أن رفض « الرابطة الشرقية » و« الرابطة الدينية » و« الرابطة الفرعونية » - أى كل الروابط الشرقية ، وجميع ما يميزنا عن الغرب الأوربى ، ثقافيا وفكريا وحضاريا . . تحدث عن « التفرنج » ، باعتباره « الرابطة الحقيقية » التى علينا أن ننضم إليها دون إبطاء ، فقال : «إن الرابطة الحقيقية ، التى تثبت على قاعدة ، وترسخ ولا تتزعزع ، هى رابطة الحضارة والثقافة ، هى رابطتنا بأوربا ، التى عنها أخذنا حضارتنا الراهنة ، ومنها تثقفنا ثقافتنا الجديدة . أجل ، يجب أن نرتبط بأوربا ، وأن يكون رابطتنا بها قويا . نتزوج من أبنائها وبناتها ، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها . . وننظر للحياة نظرها . . ونجعل أدينا يجرى وفق أديها ، بعيدا عن منهج العرب ، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتنا . . ونرسل أولادنا إليها ليتعلموا علومها ويتخلقوا بأخلاقها ، فالرابطة الغربية هى الرابطة الطبيعية لنا» (٧٩) . .

ومضى الرجل « يتغزل » فى الغرب . . فالإنسان الأوربى : أرقى إنسان . . والحضارة الأوربية : أرقى درجات التطور الاجتماعى . . وحضارة الشرق لا تبلغ واحدا من مائة من الحضارة الأوربية!! . . وبنص عبارته : « . . فإن الإنسان الأوربى أرقى إنسان ظهر فى العالم للآن ، والحضارة الأوربية ، على ما فيها من عيوب تعد بالملئات ، هى آخر درجات التطور الاجتماعى . ومن البلاهة البالغة أن يظن أحد الشيوخ أن حضارة بغداد أو

(٧٨) [اليوم والغد] . ص ١٧٨ ، ١٩٤ . (٧٩) المرجع السابق . ص ١٨٩ .

القاهرة أو الأندلس كانت تبلغ في السمو عشرين أو جزءا من مائة مما تبلغه الحضارة الأوروبية الآن» (٨٠) !!

أما الإنجليز، الذين كانوا يستعمرون مصر - وطن سلامة موسى - ويذلون شعبها . . فلقد قال عنهم : «إن الإنجليز ، على الرغم من خصومتنا معهم ، وشدة إسفافهم في استغلال ضعفنا ، أرقى أمة موجودة الآن في العالم . . والخلق الإنجليزي يمتاز عن سائر الأخلاق . . والإنسان الإنجليزي هو أرقى إنسان ، من حيث الجسم والعقل والخلق . . » (٨١) !! . .

ولقد دعا الإنجليز، المحتلين لمصر، إلى «صفقة» : تضمن مصالحهم ، ويساعدوننا على القضاء على مراكز الرجعية في مصر - أى مؤسسات ومكونات « الرابطة الشرقية . . والدينية . . والعربية » . . « فنحن إذا أخلصنا النية مع الإنجليز، فقد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم . وهم ، في الوقت نفسه ، إذا أخلصوا النية لنا ، فإننا نقضى على مراكز الرجعية في مصر وننتهى منها . فلنول وجوهنا شطر أوربا» (٨٢) !!

بل لقد بلغ به الأمر إلى حد تبرير احتقار الأجانب للمصريين !! . . وهجاء المصريين «لحسدهم» الأجانب وكراهيتهم لأنهم نازعواهم البقاء - وفق الدارونية - فغلبوهم على بلادهم وثرواتهم . . فكتب يقول : «إن الأجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق - [!!] - . . لقد كانت أكثر كراهيتنا لهم حسدا ، لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا» !!

ثم يرى الحل في دمج هؤلاء الأجانب - الذين «يحتقروننا» - وإعطائهم كل امتيازات المواطنين . . فيقول : «والأجانب ، ماداموا أجانب ، فهم شوكة

(٨٠) المرجع السابق . ص ٢٠٣ .

(٨١) المرجع السابق . ص ٣٥ - ٣٨ .

(٨٢) المرجع السابق . ص ٢٠٥ .

فى جسم الأمة . فىجب لذلك تمصيرهم ، والتزاج بيننا وبينهم ، وحضهم على إرسال أولادهم إلى مدارسنا ، حتى يعرفوا لغتنا ، ويقرءوا صحفنا وكتبنا ، كما يجب أن نسمح لهم بالتوظيف فى الحكومة ، والانتخاب للبرلمان . . . ويجب أن نمنع وساوسهم ، فنفسل الدين عن الدولة ، ونلغى تعليمه فى المدارس . . .» (٨٣) !!

لقد تحدث عن غلبة الأجانب لنا ، بمنطق «تنازع البقاء» ، فبرر القهر الاستعمارى ، قهر الأقوياء للمستضعفين ، وكأننا قوانين الإنسان المتحضر هى قوانين الغابة . . ولم يكلف نفسه السؤال : من الذى أجهض تجربة مصر فى التحديث على عهد محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ، ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] ؟ . . ومن الذى حرس أمراض الشرق ، حتى يرث دياره وثرواته ؟ . . ومن الذى مكن لشذاذ الآفاق ومغامرى أوربا من استغلال الإنسان المصرى ؟ . . وهل إذا «كره» المصرى هذا القهر وهذا الاستغلال يكون «حاسدا . . بلا حق» هؤلاء الغالبين المستغلين ؟ . . ومستحقا «بحق : احتقار» هؤلاء المتغلبن ؟ !

* * *

ولم يقنع سلامة موسى « بالتفرنج » الفكرى والثقافى والحضارى . . بل ودعا إلى ذلك أيضا فى الهيئة والأزياء ! . . ففى الوقت الذى دعا فيه إلى التملص من العرب والمسلمين والشرقيين ، تحدث عن أننا والأوربيين «أمة واحدة» ! . . ودعا إلى لبس « القبعة » ، باعتبارها « رمز الحضارة » ، الذى يقربنا للأجانب ، ويجعلنا وإياهم أمة واحدة . . كما أنها رمز للانسلاخ الفكرى من الشرق ، والالتحاق الفكرى بأوربا ! . . فكتب يقول : «وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة .

(٨٣) المرجع السابق . ص ٢٠٠ .

والقبعة هي رمز الحضارة، يلبسها كل رجل متحضر. . ونحن إذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس أوروبا فقط، بل نصطنع لباسا اتفق المتحضرون على وضعه على رؤوسهم. . فإن للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها، واتخاذ القبعة من هذه العادات. فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب إلينا الأنظار فيعمد السائحون إلى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الأمم التي جاءوا منها. . .

وقد أدرك مصطفى كمال [أتاتورك] - الذي لم تنجب بعد نهضتنا رجلا مثله ولا نصفه ولا ربعه - مقدار ما للقبعة من القيمة والإعلان بالانسلاخ من آسيا والانضمام لأوروبا، ولم يمتنع عن استعمال السيف في سبيل ذلك. . . إننا سنبقى، في نظر أنفسنا ونظر الأوربيين، شرقيين، حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق! (٨٤) . . إن العقلية الأوروبية تسهل على الأفندي أن يتقمصها، كما يتقمص اللباس الأوربي أكثر مما يسهل ذلك على الشيخ، وهي أسهل على « المتفرنج »، الذي يلبس القبعة مما هي على الأفندي لهذا السبب نفسه. وعلى هذا القياس أرى، لغرامى بالحضارة الأوروبية، أن أحث بنى وطنى أن يلبسوا القبعة. . لأنها تبعث فينا العقلية الأوروبية. . » (٨٥) !! . .

فـ « الشكل »، عند الرجل، مرتبط « بالمضمون »، بل ومعين عليه. . فبعد أن حكم بأن « ذوقنا ودمنا هما الذوق والدم الغربيان. . وأننا في هيئة الوجه أوروبيون » (٨٦) . . وأن ثقافتنا وحضارتنا - بل ودياناتنا - أوروبية، دعا إلى « تفرنج » الزى، لأن ذلك أعون على أن « يبعث فينا العقلية الأوروبية. . وامتدح أتاتورك، الذى فرض ذلك على أمته بحد السيف! . .

(٨٤) المرجع السابق. ص ٢٠١، ٢٠٢. (٨٥) المرجع السابق. ص ٨٢.

(٨٦) المرجع السابق. ص ١٨٠.

● والتفرنج في الأزياء ، لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية . .

هذا هو مذهبي الذى أعمل له طول حياتي ، سرا وجهرة . فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . . « !!

هكذا تكلم سلامة موسى . . وعلى هذا النحو الصريح صاغ مذهبه في «العمالة الحضارية» ، التى مارسها ويمارسها كثيرون غيره ، ولكن في ثياب من «المدارة» و«التمويه» ! . .

* * *

لقد اكتشفت وأنا أنهى هذه الصفحات عن المشروع الفكرى لسلامة موسى . . أن اليوم - ٤ أغسطس - هو الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيله عن عالمنا . . ذكرنى بذلك مقال نشر اليوم بصحيفة [الأهرام] وصفت فيه كاتبته سلامة موسى بأنه : «أحد رواد الفكر التنويرى العربى . . وصاحب الرسالة التنويرية . . وأحد الذين مهدوا لنا طريق التنوير»^(٨٧) ! . .

فحمدت الله على أن وفقنى لكتابة هذه الصفحات ! ! . .

(٨٧) منى حلمى : «في ذكراه : القلم الجريء سلامة موسى» [الأهرام] عدد ٤ أغسطس ، سنة ١٩٩٣ م .

٣- العقل اليوناني والمحضرة المتوسطة

لم يكن طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] عميلاً للغرب، ولا عدواً للإسلام، حتى في المرحلة الأولى من حياته الفكرية، تلك التي تميزت بالانبهار الشديد بالنموذج الغربي في النهضة والتحديث، وبالرفض للنموذج الإسلامي في النهوض. . . وذلك لأسباب كثيرة، أهمها تراجعه عن بعض «الاجتهادات» التي اكتشف «خطأها» بعد مرحلة الانبهار! . .

والرجل قد تضافرت، في تكوينه الفكري، العديد من العوامل التي دفعته إلى «الانبهار بالغرب»، ككثيرين غيره من «نخبة» ذلك التاريخ! . .

● فالجمود والتقليد السائدان في الدراسات الإسلامية بالأزهر - الذي طلب طه حسين العلم فيه - كانا مبعث القلق، بل وأحياناً «الغضب»، بل و«اليأس والقنوط» لدى دعاة التجديد والإصلاح من علماء الإسلام في ذلك الحين. . . وإذا كان هذا الغضب واليأس قد بلغا بالإمام محمد عبده إلى الحد الذي قال فيه: «إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر محال، فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه، وإننى أبذل جهد المستطيع في عمرانه، فإن دفعتني الصوارف إلى اليأس من إصلاحه، فإننى لا أياس من الإصلاح الإسلامي^(١)»! . .

(١) [الأعمال الكاملة]، ج ٣، ص ١٧٧.

إذا كان هذا هو حال الإمام مع منبع وصورة العلم الإسلامى . . فما بالناس
بحال « المجاور » طه حسين ؟ . .

● وصورة الواقع الإسلامى - فى السياسة والاجتماع - التى كانت ترمز إليها
الدولة العثمانية ، فى عصر الاستبداد الحميدى . . والفساد الإدارى . .
ودسائس الحاشية . . وانفراط عقد الولايات . . والتهام الغرب لأقاليم
السلطنة . . كانت هذه الصورة هى الأخرى عاملا سلبيا فى نظرة طه حسين -
فى مرحلة طلب العلم الدينى - للنموذج الإسلامى للنهضة والإصلاح . .
« فالمجاور » طه حسين - وهو الذى لم يقدم له الأزهر من علوم الإسلام
الحقيقية سوى القشور - قد حسب « صورة المسلمين وواقعهم » على
الإسلام . . ! !

● وصورة الحضارة الغربية ، التى كانت وردية فى ذلك التاريخ ، حتى أن
مقولات نقدها ، ونبوءات انهيارها - ولم تكن قد شاعت - كانت تبدو بعيدة
عن التصديق ! . . هذه الصورة كانت تبهر وتدهش الذين لم يروا من
الإسلام سوى واقع المسلمين ، وخاصة إذا كانوا من أبناء المغلوبين الذين ،
عادة ، مايولعون بتقليد الغالبين ، كما يقول ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ،
١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] . .

● ثم جاءت العوامل الذاتية الخاصة بطه حسين . . الجامعة المدنية ،
بمناهجها الغربية . . وأساتذتها المستشرقين ، والتى احتضنته عندما أصبح
طريد الأزهر ! . . والبعثة إلى باريس ، تلك التى قاربت أن تكون ، بالنسبة له
« غسيل مخ » أحل الانبهار بالغرب محل صورة المسلمين ، التى حسبها -
ظلمًا - على الإسلام ! . . والزوجة الفرنسية - ثقافة وعقيدة - تلك التى مثلت
« المرشد » لـ « الضير » الباحث فى « التيه » ! ! . .

لهذه الأسباب - ولغيرها مما ماثلها - اندفع طه حسين على طريق

«الاجتهاد»، يتلمس لأمته نموذجا لنهضتها من وهدة التخلف والجمود والتقليد التى سقطت فيها . . فكان اختياره للنموذج الغربى سبيلا لهذا النهوض . .

أما أن هذا الخيار التغريبي قد جعل الرجل نموذجا للذين بشروا فينا بمقولات « التنوير - الغربى - العلمانى » ، فإن المشروع الفكرى لطله حسين يقدم على هذه الحقيقة عشرات الأدلة والبراهين . . لكننا سنقف عند معالم أساسية ، فى مشروعه الفكرى ، تشهد على ريادته لهذا اللون من «التنوير» . .

● فى كتابه [فى الشعر الجاهلى] - الذى أثار سنة ١٩٢٦ م أولى معاركه الفكرية - نزع طه حسين «القدسية» عن القرآن الكريم ، وتعامل معه كما يتعامل الباحث - الملتزم بالشك الديكارتى - مع «نص بشرى» ، وتجاهل قدسية القرآن ، كوحى إلهى ، بلغ «العقل المسلم» مرتبة «اليقين بصدقه» منذ أن آمن هذا العقل بوجود الإله الذى أوحى بهذا القرآن ، وبصدق الرسول الذى بلغه إلى الناس ، وبإعجازه كل الناس عن أن يأتوا بشيء من مثله . .

ولذلك ، لم يجد طه حسين تناقضا بين قوله عن « ثبوت النص القرآنى » :
« . . . ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه » . . واعتماده على القرآن فى معرفة حال العصر الجاهلى « . . لأن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلى . . »^(٢) . . لم يجد تناقضا بين هذه الأوصاف التى أضفاها على القرآن - لأنها من الأوصاف التى توصف بها النصوص غير المقدسة - وبين التشكيك فى عقائد إسلامية جاء النص عليها صراحة فى القرآن الكريم . . فرفض تصديق إخبار القرآن عما أخبر به حول :

(أ) علاقة الإسلام بملة إبراهيم ، عليه السلام ، والحنيفية والحنفاء . .
وهى علاقة تحدثت عنها آيات محكمة فى القرآن الكريم . .

(٢) [فى الشعر الجاهلى] ، ص ١٦ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٢٦ م .

(ب) وقصة بناء الكعبة ورفع قواعدها بواسطة إبراهيم وإسماعيل ،
عليهما السلام . . وهى ثابتة فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم . .

(ج) وأخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم ، عليه السلام . . وما لها من
علاقة بنسب الرسول ، ﷺ . . (٣).

لقد نزع طه حسين القدسية عن القرآن الكريم ، وتعامل معه — بالشك
الديكارتى — كما يتعامل الديكارتيون مع النصوص البشرية ، غير
المقدسة . . وهذا معلم من معالم تعامل فلسفة التنوير الغربى مع الكتب
«المقدسة» . .

ولا يحسبن أحد أن القول بتكذيب طه حسين للقرآن فى هذه المواطن هو
دعوى خصومه ، التى اتهموه بها ، والتى « برأته » منها النيابة العامة عندما
حفظت أوراق هذا الاتهام فى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٧ م .

فطه حسين نفسه ، عندما عاد فى سنة ١٩٤٧ م ليتحدث عن كتابه [فى
الشعر الجاهلى] ، هو الذى يعترف بأنه « شكك فى بعض المعتقدات »
الإسلامية الواردة فى القرآن ، وإن كان يقول إنها — هذه المعتقدات — « لات
مس الدين » . . فهو قد شكك فى « معتقدات ذكرت بالقرآن » . . هذا هو
اعترافه الذى يقول فيه ، وهو يتحدث عن هذا الكتاب : « . . لقد انتهيت
إلى رفض قدر كبير من هذا الشعر الجاهلى . . وفى إطار ذلك المسعى
شككت فى بعض المعتقدات التى لا تمس الدين ، وإن كانت قد ذكرت فى
القرآن أو فى الأحاديث النبوية ، وكانت الصدمة قاسية والاستنكار واسع
النطاق . . » (٤) !!

(٣) انظر المصدر السابق . ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) د . طه حسين [من الشاطئ الآخر . طه حسين فى جديده الذى لم ينشر سابقا] — وهى
نصوص ظلت غير مترجمة عن الفرنسية — إلى أن جمعها وترجمها عبد الرشيد الصادق محمودى .
وطبعها فى هذا الكتاب . انظر ص ٦٣ ، طبعة بيروت ، سنة ١٩٩٠ م .

ورئيس النيابة - محمد نور - الذى حقق مع طه حسين فى هذا الاتهام ، لم « يبرى » طه حسين من التهمة - كما يحسب أو يزعم البعض - . . وإنما سجل على طه حسين « التورط » و« الضلال » و« العبارات الماسية بالدين » . . وأرجع ذلك إلى « شدة تأثر » طه حسين « بالعلماء الغربيين » ، الذين « حذا حذوهم » - كما قال رئيس النيابة - فى هذا اللون من البحث فى المقدسات . .

لكن رئيس النيابة حفظ القضية ، ولم يحلها إلى المحاكمة ، لأن المتهم كان حسن النية ، « فالقصد الجنائى غير متوافر » ، لأن الباحث قد أورد « العبارات الماسية بالدين » فى ثنايا « البحث العلمى » ، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها . . حتى تَحْيَلَ حقاً ما ليس بحق » ! ! . .

ونص العبارة التى ختم بها رئيس النيابة التحقيق مع طه حسين ، والذى يعلل حفظ الأوراق ، يتحدث عن الباحث الذى حذا فى بحثه « حذو العلماء من الغربيين . ولكن لشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم قد تورط فى بحثه حتى تحيل حقاً ما ليس بحق ، أو ما زال فى حاجة إلى إثبات أنه حق ، فكان يجب عليه أن يسير على مهل ، وأن يحتاط فى سيره حتى لا يضل ، ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة .

وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين ، بل إن العبارات الماسية بالدين ، التى أوردتها فى بعض المواضع من كتابه ، إنما أوردتها فى سبيل البحث العلمى ، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها . وحيث إنه ، من ذلك ، يكون القصد الجنائى غير متوافر ، فلذلك تحفظ الأوراق إدارياً .

فنحن هنا أمام إدانة « للمؤلف » - بفتح اللام - الذى تضمن « الطعن والتعدي على الدين » - مع تبرئة « المؤلف » - بكسر اللام - « لعدم توافر القصد

الجنائي» لديه فيما قام به من «الطعن والتعدى على الدين»^(٥) ! . .
فـ«الجنائية» ثابتة ، لكن «قصدها» لم يقم عليه الدليل ! . .

● أما العمل الفكرى الثانى للدكتور طه حسين . . والذى تبنى فيه أغلب
مقولات «التنوير - الغربى - العلمانى» . . فهو كتابه [مستقبل الثقافة فى
مصر] ، الذى كتبه سنة ١٩٣٦ م . . ونشره سنة ١٩٣٨ م . .

ففى هذا الكتاب :

(أ) ينظر طه حسين إلى الإسلام نظرة التنويريين الغربيين العلمانيين إلى
النصرانية ، باعتبارها مجرد رسالة روحية ، لا علاقة لها بسياسة المجتمع وتدبير
العمران . . فيقول : «إن السياسة شىء والدين شىء آخر . . وإن وحدة
الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين
الدول . . »^(٦) !

(ب) ثم يمضى ممعنا على طريق المماثلة بيننا وبين الغرب الحضارى ،
حتى يبرر استدعاء مقولات «التنوير - الغربى - العلمانى» لتكون سبيلا
لإخراجنا من تخلفنا الحضارى كما كانت السبيل لإخراج أوربا من عصورها
المظلمة . . يمضى ممعنا على هذا الطريق ، فيردد ، فى الثلاثينيات ما قال به
سلامة موسى فى العشرينيات ، من أننا ، فى الثقافة والفكر والعقل
والحضارة ، «فرنجة» . . فمقوماتنا الحضارية هى نفس مقومات الحضارة
الغربية - حضارة الإغريق والرومان - من أدب وفلسفة وفن وسياسة وفقه .
فالعقل الشرقى هو عقل يونانى منذ القدم . . وحتى بعد أن جاء الإسلام
والقرآن ، ظل العقل الشرقى يونانى رومانى أوربى ، لأن القرآن مجرد مصدق
للإنجيل ، الذى لم يغير يونانية العقل الأوربى ، فلا مجال لحديث عن تغيير
القرآن ليونانية عقلنا الشرقى !!

(٥) د. جابر عصفور: [التنوير يواجه الإلزام] ص ١٣ ، ١٤ .

(٦) [مستقبل الثقافة فى مصر] . ج ١ ، ص ١٧ ، ١٦ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٨ م .

لقد ادعى طه حسين هذه الدعوى ، التى تمثل جماع أخطر الدعوات
التغريبية للتنوير بمعناه الغربى . . فتحدث عن أن العقل الشرقى هو ،
كالعقل الأوروبى ، مرده ، فى التكوين والمقومات ، إلى عناصر ثلاثة :

« - حضارة اليونان ، وما فيها من أدب وفلسفة وفن . .

- وحضارة الرومان ، وما فيها من سياسة وفقه . .

- والمسيحية ، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان . . » (٧)

على هذه المكونات والمقومات - فى رأى طه حسين - قامت وحدة العقل
الشرقى بالعقل الأوروبى فيما قبل الإسلام . . وهى الوحدة التى قال إنها
استمرت كما هى حتى بعد ظهور الإسلام وتدين الشرق العربى به . . إذ -
برأيه - كما لم يغير الإنجيل ، عندما تدين به أوربا ، من الطابع اليونانى
للعقل الأوروبى ، فكذلك القرآن - الذى تدين به الشرق - لم يغير من الطابع
اليونانى للعقل الشرقى ، لأن « القرآن » ليس أكثر من « دعوة للخير وحث
على الإحسان » - كما هو حال المسيحية - وهو « إنما جاء متمما ومصدقا لما فى
الإنجيل » (٨) !

فهنا يبرز موقف « التنويريين الغربيين » فى التعامل مع النصرانية
الغربية . . مجرد « دعوة إلى الخير وحث على الإحسان » لا بأس بها فى
« خصوصيات الفرد » ، بينما تظل شئون الاجتماع وميادين العمران
للكلاسيكيات اليونانية - « من أدب وفلسفة وفن » - وللكلاسيكيات
الرومانية - « من سياسة وفقه » - . . وطه حسين يستدعى هذا الموقف
« التنويرى الغربى » من النصرانية ، ليحتذيه فى الموقف من الإسلام . وليتسق
له ذلك ، رأيناه مجرد الإسلام من شمول منهجيه لشئون الدنيا وميادين

(٧) المرجع السابق . ج ١ ، ص ٢٩ . (٨) المرجع السابق . ج ١ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

العمران، فيجعل قرآنه، كالإنجيل، بلا « شريعة » تدبر أمر الدنيا والعمران!! . . .

وبعد هذا الاستدعاء لفلسفة «التنوير - الغربى - العلمانى» إزاء الدين . . . ومحاولة قسر الإسلام كى يذعن لهذه الفلسفة . . . يخلص طه حسين إلى دعوى التماثل بين مستقبلنا الحضارى - فى المقاصد والآليات - وبين النموذج الحضارى الغربى، بعد أن أوهمنا بتماثل - بل وحدة - عقلنا والعقل الأوروبى وحضارتنا والحضارة الأوربية، قبل الإسلام وبعد الإسلام . . . يخلص إلى هذه النتيجة فيقول: «لقد كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا، فى كل مايتصل بالحياة العقلية والثقافية، على اختلاف فروعها وألوانها . . .»^(٩)!

وهو يعود فى عقد الأربعينيات إلى ترديد هذه الدعوى . . . فيقول: «إن الحضارة العربية والحضارة الفرنسية تقومان على أساس واحد، هو فى نهاية الأمر الحضارة اليونانية اللاتينية، وهو فى نهاية الأمر الحضارة الكلاسيكية . . .»^(١٠)!

ثم يدعو إلى أن يقبل الإسلام، فى النهضة الإسلامية المنشودة، الحضارة الأوربية كما قبل المسلمون الأوائل الحضارة اليونانية!! . . . فيقول: «إن الإسلام تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الأوربية»^(١١)؟!

ثم ينتهى إلى نتائج المنهاج الذى ينظر «للذات الحضارية» بعيون مناهج «الآخر الحضارى»، فيعلن: «إن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها

(٩) المرجع السابق. ج ١، ص ٢٦.

(١٠) [من الشاطئ الآخر]، ص ١٩١، ١٩٢ - وتاريخ النص الفرنسى سنة ١٩٤٦ م.

(١١) المرجع السابق. ص ٦٠ - وتاريخ النص الفرنسى سنة ١٩٤٧ م - . . . ولما كان المقام هو مقام إيراد المقولات التنويرية الغربية . . . وليس مقام تنفيذها . . . فنحن نحيل، فى تنفيذ هذه المقولات، على كتابنا [الغزو الفكرى . . . وهم أم حقيقة؟]. طبعة القاهرة - دار الشروق، سنة ١٩٨٩ م.

عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهى: أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحِبُّ منها وما يُكره، ما يُحمد منها وما يُعاب . . » (١٢) !

فنحن مدعوون برأيه - إلى أن نكون « غربا » لا شرقا . . . وبالتعبير « العارى » لسلامة موسى : أن نكون « فرنجة . . متفرنجين » !! . .

● وعلى هذا الدرب . . درب استدعاء مقولات « التنوير - الغربى - العلمانى » إزاء الدين إلى واقعنا الإسلامى . . يقف طه حسين من علاقة الإسلام بالعلم ذات الموقف الذى وقفه فلاسفة التنوير الغربى من علاقة النصرانية بالعلم . .

لقد رأينا ثنائية التناقض بين النصرانية الغربية وبين العلم، تلك التى نبعت من دعوى اللاهوت الكنسى احتكار الكتب المقدسة لكل ألوان العلوم . . وكيف أثمر هذا الموقف الكنسى رد الفعل « التنوير - العلمانى » الذى عزل السماء والدين عن أن تكون لهما أية علاقة - ولو فى إطار ضوابط فلسفة التطبيقات العلمية - بأى علم من العلوم . .

ومن الغريب أن يرى طه حسين تماثلا فى العلاقة بين الإسلام والنصرانية الغربية إزاء العلم والعلماء . . من الغريب - بل ومن الشذوذ - أن يرى الرجل ذلك، وألا يدرك تميز الإسلام وحضارته عن النصرانية والتطور الأوروبى فى هذا الميدان . . فكل الدراسات - شرقية وغربية - تتحدث عن تألق وازدهار « العلم » و« العقل » و« الفلسفة » عندما كانت الحاكمة للإسلام والمشروعية لشريعته فى الدولة والمجتمع . . وعن تراجعها - العلم . . والعقل . .

(١٢) [مستقبل الثقافة فى مصر]، ج ١، ص ٤٥ .

والفلسفة - مع تراجع الاحتكام إلى الدين . . وهو ما يجعل تطورنا ، في هذا الأمر، وتطور الغرب الأوربي على طرفي نقيض . .

لكن طه حسين قد ذهب على درب استدعاء مواقف ومقولات «التنويريين - الغربيين - العلمانيين» إلى حد تبني موقفهم ، إزاء علاقة النصرانية بالعلم ، وهو يتحدث عن علاقة الإسلام بالعلم والعلماء . . وكأنه يتبنى رأى فرح أنطون [١٨٧٤ - ١٩٢٢ م] القائل بأن النصرانية - وهذا أعجب العجب ، لأنها دين لا دولة - أكثر تسامحا مع العلم والعلماء من الإسلام . . وهو الرأى الذى نقضه من أساسه ، وأثبت عكسه الإمام محمد عبده ، فى المحاورات الخصبة التى دارت بينهما سنة ١٩٠٣ م . . فى مجلتى [الجامعة] و[المنازل] (١٣) . .

بل لقد وجدنا فى الكتابات الفرنسية لطله حسين - والتى ترجمت بعد وفاته - نقدا لمنهاج الإمام محمد عبده فى الجمع بين الدين الإسلامى والعلم . . وحكما على جهود مدرسته التجديدية فى هذا الميدان - ميدان التوفيق بين العلم والدين - بأنها « أفكار بالية » ، و« مذهب غير صالح للبقاء » ، و« آراء متخلفة » . . وهى كتابات تجعل وضع تلاميذ طه حسين لأستاذهم فى زمرة الأفغانى ومحمد عبده « تزويرا » لا علاقة له بالمعنى المحترم لمصطلح «التنوير» . . !!

يقول طه حسين ، فى نص كتبه بالفرنسية سنة ١٩٣٤ م : « لا شك أن الشيخ محمد عبده قد هز العالم الإسلامى بأسره ، وأيقظ العقل الشرقى ، وعلم الشرقيين أن يحبوا حرية الفكر . ولا ريب أيضا فى أنه أتاح لكثير من المسلمين أن يتطلعوا بأمل راسخ إلى يوم يتحقق فيه التوفيق بين العلم

(١٣) انظر هذه المحاورات فى كتاب فرح أنطون : [ابن رشد وفلسفته] ، طبعة الإسكندرية ، سنة ١٩٠٣ م . وانظر الجزء الثالث من : [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ، ص ٢٤١ - ٣٥٠ ، ص ٤٩٦ - ٥١٠ .

والدين، بين التقاليد الشرقية والحضارة الغربية . . . ولكن العالم الإسلامى أصابه التغير منذ ذلك العهد . . . ولم يعد محمد عبده مواكبا للعصر . . . لقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية . فهى ليست بالأفكار التى مضى عليها زمن طويل ، ولكنها لم تعد تتواءم مع انطلاق الشرقيين إلى الحرية الكبرى . وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصلوها ، وهم يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية ، ويتخذونها مثلاً أعلى . . . يضاف إلى ذلك أن مذهب محمد عبده ، فى حد ذاته ، لم يكن صالحاً للبقاء ، فقد كان يعتمد على تفسير النصوص للتوفيق بين عبارات القرآن ذاتها وحقائق العلم كما نعرفها اليوم . . .» (١٤)!

وفى نص فرنسى آخر- كتبه طه حسين سنة ١٩٤٧م - يحكم على مشروع محمد عبده ومدرسته بالتخلف ، فيقول : « لقد صار المتمسكون بأراء محمد عبده وقاسم أمين يعدون محافظين ، بل ويدرجون أحيانا بين المتخلفين . . .» (١٥)!!

لقد اندفع طه حسين على درب التبني لموقف « التنوير الغربى » من علاقة « الدين بالعلم » ، فاستدعاه إلى غير ميدانه ، زاعماً تماثل موقف الإسلام من العلم مع موقف النصرانية منه . . . وغره فى اندفاعه هذا الوهم الذى حسبه حقيقة ثابتة . . . فلقد تحدث عن « اندفاع المسلمين بابتهاج نحو الحضارة الغربية ، يتخذونها مثلاً أعلى »!

وأسهم فى هذا التقييم الخاطئ لمذهب محمد عبده فى علاقة الإسلام بالعلم ما حسبه موقفاً للأستاذ الإمام « يوفق بين عبارات القرآن ذاتها وحقائق العلم كما نعرفها اليوم »!! . . . ولم يكن هذا هو موقف الإمام من علاقة العلم بالدين . . . فالرجل كان رافضاً للتعامل مع القرآن بحسبانه « كتاب علوم » ،

(١٤) [من الشاطئ الآخر] . ص ٣٦ ، ٣٧ . (١٥) المرجع السابق . ص ٦٢ .

وداعيا إلى النظر إليه «ككتاب هداية دينية» يفتح أمام العقل والتجربة أبواب العلم ويحث الإنسان على الضرب في أرض العلم، مع الاطمئنان إلى انتفاء واستحالة التناقض - أى تناقض - بين «حقائق العلم» و«ثوابت الدين» . . . ذلك هو مذهب الإمام ، الذى يقول فى تحديده: «إنه لو كان من وظيفة النبى أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم أن يتلقى كل فرد من أفراد كل شىء بالتسليم . . . إن الأنبياء ينبهون الناس، بالإجمال، إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد فى العبرة . . . إن حقيقة البرق والرعد والصاعقة وأسباب حدوثها ليست من مباحث القرآن، لأنها من علم الطبيعة (الخلقة)، وحوادث الجو التى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم، ولا تتوقف على الوحي . وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين . . . يذكر القرآن إجمالا من آثار الله فى الأكوان تحريكا للعبرة، وتذكيرا بالنعمة، وحفزا للفكرة، لا تقريراً لقواعد الطبيعة، ولا إلزاماً باعتقاد خاص فى الخلقة . . .» (١٦).

هذا هو مذهب الإمام محمد عبده فى علاقة الإسلام والقرآن بالعلم . . . وشتان بينه وبين مذهب اللاهوتيين - الذى سبقت إشارتنا إليه - فى علاقة النصرانية بالعلم . . . الأمر الذى يتزايد معه شذوذ استدعاء موقف «التنويريين - الغربيين» فى هذا الأمر لتوظيفه فى عالم الإسلام !!! . . .

لكن طه حسين الذى ظن «المسلمين غير مهتمين بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصلوها»، وحسبهم «مندفعين بابتهاج نحو الحضارة الغربية يتخذونها مثلاً أعلى . . .» . . . قد اندفع هو الآخر وراء هذه المقولات «التنويرية

(١٦) [الأعمال الكاملة] . ج ٤ ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٩٤ ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

- الغربية» ، موظفا إياها في غير وظيفتها . . وزارعا لبذورها في غير تربتها . . ولو امتد العمر بالرجل عقدا آخر من السنين ، لرأى جماهير المسلمين مندفعين بابتهاج لتلمس معالم مشروعاتهم الحضارى المتميز ، والذي هو مثلهم الأعلى الحقيقى . . وليس نموذج الغرب ، ولا «تنوير الغربيين» ! . .

لكن الرجل ، قد ذهب هذا المذهب الخاطئ : مجتهدا يبحث لأُمته عن سبل النهوض . . ولم يكن سيئ النية بحال من الأحوال ، كما أنه لم يكن «عميلا حضاريا» . . . والدليل المادى على هذه الحقيقة هو عودته عن بعض آرائه هذه ، وخاصة في حقبة ارتباطه بالمشروع الوطنى والقومى ، منذ عقد الخمسينيات . . فالمواجهة التى قامت وتصاعدت واحتدمت بين المشروع الوطنى والقومى وبين الغرب ، قد كان لها - فى تقديرنا - الدور الأكبر فى التراجعات الجزئية ، التى أشار إليها طه حسين ، حول بعض آرائه السابقة . .

لقد بدأ يائسا من الصورة الإسلامية . . لكنه لم يميز ، كما ميز محمد عبده ، بين اليأس من «إصلاح المؤسسات الإسلامية» - وهو وارد - وبين اليأس من «الإصلاح الإسلامى» . . . والذي هو قنوط لا يليق بالمالكين الحقيقين لحقيقة الإيمان بالإسلام ! . . فلما ارتبط بالمشروع الوطنى والقومى ، ووضع فى صفوف المواجهة العدائية مع الغرب ، لم يعد الغرب - كما كان - «المثل الأعلى الذى يندفع إليه بابتهاج» ! . . وهذا دليل صادق على أن سعيه ، فى الأولى وفى الثانية ، كان سعى «المجتهدين» ، الذين يصيبون ويخطئون . . وليس سعى أصحاب النوايا السيئة ، من العملاء الحضاريين ! . .

ولنا على هذه التراجعات «الجزئية» ، التى سمحت « بالإشارة » إليها «الكبرياء المتضخمة !» للرجل ، شواهد منها :

● لقد حذف طه حسين من كتابه [فى الشعر الجاهلى] السطور التى شكك بها فى المعتقدات الإسلامية الواردة فى القرآن الكريم . . وهى التى أحدثت - وفق عبارته هو - « صدمة قاسية ، واستنكارا واسع النطاق » - حذفها فى الطبعة والصورة الجديدة لهذا الكتاب ، الذى أصبح عنوانه : [فى الأدب الجاهلى] . .

● أما كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] - وهو الذى مثل أكثر كتب تلك المرحلة من حياته الفكرية تجسيدا للانبهار بالنموذج « التنويرى - الغربى - العلمانى » - فيكفى أن نعلم أن الرجل ، وهو الذى توفى سنة ١٩٧٣ م ، قد ظل محجبا عن إعادة طبع هذا الكتاب الذى صدر سنة ١٩٣٨ م ، أى على امتداد أكثر من خمس وثلاثين عاما . . وكان موقفه من هذا الكتاب استثناء ، ذا دلالة ، من سائر كتبه الأخرى . .

بل لقد سئل عن رأيه فى فكره الذى جاء بهذا الكتاب - فى مارس سنة ١٩٧١ م - فكانت إجابته قاطعة فى الدلالة على أنه قد غير آراءه ، المثيرة للجدل ، والتى وردت بهذا الكتاب . . لقد قال عنه : « ده كُتِب سنة ١٩٣٦ م . . قُدم قوى ، عاوز يتجدد . ويجب أعود إليه ، وأصلح فيه بعض حاجات ، وأضيف . . » (١٧) .

وفى هذا أقصى وأصرح اعتذار وتراجع يمكن أن يصدر من مثل طه حسين ! ! ! . .

● وفى علمانية الدولة والسياسة ، وهو الموقف « التنويرى - الغربى » الذى تبناه طه حسين فى سنة ١٩٢٥ م . . من خلال دفاعه عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] . . وفى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] الذى قال فيه : « إن

(١٧) صحيفة [الأهرام] ، فى ١ مارس ، سنة ١٩٧١ م .

السياسة شيء والدين شيء آخر» . . و«إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول . . .» (١٨) . .

في هذا الموقف ، حدث تراجع هام لطله حسين ، في حقبة ارتباطه الوثيق بالمشروع الوطني والقومي ، التي تصاعد فيها التناقض بين الأمة والغرب حول الاستقلال الوطني والوحدة القومية . .

ففى سنة ١٩٥٣ م - وعقب ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م - اختير طه حسين عضوا بلجنة وضع الدستور المصرى الجديد - الذى كان مخططا له أن يحل محل دستور سنة ١٩٢٣ م - . . وفى مداولات هذه اللجنة قال طه حسين كلاما يدعو إلى الالتزام فى الدستور بكل الإسلام ، وإلى إلزام المشرع للقوانين بألا يخرج قانون من القوانين عن أحكام القرآن الكريم . . ونص عباراته يقول : « إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج ، عند وضع الدستور ، على ما أمر به الإسلام . . ولكن ، لا بد لنا من أن نحتاط ، فتقول : إنه ليس هناك أى مقتضى يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن . . أريد أن أقول : إنه إذا وجد نص دينى صريح . . فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص ، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم ، ولا فى ضمائرهم ، ولا فى دينهم . . وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلا . . ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب ، وكفرا ببعضه الآخر . . » (١٩) .

هكذا قطع طه حسين بضرورة التزام كل القوانين بكل نصوص القرآن ، ودعا إلى النص على ذلك فى الدستور ، احتياطا ، ولا يكتفى بالاطمئنان إلى أن

(١٨) [مستقبل الثقافة فى مصر] . ج ١ ، ص ١٧ ، ١٦ .

(١٩) [لجنة مشروع الدستور] - محضر لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة - الجلسة السابعة - ص ٨١ ، ١٢١ . طبعة وزارة الإرشاد القومى - القاهرة - بدون تاريخ .

المشرع لن يخرج عن الإسلام، دين الأغلبية . . وهو هنا يضع الإسلام محورا للمقومات التى تصون وحدة الأمة وهويتها، والتى ينص عليها الدستور . . وفى ذلك فكر مغاير، بل ومناقض لموقف «التنوير - الغربى - العلمانى»، من علاقة الدين بالسياسية والدولة، ذلك الذى سبق له وتبناه . .

وإذا كان هذا هو منحنى فكره فى علاقة الدين بالدولة والسياسة . . فإن ارتباطه بالمشروع القومى، والوحدة العربية، بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢م قد شهد العديد من الأدلة على منحنى فكرى جديد حول علاقة اللغة العربية بالوحدة العربية، كمقوم من مقومات هذه الوحدة . . وإسهامات طه حسين الثقافية والفكرية فى هذا الميدان تستحق دراسة متخصصة وقائمة بذاتها . .

هكذا عدّل الدكتور طه حسين من بعض اجتهاداته، التى تبنت فى المرحلة الأولى من انبهاره « بالتنوير - الغربى - العلمانى » مقولات « تنويرية - غربية »: تشكك فى المقدسات، بعد أن نزعته عنها قدسيّتها . . وتدعو إلى الالتحاق بالنموذج الحضارى الغربى، والاندماج فيه . . وتفصل الدين عن السياسة والدولة ومقومات العمران البشرى . . فأقام بهذا التطور الجزئى فى مقولات مشروعه الفكرى البرهان على أنه إنما كان «مجتهدا»، أخطأ فى هذا «الاجتهاد» أم أصاب . . فلم يكن «عميلا حضاريا» . . فحتى عندما مثلت مقولاته « التنويرية - الغربية - العلمانية » «جناية» على « الهوية الإسلامية » للأمة، وعلى خصوصية ثقافتها ومشروعها النهضوى . . فإن «القصد الجنائى» لم يكن متوافرا عند الدكتور طه حسين!! . .

الجبر والاختيار فى تبني النموذج الغربى :

وعند هذا الحد من الدراسة . . والنماذج التى تبنت الخيار الغربى فى التقدم والنهوض . . ومع الاعتراف - الذى ينصف من نختلف معهم - بأن هذا التبنى إنما كان فى أحيان كثيرة لونا من « الاجتهاد » فى البحث عن سبل لإنهاض الأمة وتقدمها . .

عند هذا الحد من الدراسة ، يبرز السؤال عن دور الغرب ذاته فى الترويج لنموذجه الحضارى على النطاق العالمى ، وخاصة فى مجتمعات الأمم والحضارات التى قهرها باستعمارها الحديث ، على امتداد نحو قرنين من الزمان !! . . وهل مارست حكوماته الاستعمارية ومؤسساته الثقافية والفكرية والسياسية والدينية والخيرية ألوانا من الإكراه أو الإغراء فى ترويج نموذجه الحضارى؟ والعمل على إحلاله محل الموارىث الحضارية للأمم التى خضعت لاستعمارها؟ . . وذلك حتى تتحدد المسئوليات عن «التغريب» بدقة تخلو من غلو الإفراط والتفريط . . !

● إننا لا ننكر أن صورة الحياة الفكرية ، فى العقود الأخيرة من حياة الدولة العثمانية ، قد مثلت عاملا من عوامل تبرير الانقلاب العلمانى والتغريبى الحاد الذى مثله أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧ هـ ، ١٨٨١ - ١٩٣٨ م] ، والذى سلخ به تركيا عن تراثها ومحيطها وهويتها الإسلامية . . وسواء أدخلنا هذا العامل فى « الأسباب » أو فى « الذرائع » ، فإن إغفاله ليس من الموضوعية فى شىء . . !

لكن ، هل يستطيع منصف أن ينكر تاريخ الغرب فى دفع الدولة العثمانية إلى هذا المصير . . مصير «الرجل المريض»؟! . . وحتى الأمراض الذاتية العثمانية ، هل ينكر منصف أن الغرب قد «حرسها» ، وحال دون البرء منها ،

انتظارا للحظة «القتل» وتوزيع «الأسلاب»؟! لا أظن منصفاً - حتى من الذين تقف مصادرهم عند الكتابات الغربية وحدها - ينكر دور الغرب في دفع تركيا إلى هذا المنحدر التغريبي الذي مثله وأنجزه الكماليون! . .

ثم هل يستطيع منصف ، الآن ، ألا يبصر العلاقة بين مؤتمر «لوزان» [١٣٤١هـ - ١٩٢٣م] - الذي ضم الحلفاء الغربيين في الحرب الاستعمارية العالمية الأولى واليونان وتركيا ، وما فرض فيه على تركيا من شروط مكتوبة أو غير مكتوبة لقاء إلغاء معاهدة « سيفر » [١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م] . . هل يستطيع منصف ألا يبصر العلاقة بين «تسوية لوزان» وبين إلغاء أتاتورك للخلافة [١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م] والاندفاع في تبني النموذج الغربي . . من الحرف اللاتيني . . إلى الأذان بالتركية . . إلى القبعة . . إلى قوانين الأحوال الشخصية السويسرية . . حتى لقد كادت «الوضعية - الغربية» و«التنوير - العلماني» أن يكونا الدين الجديد للدولة التركية ، بدلا من الإسلام؟! . .

هل يستطيع منصف إنكار دور الغرب في «فرض» هذا الخيار . . إن بالترغيب أو التهيب؟! . .

● وهل نستطيع أن نغفل دلالة الكتابات الغربية المعاصرة ، التي تخير العالم الإسلامي وأمته بين «قبول» النموذج الغربي في التقدم والنهضة والتحديث ، وبين أن يوضع في موقع «العدو . . والخطر الأخضر» ، الذي توجه إليه آليات الصراع الغربي ، تلك التي كانت موجهة إلى «الخطر - الشيوعي - الأحمر» قبل سقوط المنظومة الماركسية وأحزابها ونظمها؟! . .

إن رئيس المجلس الوزاري الأوربي - أي ممثل الغرب الأوربي - «جيانى ديميكليس» ، في سنة ١٩٩٠م ، عندما يسأله مراسل «النيوزويك» الأمريكية :

- «ما مبررات بقاء حلف الأطلسي - الناتو - بعد زوال المواجهة بين

الغرب الليبرالى والمعسكر الذى كان اشتراكيا ؟ . . . يجب :

- «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة . إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربى والعالم الإسلامى »
- فلما عاد مراسل « النيوزيك » ليسأل : «وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة ؟»

- لم يتردد رئيس المجلس الوزارى الأوروبى فى أن يعلن أن الشرط هو تعميم النموذج الحضارى الغربى ، و«قبول» المسلمين له . . . وإلا كانت «المواجهة» فى منتهى الخطورة» مع العالم الإسلامى . . . فيقول : «ينبغى أن تحل أوربا مشاكلها ، ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين فى مختلف أنحاء العالم . وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى ، فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى الخطورة!!»^(١).

هل يستطيع منصف إغفال دور هذا التهديد الرسمى - وأمثاله - فى فرض النموذج الغربى ، على المسلمين ، وغيرهم من حضارات وأمم «الجنوب» ؟ . .
والرئيس الأمريكى الأسبق « ريتشارد نيكسون » - فى كتابه الأخير «الفرصة السانحة» Seize The Moment يتناول هذا المعنى فى صراحة ووضوح . .

فهو يقسم تيارات الفكر فى العالم الإسلامى إلى :
(أ) تيار التقدم - العلمانى ، المنحاز إلى الغرب - ونموذجه «تركيا فى انحيازها نحو الغرب والتحضر . . وسعيها إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر - (الغرب) - من الناحيتين السياسية والاقتصادية» .

(١) نقلا عن [الأهرام] - مقال الأستاذ فهمى هويدى : « من يعادى من ؟ » ، فى ١٧ يوليو، سنة ١٩٩٠ م.

(ب) وتيار الرجعية «الديكتاتورية، صاحبة الأيديولوجية المتعصبة» ،
التي تحلم بوهم الوحدة القومية !!

(ج) والأصولية الإسلامية « التي تنظر إلى الماضي لتتخذ منه هداية
للمستقبل . . والتي تريد استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة . . وتطبيق
الشريعة الإسلامية . . وتنادى بأن الإسلام دين ودولة . . »

وبعد هذا التقسيم والتوصيف لتيارات الفكر في العالم الإسلامى ، يدعو
«نيكسون» أمريكا والغرب إلى دعم التيار « العلمانى » فى مواجهته
«لأيديولوجية الأصوليين وانغلاق الرجعيين» . . قائلا إن فى هذا الدعم
للعلمانيين « مصلحتهم ومصلحتنا » !! . . ثم يقول بالحرف الواحد : « وسوف
تلعب السياسة الأمريكية والغربية مع المسلمين دورا رئيسيا فى تحديد الخيار
الذى تختاره الشعوب المسلمة » (٢) ! ! . .

فالحديث عن أن أمريكا والغرب سينهضان بالدور الرئيس فى «تحديد
الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة» ! . . فماذا سيبقى ، حالئذ ، للشعوب
المسلمة من حقيقة «الخيار والاختيار» ؟ ! . .

● والمفكر الفرنسى « جاك بيرك » - وهو الذى يصنف بين أصدقاء العرب
والمسلمين - نراه ، فى أحدث ماكتب عن حضارات البحر المتوسط ، يدعو
العرب إلى «قبول» الانتماء إلى حضارة البحر المتوسط ، ففى هذا القبول إزالة
للتناقض بينهم وبين «التفرنج» . . أى أن هذا الانتماء للحضارة المتوسطية ،
هو انتماء «للتفرنج» ، أى التحاق وإلحاق بالنموذج الغربى . . وبذلك
يشعرون - بهذا «القبول» - أن «التفرنج طبيعى» ، وليس مفروضا عليهم . .

(٢) [الفرصة السانحة] . ص ٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ . ترجمة أحمد صدقى مراد . طبعة القاهرة - دار
الهلal - سنة ١٩٩٢ م .

فيقول نص عبارته : «إذا قبل العرب الدعوة المتوسطة ، يتخلصون تماما من تناقضهم مع «التفرنج» ، ذلك أنه يصبح سمة «طبيعية» ، لا مفروضة عليهم»!!^(٣) . . فتفرنج العرب قرار غربى . . وصديقهم يجتهد لإيجاد السبيل الذى يصبح فيه هذا «التفرنج طبيعيا» ، عندما «يقبلونه» ، وذلك بدلا من «فرضه عليهم» ، الأمر الذى يشعرهم «بالتناقض معه» . .!! . .

● وفى إطار البحث عن مساحات «الجبر» و«الاختيار» المتاحة أمام «الإرادتين العربية والإسلامية» ، إزاء النموذج الغربى فى التحديث والنهوض . . وعلى غرار ما أحدثت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ م فى إسقاط الخلافة وإلغائها سنة ١٩٢٤ م . . يحق للمرء أن يتساءل عن الجهود الجادة التى بذلتها الدولة المصرية فى سبعينيات هذا القرن العشرين لتقنين الشريعة الإسلامية ، والنص فى المادة الثانية من دستورها على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للقوانين ، وهى جهود استغرقت من مؤسسات الفكر والتشريع نحو من خمس سنوات . . وتجسدت فى عديد من مشروعات القوانين . . يحق للمرء أن يتساءل عن سر طى صفحة هذا التوجه وتلك الجهود ، دونما أسباب معلنة!! . . وهل كان لمعاهدة «كامب ديفيد» - سنة ١٩٧٩ م - وتقنين وتكريس الارتباط بالغرب علاقة بطى صفحة هذا التوجه لتقنين الشريعة وتطبيقها؟! . . ووضع مشروعات قوانينها فى «الأدراج»؟! . .

هل كان للقرار الغربى - مكتوبا أو غير مكتوب - دور فى هذا التحول عن الخيار الإسلامى فى التشريع والتقنين والتقدم والنهوض؟! . .

● والأمر الذى يجعل لهذه التساؤلات «مشروعية - خاصة» ، وللإجابة عليها «أهمية كبرى» فى تحديد دور الغرب - و«جبره» لنا على تبنى نموذج

(٣) صحيفة [الحياة] ، عدد ١ أغسطس ، سنة ١٩٩٣ م .

في «التنوير - الغربي - العلماني»، ذلك «الاعتراف» الذي سجله الدكتور طه حسين في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] حول دور الغرب، المباشر - بل ومن خلال المعاهدات التي أبرمها مع مصر، كنموذج - في إلزامنا بنموذجه الغربي في نظم الحكم والحياة والتفكير والتطور والتحديث! . . .

فبعد أن افتتح كتابه بالحديث عن علاقة تأليفه له بتوقيع مصر على معاهدة سنة ١٩٣٦ م، وهي معاهدة الاستقلال المنقوص والمشرط، وعلى معاهدة سنة ١٩٣٨ م الخاصة بالامتيازات الأجنبية في مصر - معاهدتي «لندن» و«منثرو» - رأيانه يعلن، بعبارات صريحة، أن تبني النموذج الغربي هو التزام بالمعاهدات التي أبرمناها، إلى جانب أنه موقف الذين أبرموا هذه المعاهدات من أبناء أمتنا. . فدور الغرب في «الإلزام» ودورنا في «الالتزام» حقيقتان يعترف بهما الدكتور طه حسين عندما يقول: «لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع. التزمنا هذا كله أمام أوروبا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟

فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا، وأن نحیی النظم العتيقة، لما وجدنا إلى ذلك سييلا، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تُجتاز ولا تُدلل، عقابا نقيمها نحن لأننا حرص على التقدم والرقى، وعقابا نقيمها أوروبا لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجارها في طريق الحضارة الحديثة»^(٤) . . .

فنحن أمام «اعتراف» واضح وحاسم وصريح، على أن هناك، في المعاهدات التي أبرمها الغرب مع حكوماتنا - «التزاما» بأن «نذهب مذهبها في الحكم - والإدارة. . . والتشريع. . . وأننا عاهدنا أوروبا على أن

(٤) [مستقبل الثقافة في مصر]. ج ١، ص ٣٦، ٣٧.

نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة!! . . فهل بعد ذلك شك في دور الغرب في «إملاء» نموذجه على أمم وشعوب البلاد التي نكبت باستعمارهم؟ . . وفي أن قبول هذا النموذج الغربى إنما كان من بين «شروط الاستقلال»؟! . .

وهل يستلقت هذا «الاعتراف» - مع غيره من الوقائع التي أشرنا إليها - نظر الذين يحسبون أن توجههم لاستلهم النموذج الغربى في «التنوير» و«التحديث» ليس مجرد «اختيار - ذاتى» اختاروه بحريتهم ، وإنما الأمر الأخطر هو أمر «القطار» الذى وضعوا فيه؟! . .

وهل فى الكشف عن أن «التغريب» هو قرار غربى . . وإلزام غربى - يصل الآن إلى «حرب» تجاوزت مرحلة «التهديد» - . . هل فى الكشف عن هذه الحقيقة ما يستحق «التأمل» و«مراجعة المواقف» ، وخاصة من قبل القطاعات الكبرى من الذين يتخذون هذا التوجه عن «اجتهاد» ، وليس «لعمالة حضارية» تشدهم إلى الغرب الاستعماري كعملاء؟! . .

إن «الحكمة : نور» . . وفى الحديث الشريف : «إن الله يحبى القلوب بنور الحكمة»^(٥) . . و«الحكمة : ضالة المؤمن ، أئى وجدها فهو أحق الناس بها»^(٦) . . ولعل فى هذه الحقائق من نور الحكمة ما يدعو الفرقاء المختلفين حول هذه القضية إلى الموقف الحق ، والكلمة السواء! . .

(٦) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٥) رواه الإمام مالك فى [الموطأ] . .

وتنوير جيل "التلاميذ" .. غربي ؟ .. أم عربي ؟ !

رأينا النشأة الغربية المتميزة لمصطلح «التنوير»، وكيف كان فلسفة تصدت، في القرن الثامن عشر، للنصرانية ولاهوتها وكنيستها، عندما تجاوزت نطاق «خلاص الروح» وحدود «مملكة السماء» .. فأجلى التنوير الدين عن الدولة وسائر ميادين العمران البشري، واكتفى في مرجعية الدولة والاجتماع والسياسة والاقتصاد ومناهج النظر الفلسفي والبحث العلمي، بل وفي القيم .. اكتفى في كل هذه الميادين بمرجعية «الواقع» و«عالم الشهادة» و«المادة»، كمصدر للمعرفة الحقة، وجعل سبيل المعرفة والإدراك المعتمدة «العقل» و«التجريب» وحدهما .. فنزع الحرمة والقداسة عن المقدسات الدينية في شئون العمران الاجتماعي، وأحل «آلهته»: «العقل» و«العلم» و«الفلسفة» محل «الله» و«الدين» و«الكنيسة» .. فقامت الدولة وميادين العمران على «العلمانية - اللادينية»، وتأسست الفلسفة وارتكز البحث العلمي على «الوضعية» - بمذاهبها المختلفة - .. وحبس الدين في المعابد ومدارس اللاهوت والعلاقات الفردية الخاصة بين من يؤمن والخالق الذي يؤمن به! ..

ثم رأينا هذا «التنوير - الغربي - العلماني»، عندما جاءنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. بل - بالأحرى - عندما ألزمتنا هذا الاستعمار - باعتراف الدكتور طه حسين - بأن نسير سير أوروبا في «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» .. رأيناه، عند جيل «رواده»، يحاول تصوير إسلامنا: نصرانية

غربية . . وخلافتنا الإسلامية : بابوية كهنوتية اغتصبت سلطان الله لتحكم في الأرض بتفويض السماء . . ليصلوا بذلك إلى تبرير استعارة « الحل الغربى » - « التنوير - العلمانى » - طالما أن « المشكلة » مماثلة لتلك التى استدعت في الغرب هذا اللون من « التنوير » . . فدعا على عبد الرزاق إلى « علمنة الإسلام » والعمران ، وإلى الاقتصار فى السياسة والحكم على مرجعية العقل والتجريب . . ودعا سلامة موسى إلى أن ننسلخ من الشرق والدين ، بل وحتى من الفرعونية ، لنكون « فرنجة » فى كل شىء ، فى العقل . . والفكر . . والثقافة . . والقيم . . وطرائق العيش . . والأزياء . . باعتبار أن عقلنا إغريقى يونانى منذ نشأته . وما الشرق والعرب والإسلام إلا كارثة وجملة معترضة ، علينا أن نقتلع جذورها من كل ميادين الفكر والحياة ، بل وعلينا أن نخجل حتى من أية علاقة بها ، فجميعها لا يعدو أن يكون « سخافة قبيحة ووقاحة شنيعة » !! . . ثم رأينا طه حسين يحذو ، فى الثلاثينيات ، حذو سلامة موسى فى العشرينيات ، بعد أن افتتح حياته الفكرية بنزع القداسة عن القرآن الكريم ، واتخاذ الشك الديكارتى سبيلا لتشكيك المسلمين بعقائدهم التى جاءت فى سور القرآن وآياته . .

رأينا ذلك ، فيما تقدم من صفحات هذه الدراسة . . ورأينا كيف تراوحت مذاهب هؤلاء « الرواد » بين « العمالة الحضارية » ، التى تجرد أصحابها من « الانتماء » إلى « مقومات الأمة ومكوناتها » ، فبدوا فى صورة « اللقطاء - الثقافيين » ، الذين يحاولون عزل الوطن بل وعزل الأمة عن « تراثها » و« جذورها » ، وأيضاً عن « محيطها » - عزلها عن لغتها وعقيدتها . . وعن الجامعة العربية والشرقية والإسلامية ، وذلك حتى تبدو الأمة ، هى الأخرى ، فى صورة « اللقيط » ، فيلتقطها الغرب ، ويلحقها بنموذجه الحضارى إلحاق « اللقطاء » بملاجئ « الأيتام » !! . .

رأينا كيف تراوحت مذاهب « رواد التنوير الغربى » بين هذا المذهب -

مذهب «العمالة الفكرية» - وبين مذهب «الاجتهاد» الذى أخطأ أصحابه طريق الحق والصواب . . فعاد منهم من انبهر بالنموذج الغربى ، فى مرحلة نضجه عن هذا الانبهار، مع تفاوت فى درجات العودة إلى الذات ، وتفاوت فى الإفصاح عن هذا التغيير! . . .

والآن . . وبينما تفرع أسماعنا صيحات « التنوير » الذى «يواجه» به «جيل التلاميذ» - تلاميذ هؤلاء « الرواد » - المشروع الإسلامى ، محاولين التصدى « بالتنوير - العلمانى » لمشروع إسلامية الدولة والمجتمع والثقافة والنهضة المنشودة . . نود أن نشير، فى إيجاز شديد، إلى نماذج من «تنوير جيل التلاميذ» ، لتبين : أعربى تنويرهم هذا؟ - كما يزعم بعضهم أحيانا خوفا من الجماهير المنتمة بالفطرة والوعى إلى العروبة والإسلام - . . أم أنه «تنوير - غربى - علمانى» ، كالذى استعاره « الرواد » من الأساتذة المتغربين؟! . . .



ونحن نعلم أن الساحة الفكرية العلمانية فى وطن العروبة وعالم الإسلام زاخرة بالمشروعات الفكرية التى انطلق أصحابها من فلسفة «التنوير - الغربى - العلمانى» ، ليبراليين كان أصحاب هذه المشروعات أم ماركسيين . . ونعلم أيضا أن الكثير من هذه المشروعات الفكرية تحتاج إلى دراسات خاصة تتوفر على تقييمها ونقدها بموضوعية وشمول . . لكن المقام هنا - من حيث مقتضيات الحيز والغاية - يدعونا إلى اختيار نماذج شاهدة من «تنوير جيل التلاميذ» ، كما صنعنا مع «جيل الرواد والأساتذة» ، للبرهنة على طبيعة وهوية هذا «التنوير» الذى يقرعون به الأسماع . . وذلك تمهيدا لبيان الفوارق الجوهرية بين هذا «التنوير - الغربى - العلمانى» وبين «التجديد الإسلامى» ، الذى لا بأس إن أطلق عليه البعض «التنوير الإسلامى» . . حتى نصل إلى

كشف ما يقوم به «تلاميذ التنوير» من «تزوير» يضعون به «التجديد الإسلامى» وأعلامه فى «سلة» ذلك «التنوير - الغربى - العلمانى»، تعمية على الأمة، وتضليلا للقراء، وخيانة لأمانة القلم والكلمة، والميثاق الذى أخذه الله، سبحانه وتعالى، على أصحاب القلم والكلمة: أن «يبينوا» للناس، ولا يكتموا الحق، بالإخفاء أو التمويه! ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ...﴾ (١) . .

إن «تلامذة التنوير - العلمانى»، بسبب من حدة المواجهة التى يخوضونها مع المشروع الإسلامى للنهضة والتغيير، لم يدعوا مجالا للشك فى «الهوية - الغربية - التغريبية» لهذا التنوير الذى إليه يدعون . . ونحن سنحتكم، فى إثبات هذه الحقيقة - وإن لم تكن فى حاجة إلى إثبات - إلى نصوصهم هم، وذلك حتى نبدد وهم التزوير الذى يحاوله بعضهم، عندما يقول إن تنويرهم عربى . . لا غربى! . .

● إن التجديد الإسلامى - وإن شئت فقل «التنوير الإسلامى» - الذى يستنير أهله بنور الإسلام . . ونور القرآن . . ونور الرسول، ﷺ . . ونور الحكمة - يرى فى «العقل» سبيلا من سبل المعرفة، يستقل بإدراك أشياء، ولا يستطيع - كملكة من ملكات الإنسان المحدود الطاقات والنسبى الإدراك - أن يستقل بإدراك كل الأشياء . . ولذلك تتزامل وتتكامل معه سبل وهدايات أخرى - «التجربة» . . و«النقل» الذى يأتى بخبر الغيب ونبأ السماء و«الوجدان» . . أى أن للتجديد الإسلامى منهاجا فى سبل المعرفة يجعلها أربع هدايات . . وليست فقط، كما هو حالها فى «التنوير - الغربى»، اثنتان؛ : «العقل» و«التجريب» . .

وهذا التجديد الإسلامى يجعل للمعرفة مصدرين «كتاب الوحي المقروء»

(١) آل عمران : ١٨٧ .

و«كتاب الكون المنظور» ، بما فيها من آيات الله في «السور المقروءة» وفي «الأنفس والآفاق» . . بينا «التنوير الغربى» يقف بمصادر المعرفة عند عالم الشهادة، المادى، المحسوس، منكر الاعتداد بعالم الغيب وأنبائه — فى الوحى — كمصدر للمعارف والعلوم . .

ولذلك ، آخى ويؤاخى التجديد الإسلامى بين «العقل» و«النقل» . . بين «الحكمة» و«الشريعة» . . بل لقد رفض المقابلة بين «العقل» و«النقل» ، لأن المقابل «للعقل» هو «الجنون» وليس «النقل»!! . . ومن هنا كانت «الاستنارة بالإسلام» : تقرأ «النقل» بـ «العقل» . . وتحكم «العقل» بـ «النقل» . . وتوازن بين الهدايات الأربع ، كسبل للمعرفة، وتجمع بين مصدرى المعرفة جميعا! . .

هذا هو مذهب «التنوير الإسلامى» فى مصادر المعرفة وسبلها . . فماذا يقول «تلامذة التنوير الغربى» فى هذه القضية؟ . .

لقد عرفوا المشروع التنويرى للدكتور طه حسين ، فقالوا إنه : «تحقيق عصر أنوار عربى ، يكون العقل فيه سيد الأحكام ، فلا ينازعه ولا ينافسه أى خصم آخر مهما كان له فى صدور الناس وأفئدتهم من إعزاز وإكرام»^(٢)!! . . فهم يعترفون بأن تنويرهم غربى ، يجعل العقل سيد الأحكام . . ويرون فيما عداه «خصوصا» لا مكان لها معه ، مهما كان لها فى صدور الناس من إعزاز وإكرام . . فنحن أمام تأليه العقل ، الذى عبدوه إبان الثورة الفرنسية ، عندما أحلوه محل الله والدين! . .

وهذا المذهب ، لجيل «التلاميذ» ، فى «التنوير الغربى» ، هو الذى جعله

(٢) انظر : سمير أبو حمد : «مشكلة الليبرالية فى الثقافة العربية المعاصرة» . صحيفة [الحياة] -

الدكتور مراد وهبه شعارا للتنوير الذى يريدون ، فدعا إلى الانتقال من «الأسطورة» - الدين - إلى «العقل» ، رافعا شعار التنويريين الغربيين : «لا سلطان على العقل إلا للعقل»!! . . أى لا سلطان لدين . . ولا وحى . . ولا نقل . . ولا وجدان . . فمطلوب من «التنويرى» ، الذى يؤمن «بالعقل» أن يكفر به أعداءه!! . . أما إذا آمن بسلطان غير سلطان العقل فهو «مشارك» بالعقل . . أو مجنون!! . .

وذاات الصراحة والوضوح نجدهما عند واحد آخر من رموز جيل «التلاميذ» ، الذى يحسم القضية فيقول : «إن التجريب قرين العقل . . والعقل نقيض النقل . . إن العقل والتجريب - لا النقل والاتباع - هما أساس المعرفة»^(٣) !

فأساس المعرفة : العقل والتجريب . . وعلى «التنويريين» الكفر «بالنقل» ، أى القرآن والسنة ، والثقافة المستندة إليهما ، والتراث المؤسس عليهما ، والحضارة المصطبغة بصبغتهما! . .

هكذا نخيرنا جيل «التلاميذ التنويريين» بين «التنوير - الغربى - العلمانى» وبين الإسلام وتراثه وحضارته وثقافته!! . .

ونحن لا اعتراض لنا على «اختيارهم» . . فلا إكراه فى الدين . . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . لكن الاعتراض هو على «التزوير» ، الذى جعل قائل : «إن العقل نقيض النقل» ، يتحدث عن «تنويره» هذا بأنه «تنويرى عربى»!! . .

ولست أدري كيف يكون «تنويرهم» هذا «تنويرا عربيا» ، بينما هم يدعون إلى إسقاط «الهوية» ، وهى «عربية - إسلامية»؟! . . فعندما سئل

(٣) د. جابر عصفور: «عن التجريب والدولة المدنية» - صحيفة [الحياة] - ١٣ - ٦ - ١٩٩٣ م - .

الكاتب نفسه عن «الهوية»، قال : «لا ينبغي أن ننشغل بسؤال الهوية . . . فلا أحد يشغل نفسه بسؤال الهوية القومية» (٤) .

والسؤال هو : هل يعنى إسقاطهم للهوية العربية الإسلامية « أن لا أحد يشغل نفسه بسؤال الهوية»؟! . . أم أن هذا السؤال ، والإجابات عليه ، هى محور اهتمامات الدنيا وصراعاتها فى هذا العصر الذى نعيش فيه؟! . .

إن وضوح تعريفهم للتنوير الذى يريدون ، لا يدع مجالاً لأى شك فى أنهم يريدون «التنوير - الغربى - العلمانى» ، الذى يؤله العقل وحده ، مسقطاً «أى مؤثر خارجى . . أو مرشد . . أو موجه» من خارج العقل على فكر «التنويريين» . . ففى تعريفهم للأعمال الفكرية التنويرية ، يقولون : «إن الإنسان الذى توصف أعماله بأنها تنويرية هو ذلك الإنسان الذى يستخدم عقله دون مؤثر خارجى أو بغير مرشد أو موجه . . فيما يقوم به من عمل . .» (٥) !

تلك هى «الهوية الغربية» للتنوير الذى يدعو إليه جيل «التلاميذ» ، محتذين فيها حذو جيل «الرواد»! . .

● وإذا شئنا نماذج تطبيقية لما صنعه هذا «التنوير - الغربى - العلمانى» بالإسلام ، فى المشروعات الفكرية لجيل «التلاميذ» ، بعد أن قدمنا نماذج من فكر جيل «الرواد» ، فإننا سنتخير معالم وإشارات ذات دلالة على ماذا صنع هذا التنوير الغربى العلمانى بإسلامنا فى أعمال هؤلاء «التلاميذ» . . ومراعاة للحيز والمقام سنقف عند نماذج ثلاثة :

(٤) د . جابر عصفور - حوار - صحيفة [الحياة] - ٥ - ٥ - ١٩٩٣ م .

(٥) سامح كريم : «التنويريون العرب قديماً وحديثاً» - مجلة [العربى] ، عدد مارس ، سنة ١٩٩٣ م .

١- تفريغ الإسلام من محتواه

للدكتور حسن حنفى مشروع فكرى كبير ومتميز. . صدر فيه حتى الآن عدد كبير من المجلدات. . ولقد حدثنا فى التقديم له عن أنه قد اختار إخراجَه فى صورة مشروع ابن خلدون [٧٣٢ — ٨٠٨ هـ ، ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] : مقدمة ، توجز فلسفته ومقاصده. . وأجزاء تفصل هذه الفلسفة وتبسط هذه المقاصد. . وحرص أيضا على أن ينبهنا على الفارق بين مشروعه وبين مشروع ابن خلدون. . فمشروع ابن خلدون كان عن «الانهيـار» الحضارى ، بينما مشروع الدكتور حسن هو « عن النهوض » (١) . .

ولما كان قد صاغ فى مقدمته ، التى طبعها بعنوان [التراث والتجديد] ، مذهبه . . ووضع فيها «المقدمات النظرية للمشروع كله» (٢) . . فستكون وقفـتنا عند هذه المقدمة . . أى عند كتابه [التراث والتجديد] . .

وإذا نحن شئنا إيجازا للمشروع الفكرى للدكتور حسن حنفى ، من خلال كتابه هذا ، الجامع «للمقدمات النظرية» لمشروعه كله . . فإننا نقول : إنه محاولة لـ «أنسنة» الدين ، وتفريغه من محتواه ، وذلك بإلغاء «ثوابته» و«مطلقاته» و«مقدساته» ، من «الله» إلى «النبوة» إلى «الرسالة» إلى «الوحي» إلى الغيب . . إلغاء كل ذلك . . بإعطائها مضامين ومفاهيم إنسانية . .

(١) [التراث والتجديد] ، ص ٢١٦ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٠ م .

(٢) المرجع السابق . ص ٢١٦ .

أرضية . . أى إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة ، وقصرها على عالم الشهادة ، وقصر سبل هذه المعرفة على «العقل» و«التجريب» وحدهما . . أى إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة ، وتأويل وتفسير كل ما له علاقة بالدين والغيب والألوهية والنبوة والرسالة والوحى على النحو الذى «يؤنسُّه» ويجعله إفرازا بشريا . .

فنحن ، إذن ، بإزاء استعارة لفلسفة «التنوير - الغربى - العلمانى» يريد الدكتور حسن أن يتعامل بها مع الإسلام ، كما تعامل التنويريون الغربيون مع النصرانية الأوروبية إبان النهضة الأوروبية الحديثة . .

فكيف تعامل الدكتور حسن مع الإسلام بهذه الفلسفة التنويرية وبمنهجها فى التعامل مع الدين ؟! . .

● يشبه الدكتور حسن حنفى « التراث » بـ «المخزون النفسى» . . وينتقد مذهب الذين يكتفون به . . ومذهب الذين يكتفون بالجديد - الاكتفاء الذاتى للتراث . . والاكتفاء الذاتى للجديد - ويقدم مذهبه هو فى التعامل مع هذا « المخزون النفسى » - التراث - مذهب «التراث والتجديد» ، فإذا به تصفية لهذا المخزون ، وتبخير له ، وتخلص منه ، لا «برفضه» - كما يصنع أنصار «الاكتفاء الذاتى بالجديد» - ، وإنما بإعادة تفسيره التفسير الذى يجعله مساويا تماما لـ «جديد» أنصار «الاكتفاء الذاتى بالجديد» (٣) ١١ . .

فهو يلغيه ويصفيه ، لكن باسمه ، وبلغته ، وتحت مظلتته . . وهذا منهاج أذكى - ولا نقول «أخبث»! - فى التعامل مع هذا «المخزون» . . لأنه سبيل «غير مباشر» فى التصفية والإلغاء . . أما الهدف والغاية فلا مساومة فيها . . «فمهمة التراث والتجديد هى التحرر من السلطة بكل أنواعها ، سلطة الماضى ، وسلطة الموروث ، فلا سلطان إلا للعقل ، ولا

(٣) المرجع السابق . ص ٢٨ .

سلطة إلا لضرورة الواقع الذى نعيش فيه ، وتحرير وجداننا المعاصر من الخوف والرهبنة والطاعة للسلطة ، سواء كانت الموروث أو سلطة المنقول»^(٤)! . .

هنا تطالعنا « آلهة التنوير الغربى » ، التى جاء بها الدكتور حسن ليحلها محل « الموروث » - كل الموروث - « فلا سلطان إلا للعقل ، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذى نعيش فيه »!! . . - «العقل» و«المادة» - . . ! والتحرر المطلوب هو بماعدا ذلك ، وخاصة « سلطة الموروث والمنقول »! . .

● وعلى درب التفسير والتأويل لهذا الموروث - بألوانه المختلفة - ذهب الدكتور حسن مذاهب إن أضحكت الجمهور وأبكته ، فإنها ستذكر أهل العلم بمذاهب غلاة الباطنية القدماء ، الذين حولوا كل ظاهر إلى باطن ، وكل واقع إلى خيال ومثال . . وبمذاهب التنويريين الغربيين الذين «أنسنوا» - بمذاهبهم الوضعية - كل الإلهيات! . .

ففى تفسيرات وتأويلات مذهب « التراث والتجديد » : يتحول « الدين » إلى « أيديولوجية »^(٥) . . ويتحول « الإسلام » إلى « تحرر »^(٦) . . بل ويتحول « الله » - تعالى الله عما يصفون - إلى : « الأرض - والخبز . . والحرية . . والعدل . . والعتاد . . والعدة . . والقوة » . . « فالله - [بنص عبارة « التراث والتجديد » - لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح ، أى أنه تعبير أدبى أكثر منه وصفا لواقع ، وتعبير إنشائى أكثر منه وصفا خبريا »^(٧)!! . .

ولذلك ، فإنه - ضمن مهام « التجديد اللغوى المطلوب - يجب التخلّى عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة ، من مثل : « الله » و« الرسول » و« الدين » و« الجنة » و« النار » و« الثواب » و« العقاب » . . إلخ . يجب التخلّى عن هذه

(٤) المرجع السابق . ص ٥٥ . (٥) المرجع السابق . ص ١٣٠ .

(٦) المرجع السابق . ص ١٣٢ . (٧) المرجع السابق . ص ١٢٨ ، ١٣٠ .

الألفاظ « في علم أصول الدين ، لأنها قطعية . . ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة . . ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية »^(٨) ! ! . .

فكل ما يجاوز « الحس والمشاهدة » ، وكل ما لا « يتأنس » ، يجب تأويله وتحويله . . بل والتخلي عنه وإلغاؤه ! ! . .

● وبما أن حضارتنا وتراثنا ومنهجيتنا كانت تولي وجهها شطر الله والسماء ، فإن عليها - في مذهب « التراث والتجديد » - أن تدير ظهرها لله والسماء ، وتتمركز حول الإنسان . . وفي ذلك يقول الدكتور حسن : « وما زلنا نحن ، في واقعنا المعاصر ، يتمركز فكرنا القومي على الله ، ولم نطور المكتسبات الإنسانية في تراثنا القديم ، بالرغم مما نحن فيه من مآسى الإنسان ، التي كان يمكن أن تجعله محورا أساسيا في فكرنا القومي . . »^(٩).

أما كيف نحقق مذهب « التراث والتجديد » ، في تركيز الفكر حول « الإنسان » بدلا من « الله » ، فبوضع « الإنسان الكامل » موضع « الله » ، وتحويل أسماء الله وصفاته إلى الإنسان . . « فالانتقال من « الله » إلى « الإنسان الكامل » يعبر عن مضمون « الله » ، فكل صفات الله : العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والإرادة ، كلها صفات الإنسان الكامل . وكل أسماء الله الحسنى تعنى آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها . « فالإنسان الكامل » أكثر تعبيرا من لفظ « الله » . . »^(١٠).

ففي مذهب « التراث والتجديد » ، لن نخسر شيئا إذا نحن ألغينا « الله » ووضعنا مكانه « الإنسان الكامل » ، لأن الأسماء والصفات ، التي وصف الدين بها الله ، ماهي إلا « صفات الإنسان الكامل » . . وآماله وغاياته التي

(٨) المرجع السابق . ص ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٩) المرجع السابق . ص ١٨٥ .

(١٠) المرجع السابق . ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

يصبو إليها! . . فهذا « الانتقال » و« الإلغاء » و« الإحلال والتبديل »، إن هو إلا « التصحيح » الذى يكتشفه لنا « التنوير - الغربى »، فى صورته التى جاء بها الدكتور حسن حنفى! . .

ولذلك، فإن « التراث والتجديد » - كعملية معرفية - ومنهجية فى التعامل مع الموروث « لا تتحدث عن الأشياء فى ذاتها، مثل « الله » . . بل إن التراث والتجديد يتعامل مع العالم الإنسانى وحده ^(١١) . . وهو دعوة إلى الانتقال من العقل إلى الطبيعة، ومن الروح إلى المادة، ومن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك . . » ^(١٢).

فما وراء المادة والإنسان: وهم . . والمطلوب - فى مذهب « التراث والتجديد » - هو التحول عن هذا « الوهم » إلى حقيقة العالم والإنسان وحدها! . .

وإذا كان « الله » - فى مذهب حسن حنفى - « لفظة . . وتعبيرا أدبيا أكثر منه وصفا لواقع . . وتعبيرا إنشائيا أكثر منه وصفا خبريا »، فإن « الواقع » و« الخبر » هو « الإنسان » . . وما « الله » إلا وعى الإنسان بذاته « مدفوعا خارج العالم بعيدا عن الإنسان، منفصلا عنه . . وما صفاته وأسمائه إلا آمال الإنسان وغاياته التى يصبو إليها . . فالحقيقة هى الإنسان، والواقع الذى يعيش فيه . . فقط لا غير! . .

● وكما اقترح مذهب « التراث والتجديد » التحول من « الله » إلى « الإنسان »، بإحلال « الإنسان الكامل » محل « الله » . . كذلك يقترح بناء جديدا للعلوم . . فعلوم العقيدة التى تتحدث عن « الله » و« الإنسان » مطلوب إعادة بنائها لتكون ثنائيتها « العالم » و« الإنسان »، بدلا من « الله » و« الإنسان » . . « فكل مسائل علم الكلام التى ظهر فيها الله كطرف

(١٢) المرجع السابق. ص ٦١.

(١١) المرجع السابق. ص ٧٠.

للإنسان، مثل الجبر والاختيار، والحسن والقبح، والوعد والوعيد، فهى مسائل موضوعية وضعا خاطئا، لأن الله ليس طرفا في فعل الإنسان، بل العالم، والحسن والقبح يحددان علاقة الذات بالموضوع وليس علاقة الموضوع بالله، والوعد والوعيد يحددان آثار الفعل في هذا العالم، وليست آثاره المترتبة عليه في عالم آخر^(١٣). . إن طريقة العرض القديمة - في الموضوعات الكلامية - تجعل الله طرفا في كل مشكلة، ويكون مع الإنسان: الله الشخص، المريد، الفاعل، العاقل، القادر. إلخ. . ولكن التوحيد ذاته موضوع مستقل بذاته. فالتوحيد يعنى: وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة. . فالمهم هو إيجاد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم، وتخليصه من شوائبه اللاهوتية والتاريخية والنظرية، وإعادة وضع المشكلة الوضع الصحيح، وهو الوضع الإنسانى والاجتماعى. وتكون مهمتنا، مثلا، فى إعادة بناء التوحيد التقليدى هى التركيز على التوحيد كعملية توحيدية، وعلى الحرية كعملية تحرر، وعلى العقل كعملية تنوير، وعلى العمل كعملية تحقيق وتغيير شامل، وعلى الشورى لتغيير النظم التسلطية، وعلى الطبيعة من أجل إدخال بعدها فى الشعور المعاصر، وعدم الاستنكاف منها بناء على عواطف التطهر والتطهير. .»^(١٤).

فالمطلوب: علم توحيد، بلا «إله» وبلا «عقيدة» - وتلك دلالة اختيار الدكتور حسن لمشروعه عنوانا هو «من العقيدة إلى الثورة». . فالغاية: علم توحيد أرضى إنسانى، لا علاقة له بالله أو الدين أو السماء! . . وليس ذلك بالغريب فى مذهب «التراث والتجديد». . فإذا كان «الله» مجرد تعبير أدبى وإنشائى. . «فليس للعقائد صدق داخلى»^(١٥)! . . «ولا يوجد دين فى ذاته»^(١٦)! . . «والوحي ليس ديناً، بل هو البناء المثالى للعالم»^(١٧)! . .

(١٣) المرجع السابق. ص ١٧٥ . (١٤) المرجع السابق. ص ١٧٦، ١٧٧ .

(١٥) المرجع السابق. ص ٦٦ . (١٦) المرجع السابق. ص ٢٢ .

(١٧) المرجع السابق. ص ١١٤ .

ولا يحول دون ذلك أن «التراث قد نشأ من مركز واحد، وهو القرآن والسنة . . .
فهذان المصدران لا تقديس لهما، أو للتراث، بل هو مجرد وصف
لواقع»^(١٨)! . . . «والتراث قضية وطنية لا دينية»^(١٩)! . . . «ومادة التراث
نسقطها كلها من الحساب، ونستبدل بها مادة أخرى جديدة من واقعنا
المعاصر»^(٢٠)! . . .

فالغاية، في مذهب «التراث والتجديد»، هي تحويل «العلوم الإلهية» -
بعد إلغاء «الله»، وإحلال «الإنسان الكامل» محله - . . . هي تحويل «العلوم
الإلهية» و«الوحي الإلهي» إلى «علوم إنسانية محكمة»، وذلك تمهيدا لتحويلها
إلى «أيديولوجية» أى فكرية وضعية لا علاقة لها بالدين والوحي والله
والسماء . . . وبنص عبارة الدكتور حسن، فإن «التراث والتجديد هو تحويل
العلوم العقلية القديمة إلى علوم إنسانية، وأن يصبح الكلام والفلسفة
والتصوف والأصول، كل منها علما إنسانيا»^(٢١) . . . وإذا كان التراث قد
أعطانا علوما عقلية، عبر فيها عن آخر ما وصلت إليه قدراته من تعقيل
للنص، وتنظير للوحي، وإذا كان التجديد باستطاعته تحويل هذه العلوم
التقليدية إلى علوم إنسانية، فإن العصر الحاضر يود القيام بخطوة أكثر
تقدما، وهى تحويل العلوم الإنسانية، وريشة العلوم التقليدية، إلى
أيديولوجية، وتلك هى الغاية القصوى من «التراث والتجديد» . . . التراث
والتجديد، فى النهاية، إن هو إلا تحويل للوحي من علوم حضارية إلى
أيديولوجية، أو ببساطة: تحويل الوحي إلى أيديولوجية^(٢٢) . . . تحويل الوحي
ذاته إلى علم إنسانى . . .»^(٢٣)!

(١٨) المرجع السابق . ص ١٧٧ .
(٢٠) المرجع السابق . ص ١٧٣ .
(٢٢) المرجع السابق . ص ٢٠٣ .
(١٩) المرجع السابق . ص ٢١ .
(٢١) المرجع السابق . ص ٢٠٢ .
(٢٣) المرجع السابق . ص ٢٠٨ .

وهذه المهمة ، التى يتصدى لها الدكتور حسن ، بمذهب « التراث والتجديد » ، لم يتطلع إليها ، فى الواقع الإسلامى ، أحد من قبل . . .
 « فالحركات التجديدية المعاصرة . . حاولت إعادة بناء العلوم التقليدية ، فى صورة جزئية ، لأنها كانت دعوات « إصلاحية » أكثر منها دعوة للبحث الخالص . . لقد تناولت بعض أجزاء هذه العلوم ، دون أن تتناولها فى جملتها . . مثل محاولة إعادة بناء علم أصول الدين فى [رسالة التوحيد] -
 للشيخ محمد عبده - ومحاولة إعادة بناء الفكر الفلسفى فى [الرد على الدهريين] - للأفغانى . . . » (٢٤) .

أما مشروع الدكتور حسن ، فلأنه « ثورى » ، لا يقف عند حدود « الإصلاح » ، فإنه هو الذى سيغير « طبيعة » هذه العلوم تغييرا جذريا . .
 سينتقل بها من إطار « العلوم الإلهية » إلى إطار « العلوم الإنسانية » وذلك تمهيدا لتحويلها إلى « أيديولوجية - وضعية » لا علاقة لها بالالوهية أو الدين ! ! . .

وعندما يتحقق مشروع الدكتور حسن حنفى . . فإننا سننتقل إلى أيديولوجية جديدة ، تجعلنا لا نخاف - كما يقول صاحب « التراث والتجديد » - من العلمانية . . « فالعلمانية هى : رجوع إلى المضمون دون الشكل ، وإلى الجوهر دون العرض ، وإلى الصدق دون النفاق ، وإلى وحدة الإنسان دون ازدواجيته ، وإلى الإنسان دون غيره . فالعلمانية إذن هى أساس الوحي ، فالوحي علمانى فى جوهره ، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ ، تظهر فى لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور . . » (٢٥) ! !

فلا خشية من العلمانية ، لأنها إلغاء « للدينية » وعودة « للوحي العلمانى » ! ! . . و« الوحي - فى « التراث والتجديد » - ليس ديناً ، بل هو البناء المثالى للعالم » (٢٦) ! ! . . فالعلمانية ، إذن ، ستعود بنا عن هذا « البناء المثالى

(٢٤) المرجع السابق . ص ١٧٥ . (٢٥) المرجع السابق . ص ٦٩ .

(٢٦) المرجع السابق . ص ١١٤ .

للعالم ، الذى لا علاقة له بالدين ، كما جاء به الوحى ، ولا بالوحى كما يفهمه المتدينون بالأديان!!! . . .

بل ولن يكون هناك يومئذ - يوم تتحول العلوم الإلهية إلى أيديولوجية وضعية إنسانية - لن يكون هناك خوف حتى من «الإلحاد» ، وليس فقط «العلمانية» . «فالإلحاد - فى مشروع الدكتور حسن - هو: التجديد . . هو التحول من القول إلى العمل ، ومن النظر إلى السلوك ، ومن الفكر إلى الواقع . . إنه وعى بالحاضر . . ودرء للأخطار . . بل هو المعنى الأصيل للإيمان . . .» (٢٧)!!! . . .

فبالتراث والتجديد ، لن يكون هناك خوف من العلمانية . . ولا من الإلحاد ، فهما «الوحى» و«الإيمان» فى عرف صاحب هذا المشروع ، الذى لا أظن أحدا من غلاة التنويريين الغربيين قد قال أكثر من هذا الذى قال ، فى «مقدمته» الصغيرة ، لمشروعه الفكرى الكبير ، الذى تغيا به «نهوضنا» الجديد المنشود . . لقد بلغ الرجل قمة المصارحة والتحديد فى تلخيص مذهبه فى «التجديد» عندما قال : «إن الإلحاد هو التجديد . . وهو المعنى الأصيل للإيمان» [!!!!؟؟؟] . . .

* * *

بقى أن أقول - للتاريخ - إننا عندما صدر كتاب الدكتور حسن حنفى [التراث والتجديد] سنة ١٩٨٠م . . اجتمعنا - مجموعة من المفكرين - به فى جلسة نقدية لهذا الكتاب - بمنزل الصديق الأستاذ المستشار طارق البشرى . . ولقد توليت أنا عرض هذه الملاحظات النقدية على الكتاب . . ولم يشأ الدكتور حسن ، يومها ، أن يجيب على تساؤلات الحضور . . إلا بابتسامة ، قال لى معها :

- هو أنت كشفت الموضوع!؟ . . .

فلما استأذنته أن أكتب عن الكتاب ، رجاني ألا أفعل ، وقال :

(٢٧) المرجع السابق . ص ٦٧ .

- لقد طبعته بحروف صغيرة حتى لا يستطيع « المشايخ » قراءته !! . .
وتوالى منذ ذلك التاريخ صدور أجزاء « المشروع التنويرى » ، الذى عرضنا
لمقاصده ، ولآلياته ، فى هذه الصفحات ! . . مشروع « تصفية المخزون
النفسى - التراث - كل الموروث - » باسمه . . وتحت مظلته . . وبذات اللغة
المستخدمة فيه ، وذلك بتجريده من محتواه ، مع الاحتفاظ بالقوالب ، التى
يُصَبِّ فيها أى شىء سواه ! . .

* * *

ومع هذا « العبث - التنويرى » ، الذى تجاوز به الدكتور حسن حنفى
حدود « المعقول . . والمقبول » ، فإن للدكتور حسن ميزة على « التنويريين -
المتغربين » . . فهو داعية لاستقلالنا الحضارى ، ومناضل ضد التغريب
والإلحاق الحضارى والتبعية . . ولذلك ، فنحن نسأله - من موقع الود
والأمل :

إذا كنت - بمشروعك فى « التراث والتجديد » - تجرد الإسلام من محتواه
الدينى والإلهى . . أى من الثوابت والمطلقات . . ألا يُسهِّل هذا على
« التغريب » مهمة « الاجتياح » لهذا الحصن الذى حفظ ويحفظ لنا وعلينا
الاستقلال ، وضمن ويضمن لنا الاستعصاء على التبعية والذوبان ؟ ! . .

إنك إذا حَوَّلْتَ إسلامنا إلى « علمانية . . وإلحاد » ، فما الذى يبقى مميزا
لعقيدتنا عن الأيديولوجية الغربية « المادية . . الإلحادية . . العلمانية » ؟ ! . .
وما المبرر للدعوة إلى التمايز الحضارى عن النموذج الحضارى الغربى ؟ !

إن مشروعك - فى « التراث والتجديد » - إنما يفتح ، عمليا وواقعيًا ،
الثغرات للاجتياح التغريبى . . فكيف يتسق مع مقاومتك المعلنة للتبعية
والتغريب والإلحاق ؟ ! . .

فهل هناك أمل فى « مراجعة شجاعة » تعيد الموقف الفكرى إلى
الإتساق ؟ ! . .

٢- مركسة الإسلام

لم تنحسر مخاطر «مركسة» الإسلام بالسقوط المدوى للمنظومة الماركسية، وأحزابها ونظمها وحكوماتها، في بداية عقد التسعينيات من هذا القرن العشرين . . فكثيرون من الماركسيين يكابرون فيزعمون أن الذى سقط هو «التطبيق السوفيتى» للماركسية، وليست الماركسية هى التى سقطت، وبخاصة منهجها المادى الجدلى، فى تفسير الوجود، والمادى والتاريخى، فى تفسير التاريخ! . . مع أن سقوط «التطبيق السوفيتى» إنما حدث لفرط تطبيقه للمادية الجدلية والتاريخية فى كل ميادين الحياة، الأمر الذى نقل مصادمة هذه المادية لفطرة الإنسان إلى كل ميادين الحياة، فكان الخواء، والقنوط من الغد، وموت الإبداع الفردى، «والتقوُّلب» المميت، بعد «تصلب» شرايين الروح الإنسانية فى تلك المجتمعات! . . فالسقوط كان للماركسية قبل أن يكون «للتطبيق السوفيتى»! . .

ثم إن الكثير من الماركسيين، بعد سقوط مشروعهم «السياسى» و«الاقتصادى»، قد انسحبوا، بتكوينهم المادى المعادى للدين . . وهم فى حالة استنفار- بل وسعار- ضد الإسلام، بسبب تعاظم الصحوة الإسلامية المعاصرة . . انسحبوا، بعد سقوط مظلتهم «الشمولية»، فاتخذوا مواقعهم تحت مظلة «الليبرالية»، التى كانوا يكيلون لها الاتهامات!! . . وذلك للجامع الذى يجمعهم الآن والغرب الليبرالى - جامع العداء للإسلام- والحديث عنه «كالخطر الأخضر» الذى حل محل «الخطر الأحمر»، والعدو

الجديد بعد سقوط «إمبراطورية الشر الشيوعية» . .

ولقد تلقف الغرب الليبرالى ، والحكومات التابعة له هذه الفلول الماركسية . . فهى قد غدت «مؤتمنة» بعد سقوط مشروعها ، كحال «الطواشى والخصيان» فى «الحريم» . . . ولم يبق من مشروعها القديم إلا الفكر المادى ، الذى يمكن توظيفه ضد الإسلام ومشروعه فى النهضة والتغيير . . وهكذا «وظف» الماركسيون ، و«وظفت» ماركسياتهم وماديتهم ، ودربتهم فى الجدل ، وعمق عدائهم للدين . . وظف ويوظف كل ذلك فى المواجهة التى صعدتها ويصعدوها الغرب الليبرالى والحكومات التابعة ضد الإسلام واليقظة الإسلامية المعاصرة . .

فلم تسقط ولم تنحسر مخاطر «مركسة الإسلام» مع ما حدث للمنظومة الماركسية دوليا ، من سقوط . . .

والناظر، فى الواقع العربى ، إلى «المشروعات» المادية «لمركسة الإسلام» ، يستطيع أن يرصد العديد من هذه «المشروعات» ، على تفاوت فى حجمها وفى «فجاعتها» عندما حاولت ، بقسر غير مألوف فى الأنساق الفكرية ، أن تصب «الدين» فى قوالب «الإلحاد» ، وتدفن «الروح» فى قبر «المادة»
فهناك من هذه المشروعات :

● مشروع الدكتور الطيب تزينى . . عن التراث . . ومحاولة اختزاله فى «الثورة» . .

● ومشروع حسين مروة . . عن النزعة المادية فى الفلسفة الإسلامية . .

● ومشروع الدكتور محمود إسماعيل ، لاختزال الإسلام فى البعد الاجتماعى الثورى - سوسيولوجيا الإسلام - . .

ونحن نعتقد أن كل مشروع من هذه المشروعات يحتاج إلى دراسة . . أو إلى باب كبير فى دراسة شملها وتغطيها . . ولذلك مقام غير هذا المقام المحدود

الذى نحن فيه . . . والذى يناسبه «مثل» نضربه على هذا المنهاج الذى يحاول أصحابه «مركسة الإسلام» . . .

ولذلك ، فإن المثل الذى سنختاره لن يكون واحدا من هذه المشروعات الكبرى ، وإن جمع كل خصائصها ، ولن يكون من المشروعات الماركسية المشهورة فى دوائر الفكر والثقافة والإعلام ، لنقيم الدليل على أن خطر هذا المنهاج على الإسلام ليس وقفا على النماذج المشهورة فى عالم الثقافة والإعلام . . . فكثيرة هى المشروعات التى تعمل على «مركسة الإسلام» فى المدرجات الجامعية ، «تفرض» هذا المنهج على أبنائنا وبناتنا فرضا ، ولا تترك لهم حرية الاختيار - كما هو الحال مع المشروعات المعروضة فى عالم الثقافة والإعلام - !! . . بل و«تفرضه» فى التوقيت والسن العمرية التى لا يستطيع فيها الطلاب «المقاومة» ، له «طراوة» العود الفكرى ، و«رخاوة» البديل الثقافى ، وضعف «المناعة» فى محيط تسيطر العلمانية على مؤسساته الثقافية ، ويساق فيه المشروع الإسلامى إلى «قفص الاتهام» !! . . . وتخلو فيه أغلب الجامعات من التدريس الجاد للثقافة الإسلامية !! . . .

فى هذه الدوائر . . . وهذا المناخ . . . وتلك الملابس ، «تُفرض» فى الجامعات ، و«تُقرَّر» على أبنائنا وبناتنا «مشروعات» كثيرة «لمركسة الإسلام» . . . ومنها سنختار النموذج الذى نضرب به المثل . . . وهو نموذج ربما لم يسمع به أحد فى دوائر الثقافة والإعلام . . . بل ولم أسمع به أنا قبل قراءة الكتاب الذى جسد هذا «المشروع» ! . . .

وعنوان هذا الكتاب هو [القرآن وعلومه فى مصر] - فى المدة من سنة ٢٠هـ حتى سنة ٣٥٨م^(١) - . . . وهو - فى الأصل - رسالة دكتوراه من كلية

(١) للأستاذ الدكتور عبد الله خورشيد البرى . وطبعة دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٧٠م .

الآداب ، جامعة القاهرة ، قسم اللغة العربية – مدرسة الدكتور طه حسين الفكرية!! . . وهذه الرسالة أعدت وأجيزت في الستينيات ، وقدمها كتابا مطبوعا أستاذ جليل ، بعثى الأيديولوجية^(٢) ، وصديق حميم للأستاذ ميشيل عفلق . .

وفي هذا الكتاب – الذى تقرب صفحاته من الخمسمائة – يعرض المؤلف «للمدرسة المصرية» فى قراءة القرآن وتفسيره . . أما منهاج مركسة الإسلام – وهو الذى يهمنى أن نشير إلى معالنه ونماذجه هنا – فمكانه البابان الأول والثانى من الكتاب . .

وأنا لن أقف عند تركيز المؤلف الأضواء على الإسرائيليات التى تشكك فى النص القرآنى ، وهى روايات آحاد ، معلولة أو شاذة بمعايير الرواية والدراية سندا ومرتنا . . فى الوقت الذى يشكك فيما ينقضها ، بحجة أنها روايات آحاد!! . .

ولن أقف عند خلو الكتاب – وهو عن القرآن – من «الصلاة» ، ولو مرة واحدة ، على النبى ، الذى جاء بهذا القرآن ، ﷺ . . فتلك أمور سنهها الزنادقة قديما وجمهور المستشرقين فى العصر الحديث! . .

ولكنى سأقف فقط عند نموذج المؤلف فى «مركسة الإسلام» ، قرآنا . . ودعوة . . ودولة . . وتجربة صنعها الرسول ، ﷺ ، وصحابته لإقامة الدين فى واقع الحياة . .

● إن الماركسية – وهى التى «ألهت» المادة . . وأنكرت الألوهية والنبوة والرسالة والوحى والدين . . وكل ما وراء المادة . . حتى جعلت كل الفكر انعكاسا للمادة وثمرة لنشاطها! – إن هذه الماركسية ، فى هذا الكتاب ، قد اختزلت الإسلام فى «الثورة» . . فهو «مجرد ثورة» ، على سبيل الحصر ، ولا أثر

(٢) هو المرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى .

فيه للدين!! . . وبالحرف الواحد يقول هذا الكتاب — [وهو عن القرآن وعلومه!!] - : « إن الدين الجديد ليس سوى ثورة شاملة تتناول بالتغيير والتطوير كل شئون الحياة . . » . . ودخول الناس في الإسلام ، وإيمانهم به ، لا يعدو أن يكون « الانضمام إلى الثورة »^(٣) . . !

● والقرآن الكريم ، لا أثر في هذا الكتاب على أنه وحى إلهي ، والمعجزة المصدقة لرسول الإسلام ، ﷺ ، التي تحدى بها قومه والعالمين . . لا أثر لشيء من ذلك . . إنه فقط « كتاب الثورة » . . وبنص المؤلف « فإن القرآن هو كتاب هذه الثورة المعبر عنها . . »^(٤) إنه كتاب الثورة الإسلامية الكبرى^(٥) . . والمصدر النظري الأول^(٦) . . وكتاب العربية الأقدس^(٧) . . ومصدر المعرفة بنظرية الثورة . . «^(٨)!!

● ونبي الإسلام ورسوله — الذي لم يصلّ عليه المؤلف في كتابه مرة واحدة!! — لم يحدث أن أشار إليه بما يقرنه بصدق النبوة والرسالة والوحى . . بل قدمه مجرد مصلح اجتماعي . . فعمله — بنص الكتاب — « لم يكن سوى إعادة بناء شخصية الفرد العربي ، وإعادة تخطيط المجتمع العربي . . »^(٩)!! هكذا على سبيل الحصر . . و « اليقين » المادى الماركسي!! . .

● وإذا كان الإسلام « مجرد ثورة » . . والقرآن « كتاب نظرية الثورة » . . والرسول هو القائم على « إعادة بناء الشخصية العربية ، وإعادة تخطيط المجتمع العربي » . . فإن التدين بالإسلام لم يكن يعنى سوى « الانضمام إلى الثورة . . » . . والصحابي « مصعب بن عمير » عندما دخل في الإسلام ، فإنه قد « تخلص عن الأرستقراطية ، وانضم إلى الثوار ، يقاسمهم قسوة النضال ،

(٣) [القرآن وعلومه في مصر] ، ص ١٠٩ . (٤) المرجع السابق . ص ١٠٩ .

(٥) المرجع السابق . ص ٥ . (٦) المرجع السابق . ص ١٠٨ .

(٧) المرجع السابق . ص ٦ . (٨) المرجع السابق . ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٩) المرجع السابق . ص ١١٣ .

ويدعو إلى الإسلام، ويقرئ الرفاق الجدد القرآن، ثم ضحى بحياته بعد أن ضحى بطبقته في سبيل الثورة»^(١٠)!! . .

وكذلك الصحابة، الذين آمنوا بالإسلام، وتفقهوا في القرآن، ومثلوا شريحة «القراء» - علماء تلك الفترة الأولى من حياة الدعوة - . . هؤلاء كانوا، عند المؤلف : «القراء المستنيرين الذين بادروا بالانضمام إلى الثورة، متخلين في بعض الحالات عن طبقتهم، يعيدون إلى الذهن ما يلحظ في الثورات الكبرى من ظاهرة تخلى بعض المثقفين عن طبقاتهم، فالمثقف الحقيقي يكون عادة شخصا تقدميا . .»^(١١)!! . . فهم مجرد «مثقفين . . ثوريين . . تقدميين» . . ولا أثر للدين أو التدين في هذا الموضوع!! . .

وكذلك الحال مع الصحابة في عهد عمر بن الخطاب، فهم «رفاق الثورة» . . وعمل عمر هو «تعليم الناس نظرية الثورة . .» . . كما أن الفقهاء هم «العلماء بنظرية الثورة . .» . . والقراء للقرآن هم «طليعة فكرية للثورة . . يشكلون فئة المثقفين الثوريين . . وهم على خبرة كافية بنظرية الثورة . .» كما يمثلون «الأوساط اليسارية» . . و«اليسار الثورى»^(١٢)، في ذلك المجتمع!! . . أما عثمان بن عفان، فهو «ثائر قديم، تخلى عن طبقته الأرستقراطية وانضم إلى الثورة في وقت مبكر، ووضع ثروته في خدمة الثورة»^(١٣)!! . . بينما كان عمرو بن العاص «قائد الرجعيين . .»^(١٤)!! . .

● وما دام الأمر - في «مركسة الإسلام» - لا يعدو هذا النطاق . . الإسلام : «مجرد ثورة» . . والقرآن : «كتاب الثورة . . ومصدرها النظرى الأول» . . والمعرفة الإسلامية هي : «المعرفة بنظرية الثورة» . . والنبى : «لم يكن سوى

(١٠) المرجع السابق . ص ١١٠، ١١٧ . (١١) المرجع السابق . ص ١١٢ .

(١٢) المرجع السابق . ص ١١٢، ١١٧، ١٢١، ١٢٧، ١٣١، ١٣٦ .

(١٣) المرجع السابق . ص ١٢٤ . (١٤) المرجع السابق . ص ١٣٣ .

معيد لبناء الشخصية العربية . . ولتخطيط المجتمع العربى» . . والعلماء هم : «أهل الخبرة الكافية بنظرية الثورة» . . والمؤمنون هم : «رفاق الثورة» . . مادام الأمر، فى الإسلام، لا يعدو هذه الحدود . . فإن الهجرة من مكة إلى المدينة، لم تكن - فى التحليل والتفسير الماركسى للإسلام - أكثر من «تأمين الثورة ضد مؤامرات الرجعية، بنقل مركز الثورة ومقر قيادتها من مكة إلى المدينة، حيث كانت قد اكتسبت أنصارا جددا أقوياء أغنياء مستنيرين . .» (١٥)!! . .

تلك هى نماذج من صنيع المنهاج المادى فى «مركسة الإسلام» . . تضعنا أمام الثمرات المرة «للخطيئة - الماركسية» عندما ترتكب «جريمة» التفسير المادى للإسلام . . وهى «جريمة» تفرضها و«تُقَرِّرها» بقايا الماركسية على أبنائنا وبناتنا فى الجامعات، فى ظروف «الجبر . . والعجز عن الاختيار» . . وفى سن الافتقار إلى البديل الذى يقاوم «الأستاذ - المحاضر» و«الكتاب - المقرر» و«أسئلة . . ودرجات الامتحان»!! . .

إنه «امتحان» قائم خارج دوائر الثقافة والإعلام!

(١٥) المرجع السابق . ص ١١٧ .

٣- الهزل.. وغيبة العدالة في تناول الإسلام

لا أعرف حضارة معاصرة بلغت مبلغ الحضارة الإسلامية في اشتراط «العدالة»، بمعناها الجامع، في «العلماء» بأكثر مما اشترطتها في «الأمراء»!! . .

صحيح أن «فسق» أى من «العلماء» و«الأمراء» إنما يمثل فتنة في الأمة والعامة، لا تقف آثارها عند حدود من اقترفها واجترح أعمالها . . والقرآن ينبه على خطر هذا اللون من الفتنة فيقول: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ (١) . . إلا أن فتنة فسوق «العلماء» أخطر من فتنة فسوق «الأمراء»، لأن صلاح «العلماء» شرط في صلاح «الأمراء» وسبب فيه!! . . ولذلك كان تشديد الإسلام وحضارته على العدالة الجامعة في العلماء . . فصاحب «الكلمة»، وحامل «القلم» يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا!! . .

ولقد قرن الله، سبحانه وتعالى، بين العلم بسننه في الكون والفقہ لأسراره في الخلق وبين «الخشية» من جلاله، التي يجب أن يثمرها هذا العلم في قلوب العلماء . . ففي العلم الطبيعي: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود* ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ (٢) .

(١) الأنفال: ٢٥ . (٢) فاطر: ٢٧، ٢٨ .

وإذا كانت هذه هي الخشية الطبيعية لله من الذين يعلمون آيات كتابه في الكون المنظور، فإن آيات كتابه المقروء مطلوب أن تحدث ذات الخشية - إن لم يكن أكثر - في قلوب العلماء بهذه الآيات ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (٣) . .

تلك هي رؤية الإسلام وحضارته للمكانة الطبيعية للذين أوتوا الكتاب، وأخذ الله عليهم الميثاق ألا يكتموه، بل يبينوه للناس! . .

وهذه العدالة الجامعة، التي اشترطها الإسلام في العلماء، لا تقف فقط عند اجتناب «فسوق الجوارح» و«معاصيها»، وإنما هي أولا «عدالة الرأي» و«أمانة الفكر»، التي ترجح الدين والعقل على الهوى والشهوة، وتلتزم الصدق، وتتجنب الكذب، ديانة ومروءة - كما عرفها العلماء - . . . فسق الرأي، كفسق الجوارح، قاذح في «عدالة العلماء» . . . والذين يخونون هذه الأمانة، ويلحدون عن طريق هذه العدالة، إنما يوقعون كل وسائل إدراكهم ومعارفهم في مسئولية هذا الفسوق والعصيان ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ (٤) . .

وعن هذه التخصيص من خصائص العلم والعلماء في حضارة الإسلام، عبر الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩ هـ، ٧١٢ - ٧٩٥ م] عندما وصف «العلم» بأنه «دين»، ودعا الناس إلى التدقيق فيمن يأخذون عنه هذا «العلم: الدين»!! . . فقال: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه. لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ، عند هذه الأساطين - [وأشار إلى مسجد المدينة] - فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو ائتمن

(٣) الحشر: ٢١ . (٤) الإسراء: ٣٦ .

على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن»^(٥) !! . .
فهو يطلب «العدالة الدينية» - عدالة الخشية من الله ، تقوى العلماء - التى لا
تغنى عنها «عدالة الدنيا» . . فالدراية فى شئون الدنيا لا تغنى عن الدراية فى
شئون العلم والدين . . و«الدراية» فى العلم لا تغنى عن التقوى والعدالة
فيه! . .

وإذا كانت الحضارة الغربية ، التى عزلت - بـ «الوضعية» و«العلمانية» -
عزلت «المعرفة» عن «الدين» ، بل وجعلت «وضعيته» هذه من «الدين» :
وضعا بشريا ، وإفرازا إنسانيا . . حتى لقد قبلت ورضيت أن يكون واضح
[تعاليم الدين الوضعى] لها ، وصاحب [الفلسفة الوضعية] التى صبغت
نهضتها الحديثة ، هو «أوجست كونت» [١٧٩٨ - ١٨٥٧ م] ، ذلك الذى
أعانتة على صياغة المذهب «بَغْي» أثناء احترافها للبعاء!! . . ثم
تزوجها!! . . وانفصل عنها ليهيم بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة
الشرطة . . ليلهمه هيامه بها معلما من معالم مذهبه ، فى «خضوع العقل
للقلب»^(٦)!! . .

إذا كان هذا هو حال «علم» و«علماء» المعرفة الحسية - الوضعية . .
العلمانية - الذى رضيته الحضارة الغربية ، فلم ترفيه ما يقدر فى «عدالة
العلماء» ، لأنها لم تشترط أصلا هذه العدالة ، لفصلها «السماء» عن «الأرض»
و«الآخرة» عن «الدنيا» و«الوحى» عن «الكون» و«الشرعى» عن «المدنى» . .
فإن هذا لم يكن حال الحضارة الإسلامية التى طلبت من «عدالة العلماء»
أكثر مما طلبت من «عدالة الأمراء»! . .

(٥) مقدمة [الموطأ] - ص ٢١ - طبعة دار الشعب - القاهرة - نقلا عن [الديباج المذهب فى معرفة
علماء المذهب] ، لابن فرحون .

(٦) [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ - إشراف : د . زكى نجيب محمود . طبعة
القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م .

وها هو ذا أبو عثمان عمرو بن عبيد [٨٠ - ١٤٤ هـ - ٦٩٩ - ٧٦١ م] فارس الثورة ، وصرح العقلانية وذروتها نرى «العدالة» قد أكملت صياغته الإسلامية ، فرأيناه الرجل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال ، حتى ليشتهر بين الجمهور بأنه «خير الناس»!! . . ونقرأ فى المأثور عنه - ليس فقط فكر الثورة الذى يزلزل العروش ويقلب النظم والدول ، ومذاهب الفلسفة التى تعلو من مقام العقل - وإنما أيضا الأدعية الماثورة التى كان يقول فيها مناجيا ربه : «اللهم اغنى بالافتقار إليك ! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك ! . . اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة»!! . .

كما تؤثر عنه الحكمة القائلة : «إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب»!! . . والسيرة والسلوك اللذين جسدا هذه العدالة حياة واقعية عاشها هذا «الفيلسوف - الثائر» . . فمع أنه القائد المطاع فى قومه وأنصاره ، يحج إلى بيت الله الحرام ، سيرا على قدميه - من البصرة إلى مكة - أربعين مرة ، فى أربعين عاما . . وخلفه بغيره ، يحمل عليه الفقراء والضعفاء . . !! (٧) .

ذلك هو شرط «العدالة» الذى تطلبه الإسلام فى «العلماء» ، وتلك هى صورته التطبيقية فى حضارة الإسلام ، وهذا هو تميزها فيه عن غيرها من الحضارات . .

* * *

ولذلك ، فإن العجب يزداد ، والدهشة تتزايد ، عندما نرى فى حياتنا «الفكرية» الراهنة بعضا من «تلامذة التنوير - الغربى - العلمانى» الذين يقدمون أنفسهم للقراء على أنهم «مجتهدون» فى الإسلام ، و«مجددون» فى فكره ، مع افتقارهم وافتقادهم للحدود الدنيا من «دراية» العلم و«عدالة» العلماء . . بل ومع اتصافهم بقدر من «سوء النية» فى عرض حقائق الإسلام

(٧) انظر دراستنا عنه فى كتابنا : [مسلمون ثوار] ، ص ١٦٠ - ١٧٥ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٨ م .

ومذاهب فكره، يدخلهم في عداد، لا الذين افتقروا فقط إلى «عدالة العلماء»، بل والذين أحلوا «فسق الرأي» محل هذه العدالة!!! .

إن أمة من الأمم لاتستغنى عن «الرموز» التى تضيف عليها «الحرمة»، وتتخذ منها «الحوافز» التى تعينها على مواجهة التحديات . . فأرض الوطن . . والعلم الذى يرمز إليه . . والأبطال الذين فنوا فى سبيله . . والموروث الذى يمثل هويته وصبغة حضارته . . وكذلك الدين الذى تتدين به الأمة، والذى يمثل الإيمان به جماع مقومات الاجتماع البشرى للأمة . . وما لهذا الدين من عقيدة وشريعة وقيم وتاريخ ومعارك وبطولات ورموز . . إن أمة من الأمم لا تستطيع أن تحيا حياة حققة، ولا أن تجابه تحدياتها الداخلية والخارجية - وخاصة إذا كانت مستهدفة تاريخيا وحضاريا، كأمتنا العربية والإسلامية - إلا إذا هى أحلت «رموزها» المحل اللائق فى الاحترام والتوقير .

فإذا جاء من «تلاميذ - التنوير - الغربى - العلمانى» من يتخلى عن عدالة العلماء، ويتخذ «فسق الرأي» سلاحا لهدم هذه «الرموز»، فى حقبة تاريخية قد فرضت فيها على الأمة «حرب حضارية»، تسيل فيها الدماء وتهاجم المعتقدات وتضطهد الهوية على امتداد ديار الإسلام . . إذا حدث ذلك، فى مثل هذه الظروف فإننا نكون بإزاء «نزع لسلاح الأمة وهى فى حالة حرب ضروس»!!! .

وإذا كان المقام لا يحتمل الإطالة . . فسنضرب المثل على هذا اللون من ألوان التعامل «التنويرى - العلمانى» مع رموزنا - رموز الإسلام - التى أضفت عليها ذاكرة الأمة قدرا عظيما من «الحرمة» و«التقدير» . .

إن الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص [٢٣ ق . هـ - ٥٥ هـ ، ٦٠٣ - ٦٧٥ م] هو ثالث من دخل الإسلام . . وأول من رمى بسهم دفاعا عنه وعن نبيه، ﷺ . . وأحد العشرة - المهاجرين الأولين - الذين مثلوا أولى المؤسسات الدستورية فى تاريخ دولة الإسلام . . وهو فاتح القادسية، الذى أдал دولة

إحدى القوتين العظميين في إمبراطوريات ذلك التاريخ . . وصاحب « المناقب » التي جاءت في كتب السنة النبوية الصحيحة ، وتلقاها الأمة ، على مر تاريخها ، بالرضا والقبول . . .

فكيف تعامل « التنويريون - العلمانيون » مع « سعد بن أبي وقاص : الرمز » ؟ . . وكيف عرضوا صورته في كتبهم التي نشروها بحسابها « اجتهادا » في الإسلام ، و« تجديدا » في فكره ؟ . .

سنختار نموذج « الأستاذ » حسين أحمد أمين ، الذي كتب عن تأملاته في « حقيقة أمر السلف الصالح » . . ونشر هذه التأملات في إحدى المجلات ، ثم في كتابين - [حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية] ^(٨) ، و[الاجتهاد في الإسلام : حق هو أم واجب ؟] ^(٩) - وهي التأملات التي خلص منها إلى رأى قاطع قال فيه : « إن ماضينا هو - إلى حد كبير - من نسج خيالنا نحن وخيال مؤرخينا . . » ^(١٠) ! ! . .

فإذا كان هذا الماضي - الذي هو من أمضى أسلحة الأمة في الحروب الضروس القائمة ضدها اليوم - هو « خيال » ، نسجه « خيالنا وخيال المؤرخين » . . فماذا يكون نزع سلاح الأمة المحاربة ، التي فرض عليها القتال ، إذا لم يكن هذا التقييم لماضى الأمة نزعا للسلاح ، يتزامن مع نزع كل أنواع السلاح في ديار العرب والمسلمين من دون الناس أجمعين ؟ ! . .

إن الثقافة الغربية قد صنعت من أساطير اليونان علما ، تعبدوا ويتعبدون - ومعهم « التنويريون - العلمانيون » من أبنائنا - في محرابه - محراب هذه

(٨) انظر هذه التأملات في طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٥ - ص ١٠١ - ١١٢ .

(٩) انظر هذه التأملات في طبعة القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م - في سلسلة «المواجهة - التنوير» - ص ١٦٠ - ١٧٢ .

(١٠) [حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية] ، ص ١١٢ . و[الاجتهاد] ، ص ١٧٢ .

الأساطير-!! . . ومع ذلك ، يقال هذا عن تاريخنا ، الذى خضعت رواياته لقواعد علم «الحديث» فى «الجرح والتعديل» - وهو علم يمثل إحدى مفاخر حضارتنا ، باعتراف الغربيين أنفسهم - . . فهل يتناسب هذا التقسيم إلى «العدالة العلمية»؟ . . أم إلى «فسق الرأى» - بتعبير «سلفنا الصالح»؟!

وإذا كان تاريخنا خيالاً . . فكيف «مسخ» «الأستاذ» حسين أمين «رمز» سعد بن أبى وقاص فى الخيال الإسلامى . . فحوله من مكانته كواحد من طليعة السابقين إلى الإسلام ، والعُمْد التى أقامت الدين ، وبنت الدولة ، وأحد المبشرين بالجنة . . حوله من هذه المكانة إلى مكانة الرجل الذى لا يعدل إذا قضى . . ولا إذا قسم بين الناس؟! . . بل والذى لا يحسن حتى «الصلاة» ، التى أسلم حتى قبل أن يفرضها الله على المسلمين؟! . .

ويا ليتة قال إن هذا هو رأى ، الذى أخالف به دنيا المسلمين ، من رسول الله ، ﷺ إلى آخر كتاب السيرة والتاريخ . . ليتة صنع ذلك بحسبانه مذهباً يذهب به أو رأياً يراه . . بل الطامة الكبرى أنه يقدمه بحسبانه «حديثاً» من «الأحاديث» التى ينقلها عن كتب السنة النبوية - بروايته وعنناته - ليقول لنا إن «سعداً: الرمز» هو «خيال المؤرخين» . . أما «سعد: الحقيقة» و«حقيقة السلف» فلا علاقة لها بهذا المقام العظيم!! . .

يسوق «الأستاذ» حسين أحمد أمين هذه «الجنائية» على رموز الأمة وأبطالها ، والتى «نضبطه» الآن متلبساً بها . . «ونحرر» وقائع «الضبط» ونعرضها على الأمة ، طالبين منها الرأى فى أهل «التنوير - الجديد» و«الاجتهاد - الشاذ» - لتبين الأمة أهل «العدالة العلمية» من أصحاب «الفسوق فى الرأى»!! . .

لقد عرض «الأستاذ» حسين صورة سعد بن أبى وقاص ، فى صورة حديث يقول :

«عن جابر بن سمرة : شكوا أهل الكوفة سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن

الخطاب ، فقالوا : إنه لا يحسن أن يصلى . فبعث عمر رجالا يسألون عنه بالكوفة ، فقليل لهم : أمّا إذا نشدتمونا بالله ، فإن سعدا لا يعدل في القضية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يسير بالسريّة» . .

فهو قد قدم إلى القراء «حديثا» ، بسنده ، وميزه بين علامة التنصيص - [« . . . »] - ليقول للقراء : هذا هو «سلفكم الصالح» . . وتلك هى «حقيقته» التى لا علاقة لها «بالخيال» الذى صنعتموه أنتم وكتاب التاريخ ! . .

وأذكر ، أن «الأستاذ» حسين قد كتب هذا ، أول ما كتبه ، «مقالا» فى مجلة [المصور] - القاهرية - عندما «وظفت» كتاباته لمواجهة التيار الإسلامى ، بعد انتخابات سنة ١٩٨٤م ، التى دخل فيها بعض ممثليه إلى مجلس الشعب ، للمرة الأولى ، متحالفين مع «حزب الوفد الجديد» . . ولم أكن أتابع المجلة . . حتى لقينى الأستاذ الدكتور جلال أمين - شقيق «الأستاذ» حسين - فحدثنى عن رغبة حسين فى أن يعرف رأى فيما يكتب . . فكان مقاله «تأملات فى حقيقة أمر السلف الصالح» هو أول ما قرأته من هذه المقالات . .

واستلفت نظرى ، يومئذ ، أن الكاتب لا يذكر مصدرا واحدا لأى اقتباس يقتبسه أو نص يستشهد به ! . . الأمر الذى «يُصعّب» على الإنسان التحقق من صدق الاستشهاد ودقة الاستنتاج ! . . وزادت حيرتى أمام «الحديث» الذى قلب به صورة سعد بن أبى وقاص . . إلى أن لقيتّه - فى دار الشروق - بمصر الجديدة - صدفة - عقب نشره لهذا المقال . . ودار بيننا حديث سألتّه فيه عن الحكمة فى تصوير تراثنا وأعلامنا ورموزنا على هذا النحو ، فى زمن هم أسلحتنا فيه ، ونحن «نحارب» . . سألتّه :

- لمصلحة من تنزع سلاح الأمة ، وهى فى حالة حرب ؟! . .

ففاجأتنى إجابته :

- أنا أريد أن أشكك في كل شيء! ..

ودار بيننا حوار حاولت فيه التمييز بين «الشك المنهجي» - الذى هو السبيل إلى اليقين - وبين «الشك العبثى»، الذى يشكك من أجل الشك! .. ثم سألته :

- من أين أتيت بـ «الحديث» الذى صورت به سعد بن أبى وقاص على هذا النحو؟!

فقال :

- من [طبقات ابن سعد]^(١١) ..

فلما عدت إلى مكتبتى ، راجعت كل ما جاء عن سعد بن أبى وقاص في [طبقات ابن سعد] فلم أجد أثراً لهذا «الحديث»!! .. لكن الحمية لم تدع للنوم سبيلاً إلى .. فظللت أبحث في فهارس «الأحاديث» وكشافاتها حتى وصلت إلى «الحديث» في صحيحى «البخارى» و«مسلم» وفى [الموطأ] للإمام مالك وفى [مسند] الإمام أحمد .. وهنا كانت المفاجأة المذهلة .. بل الفجيعة فى أمانة وعدالة «الأستاذ» حسين أحمد أمين!! ..

وحتى لا أطيل .. ولا أتدخل أنا فى الحكم والتقييم .. فسأنقل نص الحديث كاملاً من البخارى ومسلم .. ثم أدع المقارنة .. والحكم والتقييم للقراء .. وللأمة التى يتقدم إليها «الأستاذ» حسين كرمز «للتنوير» الجديد و«الاجتهاد الإسلامى» الحديث! ..

يقول النص الكامل للحديث :

«حدثنا موسى ، حدثنا أبو عوانة قال : حدثنا عبد الملك بن عمير، عن

(١١) شهد هذا الحوار عدد من الأصدقاء .. فى دار الشروق - أذكر منهم مديرها العام الأستاذ إبراهيم المعلم .. والأستاذ أحمد الزياى .. وآخرين لا أذكر أسماءهم الآن .

جابر بن سمرة قال : شكوا أهل الكوفة سعدا إلى عمر، رضى الله عنه، فعزله . واستعمل عليهم عمارا . فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلى فأرسل إليه ، فقال :

- يا أبا إسحق ، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلى .

- قال أبو إسحق : تَعَلَّمْنِي الأعراب الصلاة؟! . أمّا أنا، والله ، فلمنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ، ﷺ ، ما أَخْرِمُ عنها، أصلى صلاة العشاء فأركد - [أطيل وأديم وأمد] - فى الأوليين ، وَأُخِفَ - [أقصر] - فى الآخرين .
- فقال عمر : ذاك الظن بك يا أبا إسحق .

فأرسل معه رجلا - أو رجالا - إلى الكوفة ، فسأل عنه أهل الكوفة ، ولم يدع مسجدا إلا سأل عنه ، ويثنون معروفًا ، حتى دخل مسجداً لبني عبس ، فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة ، يُكْنَى أبا سَعْدَةَ ، قال : أمّا إذا نشدتنا ، فإن سعدا كان لا يسير بالسريّة ^(١٢) ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية . - قال سعد : أمّا والله لأدعون بثلاث : اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا ، قام رياء وسمعة ، فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه بالفتن .

فكان ، بعد ، إذا سئل - [أى أسامة بن قتادة] - يقول : شيخ كبير مفتون ، أصابتني دعوة سعد . قال عبد الملك - [بن عمير ، راوى الحديث] - : فأنا رأيته ، بعد ، قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر ، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق يغمزهن! . .

هذا هو النص الكامل للحديث . . يصف فيه عمر - حتى قبل سماع رد سعد بن أبى وقاص على الشكوى - يصف فيه اتهام سعد بأنه لا يحسن

(١٢) أى لا يخرج قائداً للسرية فى الغزو . وقد تعنى : إنه لا يسير فىنا السيرة النفيسة .

الصلاة، بأنه «زعم»!! . . . ويبين فيه سعد أنه إنما كان يصلى فى الناس بصلاة رسول الله ، ﷺ ، وأن بعض «الأعراب» قد ظنوا أن الإطالة فى الركعتين الأوليين من العشاء ، والتقصير فى الآخرين ليس من قواعد الصلاة، فكانت شكوى هذا نفر من «الأعراب» . . . وفيه تأمين عمر على قول سعد : «ذاك الظن - [أى اليقين] - بك ، يا أبا إسحق»!! . . .

وفى الحديث أيضا، أن «المحقق» الذى أرسله عمر إلى الكوفة، ليتحقق من وقائع شكوى أهلها ضد سعد بن أبى وقاص، قد ذهب بصحبة سعد، فسأل «أهل الكوفة»، ولم يدع مسجدا إلا سأل عنه «أهل هذا المسجد» . . . والجميع «يثنون معروفًا» على سعد . . . إلا رجلا واحدا، من «أعراب» عبس، هو الذى انفرد باتهام سعد بهذه الاتهامات . . . فدعا عليه سعد، إن كان كاذبا، أن يطيل الله عمره، وفقره، ويعرضه للفتن . . . فاستجاب الله دعوة سعد بن أبى وقاص، لأن اتهام هذا «الأعرابى» لسعد - وانفراده بهذه الاتهامات دون أهل الكوفة ورواد سائر مساجدها - إنما كان «رياء وسمعة»!! . . .

هذا هو الحديث، الذى أخذ منه «المجتهد» حسين أحمد أمين «الاتهام» . . . وأغلق «علامة التنصيص» دون «التحقيق» و«حكم البراءة»، وثناء عمر بن الخطاب وأهل الكوفة على سعد بن أبى وقاص . . . صنع «المجتهد» حسين أمين هذا . . . وقدمه إلى القراء فى صورة «حديث» - مسند ومعنعن - ليهدم رموز الإسلام . . . وليهدم أبطال حضارته . . . وليجرد الأمة من سلاحها، وهى تخوض حربا ضروسا على العديد من الجبهات! . . .

فهل هذا هو «الاجتهاد الإسلامى الجديد»؟! . . . وهل هذا هو «البديل التنويرى» لـ «عدالة العلماء»؟! . . . وهل بهذا «الفسوق الفكرى» نواجه «الغلو الإسلامى»؟! . . . أم أن ذلك هو «الغلو العلمانى» الذى يستفز

ضمير الحليم، ويفجر براكين « الغلو » فلا تبقى ولا تذر شيئا في حياتنا إلا وحكمت عليه بالكفر والجاهلية ومعاداة الإسلام؟! . . .

هذا مثال لغيبة « الأمانة . . . والعدالة » في الحديث عن الإسلام . . . حديث « تلاميذ التنوير – الغربى – العلمانى » . . . والذى يقدمونه باعتباره « الاجتهاد الإسلامى الجديد » . . . بل ويرونه « فرضا » عليهم ، وليس مجرد « حق » من « الحقوق »! . . .

فهل « فرض » عليهم أن « يفرضوا » علينا هذا « الفسوق الفكرى »؟! . . .

* * *

ومثال آخر على « الهزل » الذى يقدمون ، فى معرض تناولهم للإسلام . . . بل ولعقائده . . . وقيمه ، و« الثوابت » فيه . . .

فلقد سبق وكتب سلامة موسى ، فى عشرينيات هذا القرن ، داعيا إلى تطوير « العقائد » الدينية بما يتفق ومتغيرات العصر . . . بل ودعا إلى قيام لجنة تؤلف كتب « مقدسة » تناسب هذه التطورات المعاصرة . . . وإلى أن تنقح هذه الكتب « المقدسة » سنويا ، لملاحقة هذه التطورات . . . وحدثنا عن أنه يتبنى فى هذا « الهزل » رأيا للكاتب الإنجليزى « هـ . ج . ويلز » [١٨٦٦ - ١٩٤٦ م] . . . وجاء الاقتراح من سلامة موسى ، ومر ، دون أن يقف أمامه أحد من العقلاء ، باعتباره لونا من « الهذيان » الذى لا يدرك صاحبه الفوارق ما بين « الثوابت » و« المتغيرات » . . . ما بين « الأصول » و« الفروع » . . . ما بين « الوضع الإلهى » الخالد و« الوضع البشرى » المتطور والمتجدد . . .

لكن الذين أحلوا « الفسوق الفكرى » محل « العدالة العلمية » ، فى واقعنا الثقافى المعاصر ، أبوا إلا أن يعيدوا « هزل » سلامة موسى من جديد . . . وزادوا على الرجل عندما قدموا « هزله » بحسبانهم معلما من معالم « الاجتهاد الإسلامى » الجديد!!! . . .

ففى كتاب عنوانه [الاجتهاد فى الإسلام]، يقدمه «الأستاذ» حسين أحمد أمين باعتباره «التنوير» الذى «يواجه» المشروع الإسلامى . . كتب يقول : «إن المفاهيم والمعتقدات والقيم فى أى دين لا تبقى أبداً على حالها . . . إن إعادة تفسير العقيدة، على ضوء التغيرات المستمرة، من أجل مجابتهها مجابهة إيجابية، أمر لا غنى عنه إن نحن أردنا لهذه العقيدة البقاء . . .» (١٣) !

وهو هنا لا يتحدث عن تطور «الفقه» و«القانون» و«النظم» و«الآليات» . . وإنما يطلب تطوير «العقائد» و«القيم»، أى «قطاع الثوابت» فى أى دين من الأديان . . . والذى لو تطور وتغير لما كان على وجه هذا الكوكب، فى عصرنا هذا، بل وقبله بعصور، أى دين من الأديان! . . .

ونحن نسأل : إلى ماذا؟ . . وعلى أى صورة تتطور عقائد مثل : «اللاهوتية»؟ . . و «التوحيد»؟ . . و «الخلق»؟ . . و «النبوة والرسالة»؟ . . و«الوحي»؟ . . و«الملائكة»؟ . . و«عالم الغيب» . . واليوم الآخر . . والحساب والجزاء»؟ . . إلخ . . إلخ . .

وإلى ماذا تتطور «قيم الدين» فى : «الخير»؟ . . و «الحق»؟ . . و«الصدق»؟ . . و«الأمانة»؟ . . و«العدالة»؟ . . و«الإيثارة»؟ . . !

وهل تتطور «العدالة»، مثلاً، فى العلم والفكر، فتصبح هذا الذى صنعه «الأستاذ» حسين مع حديث «جابر بن سمرة» عن سعد بن أبى وقاص؟ . . !

بل إن أمر هذا «الاجتهاد الجديد» لم يقف عند هذه الحدود . . «فالأستاذ» حسين أمين، لتطوير عقائد الدين وقيمه، يقترح قيام لجنة تشترك فيها كل التخصصات التى لا علاقة لها بالدين . . بل ويطلب أن يشترك غير المسلمين فى «لجنة تطوير عقائد الإسلام» . . فيشترك، مثلاً، أهل «اللاهوت

(١٣) انظر: صفحة ١٨ ، ٢٠ .

التثليث» في تطوير «توحيد القرآن الكريم»!! . . و«عبدة الإله «رام» في تطوير عقائد المصلين في «المسجد البري»!! . . و«السلفية» يطورون — إذا عممنا هذا «الاجتهاد» خارج الإسلام — عقائد اليهود والنصارى!! . . و«ماركس» يطور «الليبرالية»!! . . و«آدم سمث» يطور «البيان الشيوعي»!! . . وهكذا . . تعم نعمة «الاجتهاد»، فتتطور كل «المعتقدات»!!

يقدم «الأستاذ» حسين هذا «الاجتهاد الجديد» فيكتب متسائلا: «أليس من المصلحة أن تتصدى لإعادة تفسير العقيدة على ضوء المتغيرات المستمرة، جماعة أو لجنة أو هيئة دائمة تضم نخبة، لا من علماء الدين وحدهم، وإنما أيضا من كبار الخبراء في علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة، وفي علوم التاريخ والمستقبل والتحول الاجتماعى، والأطباء وعلماء النفس واللغة وغيرهم، سواء كانوا من العلمانيين أو من غيرهم، مسلمين أو غير مسلمين، من أجل المساهمة بمداولاتهم ونتائج نقاشهم في الوصول إلى صياغة جديدة»(١٤)؟!

فأصحاب هذه التخصصات، من المسلمين وغير المسلمين، ومن العلمانيين والإسلاميين، ليسوا مدعويين لتطوير رؤية الإسلام في تخصصاتهم، وإنما يدعوهم «الأستاذ» حسين لتطوير «عقائد» الإسلام!! .

ولا يقف عمل هذه «اللجنة الدائمة» عند «التطوير المستمر» للعقائد والقيم . . وإنما هى مدعوة، كذلك، لإعادة النظر في «الفرائض» و«العبادات» . . «فالأطباء مطالبون بالإدلاء برأى الطب في تأثير الصوم على نمو الصبيان، وصحة الشيوخ . والاقتصاديون مطالبون ببياناتهم عن حجم الإنتاج في شهر رمضان»(١٥)!

وواضح من وضع «الأستاذ» حسين لهذا «البند» في جدول أعمال «اللجنة

(١٤) [الاجتهاد في الإسلام]، ص ٢٠ . (١٥) المرجع السابق . ص ٢٣ .

الدائمة لتطوير عقائد الإسلام» نوع «التطوير» الذى يريده هو لفريضة الصوم - وهى واحدة من أركان الإسلام - !! . . . والرجل لم يسأل نفسه :

- كيف بنت هذه الأمة حضارتها - التى جعلت منها العالم الأول على هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون - وهى قائمة بأداء فريضة الصوم ، عبادة لله ؟ . . .

- وكيف أحرزت هذه الأمة أعظم الانتصارات الحربية فى رمضان ، ومجاهدوها صائمون - [من غزوة بدر الكبرى فى ٢٠ رمضان سنة ٢هـ - ٦٢٤م . . . وحتى أحدث انتصاراتها فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م] ؟ . . .

- وكيف لا يزال المنتجون اليوم هم الصائمون ! . . . والمفطرون هم الصعاليك ؟ . . .

- وأما تأثير الصوم على نمو الصبيان ، وعلى صحة الشيوخ . . . فهو تساؤل أجاب عنه «عُمَر» هذه الأمة ، و«صمودها» أمام أشرس التحديات ! . . .

لم يسأل «الأستاذ» حسين أمين نفسه هذه الأسئلة ، ليستقرئ أجوبتها من تاريخ الأمة ، وواقعها المعاصر . . . وإنما مضى ليقترح «بندا» ثانياً فى «جدول أعمال اللجنة الدائمة لتطوير عقائد الإسلام» . . . وهو النظر «فى موضوع حصة الأنثى من الميراث ، التى هى نصف حصة الذكر ، وما إذا كان من المصلحة ، على ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية الراهنة إعادة النظر فيها . . .» (١٦) !!

ومرة أخرى - وبصرف النظر عن خطأ - بل وخطيئة منهج الدعوة لتغيير ثوابت الأحكام والفرائض الدينية - . . . فإن «الأستاذ» حسين لم يتدبر الأمر فيسأل نفسه :

(١٦) المرجع السابق . ص ٢٣ .

- هل صحيح أن نصيب الأنثى من الميراث ، في الإسلام ، هو دائما على النصف من نصيب الذكر؟ . . وألا تأخذ البنت - وهى أنثى - من تركة أبيها أكثر كثيرا مما يأخذ أبوه - وهو ذكر -؟! . . وألا ترث البنتان أكثر حتى من عشرات الذكور لو اجتمعوا معهما في ميراث؟! . . وألا ترث البنت أكثر من الأم وكلتاها أنثى؟!

وألا تقوم فلسفة الميراث في الإسلام على معيار «القرب» من المتوفى . . ومعيار «عبء الإنفاق» . . ومعيار «علاقة الجيل الوارث بالمستقبل التالى لجيل المتوفى . . أو بالماضى السابق لجيله»؟! . . أليست تلك هى معايير أنصبة التوريث ، التى تتقدم على غيرها من المعايير ، بما فى ذلك ذكورة وأنوثة الوارثين؟! . .

لم يسأل «الأستاذ» حسين نفسه شيئا من ذلك . . فكل الذى يهمله هو «تغيير العقائد والقيم» ونسخ الشرائع والفروض والأحكام!! . .

ثم مضى الرجل - «المجتهد!» - ليقترح «بندا» ثالثا فى «جدول أعمال هيئة التطوير لعقائد الإسلام» ، وهو «رأى علماء النفس والاجتماع فى عواقب حجاب المرأة . . وصحة الزعم بأن نسل المحجبات أضعف من نسل السافرات ، لما لهذا الموضوع من أهمية تتعلق بالتكوين البدنى لأفراد الجيل التالى فى مجتمعنا» (١٧) !

وهى - قضية الحجاب - قضية لا نقول ، فقط ، إنها فريضة قرآنية وثابتة من ثوابت الدين - ولكن نقول ، أيضا ، إن «الأستاذ» حسين لو سأل نفسه :
- متى ظهر السفور فى حياة أمتنا؟! . . وألم يبدأ بقله من النساء اللاتى اقتربن وتقربن من جنود الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م . .؟! . .

(١٧) المرجع السابق . ص ٢٤ .

وهل كان نسل الأمة ضعيفا قبل ظهور السفور، منذ هذا التاريخ القريب؟! . .

- ثم . . ألا تزال النسبة التي تزيد عن ٩٠٪ من نساء الأمة - في الريف والبادية والأحياء الشعبية بالمدن - محجبات؟! . . فهل ضعف نسل هذه الطبقات - وهي جسم الأمة الأكبر - بسبب الحجاب القائم حتى الآن؟! . .

وهل رأى «الأستاذ» «المجتهد» أن نسل «الأحياء الإفرنجية - وما مثلها» في مدننا أقوى وأنفع وأكثر إنتاجا من نسل المحجبات؟ حتى يقترح - مع تطوير عقائد الإسلام - تطوير «الحشمة الشرقية» التي عرفها الشرق حتى قبل ظهور الإسلام؟! . . والتي تشارك الإسلام في الدعوة إليها كل الديانات؟! . .

أخشى أن أقول إن مثل هذا «الفكر» هو أقرب إلى «الهزل» منه إلى «الجد» . . وأقرب إلى «خفة الظل» . . والوزن . . وربما العقل أيضا» منه إلى ما تعارف الجميع على تسميته بالفكر «فضلا عن الاجتهاد»!! . .

* * *

وبعد الافتراء على «الواقع»، يأتي دور الافتراء على «التاريخ» . . فيزعم «الأستاذ» «المجتهد» «أن المسلمين الأوائل قد أبدوا همة عظيمة في سبيل تطوير العقيدة والشريعة والمفاهيم الإسلامية حتى أغلق باب الاجتهاد»^(١٨)!! . .

ولم يقل لنا الأستاذ:

- كيف طور المسلمون العقيدة والشريعة واجتهدوا في ذلك، وهي قد جاءت في نصوص قطعية الدلالة والثبوت، قرروا هم أنه لا يجوز معها الاجتهاد؟! . .

(١٨) المرجع السابق . ص ٢٥ .

- وما هي الصور التي طوروا عليها عقائد التوحيد . . والألوهية . . والنبوة والرسالة . . والقدر . . والغيب . . والملائكة ؟! . . والصور التي تطورت إليها الشريعة ، كفلسفة للفقه والقانون ، وكحدود ثابتة وكقواعد للجزاء ؟! . .

- وألم يحدث إجماع الأمة على أن الاجتهاد والنمو والتطور إنما هي في الفروع وعلومها . . والنظم والآليات والمؤسسات . . لا في الأصول والثوابت والقيم والأركان ؟! . .

لم يسأل « الأستاذ » « المجتهد » نفسه شيئاً من ذلك . . ولو جمع إلى « التدبر » ما هو ضروري من « عدالة العلماء » ، ما خاض في هذا الميدان ، على هذا النحو غير المسبوق في تناول عقائد وثوابت الإسلام . . وهو التناول الذي يجعلنا نترحم على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ، ١٠٥٨ - ١١١١ م] ذلك الذي جعل عنوان أحد كتبه : [إلبام العوام عن علم الكلام]!! . . .

لكنه النموذج « الهزلي - المفتقر إلى العدالة » لـ « تلاميذ » « التنوير - الغربي - العلماني » عندما يعيث بثوابت المقدسات ! .

التجديد الإسلامى وتزوير تلامذة التنوير

توشك الفروق بين «التنوير الغربى» و«التجديد الإسلامى» أن تجعلهما على طرفى نقيض . .

● ففلسفة «التنوير» ، كما عرفت أوروباً فى القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت حركة «إحياء - حضارى - لا دينى» ، أحلت «العقل . . والعلم . . والفلسفة» محل «الله . . والدين» ، وخاصة فى شئون الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى . . بينما «التجديد الإسلامى» ، على مر تاريخ الإسلام وحضارته ، هو «إحياء دينى» ، لأن «التجديد» آلية فكرية تزيل عن ثوابت الدين ومبادئه وأركانه - فى العقيدة والشريعة والقيم - بدع الزيادة والنقص ، وشوائب التصورات الغربية ، فتعيد للمنابع نقاءها ، ليكون فعلها أفضل وعطاؤها أكثر وموردها أكثر صفاء . . ثم هى أيضاً - آلية التجديد الإسلامى - تطور وتنمى فى الفروع بما يواكب المستحدثات ، ويظلل المساحات الجديدة فى المتغيرات الدنيوية المتطورة والنامية أبداً . . وتفعل الشئ نفسه مع متغيرات الأماكن والأعراف والعادات . .

ففارق أكيد بين «إحياء دينى» و«إحياء لا دينى» ! . .

● ولقد جاء التنوير الغربى ثورة على الكنيسة والبابوية واللاهوت ، احتبست النصرانية الغربية داخل الكنائس ومدارس اللاهوت وأطر

العلاقات الفردية بين الإنسان وخالقه ، لينفرد إحيائها العلماني - اللاديني - بميادين الدنيا والاجتماع البشرى والعمران الإنسانى - دولة . . وسياسة . . واجتماعا . . واقتصادا . . وقيا . . ومناهج للبحث . . ونظريات للمعرفة والإدراك . . إلخ . . إلخ - . . بينما مثل «التجديد الإسلامى» ، على مر تاريخه ، إعمالا لقانون إسلامى ، وسنة نبوية شريفة ، جعلاً منه القاعدة التى يجب أن تسود أبداً فى حياة الفكر الإسلامى . . ففيما روى عن رسول الله ، ﷺ ، قوله : «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»^(١) . . حتى لقد تحول «التجديد» إلى علم وفن تؤلف فيه وفى أعلامه الرسائل والأسفار فى تراث الإسلام وتاريخ المسلمين . .

ففارق أكيد بين «ثورة على الدين» وبين «سنة من سنن الدين» ! . .

● ولقد جاء «التنوير الغربى» ليقف بمصادر المعرفة والعلم عند سنن الكون المادى وقوانينه ، رافضاً أن يكون عالم الغيب ، والوحى الذى جاء بنبيه مما يعتمد عليه كمصدر للعلم والمعرفة . . بينما كان «التجديد الإسلامى» دائماً إسلامياً ، يعيد التكامل والتوازن إلى مصادر المعرفة ، وهى آيات الله فى كتابه : كتاب الوحى المقروء ، وكتاب الكون المنظور . . فمهمة «التجديد» تحقيق تكامل مصادر المعرفة ، عندما يحدث خلل فى تكاملها ، بغية واحد منها . . وتحقيق التوازن بينهما إذا حدث طغيان من أحدهما على الآخر .

ففارق بين «تنوير - علماني» يسقط الوحى من مصادر المعرفة ومراجع العلم . . وبين «تجديد إسلامى» يقيم المعرفة والعلم على «ساقى : الوحى . . والوجود» ، ويحقق تكاملهما وتوازنهما . .

● ولقد جاءت فلسفة «التنوير - الغربى - العلماني» لتقف بسبل المعرفة

(١) رواه أبو داود

عند «العقل . . والتجريب» ، نافية عن السبل الأخرى جدارة إدراك العلم الحقيقي والمعرفة الحقة . . بينما ظل «التجديد الإسلامى» وفيها للمنهاج الإسلامى فى تكامل سبل المعرفة الإنسانية الأربعة : «العقل . . والنقل . . والتجريب . . والوجدان» .

ففارق بين «تنوير - علمانى» يقف بسبل المعرفة عند «المحسوس . . والمعقول» - أى عند مدركات الإنسان الحسية والعقلية . . وبين «تجديد إسلامى» يفتح للمعرفة الإنسانية أبواب «المطلق» ، ولا يقف بها عند «النسبى» ، المحكوم بالقدرات النسبية للملكات وطاقات «العقل» و«الحواس» . . «فالتأليه» ، فى «التنوير العلمانى» ، للملكات الإنسان . . بينما هو، فى «التجديد الإسلامى» ، لله سبحانه وتعالى ، الذى لم يترك معارف مخلوقاته ، فقط ، لهذه الملكات ! . .

● ولقد تميز «التنوير الغربى» بالسياق التاريخى والملابسات الحضارية والطبيعة الخاصة للنصرانية الغربية ، تلك التى ظهر فيها ، والتى استدعته ، واستنفرت ليخوض معها صراعه الطويل والمرير . .

فالنصرانية «دين» بلا «شريعة مدنية للشئون العمرانية» ، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ورسالة لاهوتها : خلاص الروح . . ومهمة كنيستها : مملكة السماء . . فلما تجاوزت «البابوية» إطار «الروح» واغتصبت السلطة «الزمنية» أيضا ، فقدست الدنيوى ، وجمدت المتغير ، ووضعت الدنيا فى قوالب الدين . . جاء «التنوير - العلمانى» ثورة تعيد البابوية واللاهوت والكنيسة إلى مواقعها الطبيعية والأصلية . . بينما السياق الإسلامى والملابسات التاريخية والحضارية الإسلامية ، والطبيعة المتميزة للرسالة الإسلامية ، لم تعرف شيئا من هذا «الفعل» الذى جاء «التنوير الغربى» «رد فعل له» ! . .

فالإسلام قد تميز بوسطيته الجامعة بين «الدين» و«الدولة» ، على النحو الذى لا تتحول فيه «الدولة» إلى «دين خالص» ، يقدسها ويجمدها . . وإنما

تظل ، بهذه الوسطية ، «دولة . . مدنية» تحتكم إلى «الشريعة . . الإلهية» ، وإلى «العقل . . والتجريب» المحكومين بضوابط «الشريعة - الإلهية» . . فالأمة ، في دولة الإسلام ، هي مصدر السلطات ، في ظل سيادة الشريعة وحاكميتها وحدود الحلال والحرام الديني . .

وهذا النمط الوسطى المتميز - في النسق الإسلامى - هو الذى ميز جميع ألوان العلاقة فى ثنائيات : «الدنيا» و«الآخرة» . . «الفرد» و«المجموع» . . «الذات» و«الآخر» . . «الروح» و«المادة» . . إلخ . . إلخ . .

فافترق «التجديد الإسلامى» عن «التنوير - الغربى - العلمانى» ، لاختلاف السياق والملابسات والمشكلات والتحديات . .

● ولاختلاف الملابسات ، فى السياقين الحضاريين - الغربى . . والإسلامى - كان اختلاف مهمة «التنوير الغربى» عن مهمة «التجديد الإسلامى» . . فالتنوير الغربى قام ليزيح حقبة البابوية ولاهوتها من مجرى سلسلة تواصل مراحل الحضارة الغربية ، فأسقط الحقبة الدينية النصرانية من سياق الحضارة والعمران ، ليجعل إحياء الحديث ونهضته الحديثة تواصل مع الطور والحقبة التى سبقت تدين أوروبا بالنصرانية . . الحقبة «الإغريقية - الرومانية» ، ومؤسسا هذا الإحياء التنويرى على كلاسيكيات وإنسانيات أوروبا قبل النصرانية . . فكأنه قد حذف من مكونات حضارته تلك «الجملة المعترضة» - النصرانية ، على الأقل فى شئون الدنيا وميادين العمران الاجتماعى . . بينما مثل «التجديد الإسلامى» العكس تماما . . فكانت مهمة المجددين ، على مر تاريخ الإسلام ، تجديد خيوط الاتصال وتوثيقها بالمنابع الجوهرية والنقية للإسلام . . وإزاحة الشوائب والعقبات والبدع من قنوات الارتواء من تلك المنابع ، لضمان التواصل الحضارى ، وحتى يكون الإحياء دائما وأبدا إسلاميا ! . .

هكذا ، جعلت الفروق بين «التنوير - الغربى - العلمانى» وبين «التجديد

الإسلامى» . . جعلت منهما - من حيث الفلسفة . . والمنطلقات . . والمقاصد
- نموذجين من نماذج الإحياء يقفان على طرفى نقيض !! .

لكن «تلاميذ» التنوير الغربى العلمانى ، فى واقعنا العربى الإسلامى ، لا
يرون هذه الحقائق . . بل لقد بلغ بهم الأمر إلى حد خلط الأوراق على نحو
عشوائى . . فزعموا - إبان حملتهم التى استدعوا فيها «التنوير - العلمانى»
ليواجهوا به «المشروع الإسلامى» فى النهضة والتغيير - زعموا أن «المجددين
المسلمين» هم «تنويريون» ، بالمعنى الغربى للتنوير، وذلك عندما وضعوا
أعلام التجديد الإسلامى ، الذين ارتادوا ، فى عصرنا الحديث ، ميادين تجديد
الإسلام ليجددوا به دنيا المسلمين . . وضعوهم فى سلة واحدة مع النخبة
التي انبهرت بالغرب ، وتبنت فلسفته فى التنوير، ونمطه العلمانى فى النهضة
والإحياء . . .

فعندما نشروا صحائف «التنوير - الغربى - العلمانى» ، التى سودها
«جيل الرواد» - من أمثال [الإسلام وأصول الحكم] لعلى عبد الرازق .
و[مستقبل الثقافة فى مصر] لطفه حسين . . وكتابات سلامة موسى . .
إلخ . . إلخ . . رأيناهم قد وضعوا ، وسط هؤلاء : رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ -
١٢٩٠ هـ ، ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] ، وجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ -
١٣١٤ هـ ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] ، والإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ
١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] . . بل وكتبوا يقولون : لقد «كان نموذج رجل الدين
الذى سعى زمن التنوير إلى تأكيده . . هو نموذج رفاعة الطهطاوى وجمال
الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد فريد وجدى . .
وتمثل التراث التنويرى فى كتب الطهطاوى وفرح أنطون وشبلى شميل
وإسماعيل أدهم ولطفى السيد . . » (٢) !!

(٢) د. جابر عصفور: [محنة التنوير] ، ص ٣ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٣ م .

وهذا الصنيع الذى يضع «الإيمان» و«الإلحاد» فى سلة واحدة!! . .
والذى يخلط «التنوير - الغربى - العلمانى» بـ «التجديد الإسلامى» ، هو
صنيع يرقى فى نظرنا إلى مستوى «التزوير» ، الذى يستدعى وقفة علمية
موضوعية نتحقق فيها ، بالرجوع إلى كتابات أعلام «التجديد الإسلامى» ،
من صدق وصحة هذه الدعوى! . . هل حقا يقف محمد عبده مع فرح
أنطون؟! . . مع ما كان بينهما من خلاف وسجال؟! . . وهل يقف
الأفغانى ، المنافع عن «الاستقلال الحضارى» مع دعاة استعارة النموذج
الغربى ، بخيره وشره ، بحلوه ومره ، بما يُعاب فيه وما يُحمد ، بما يُحب فيه وما
يُكره؟! . . وهل يقف الطهطاوى : السنى . . الأشعرى . . صاحب رسالة
[القول السديد فى الاجتهاد والتقليد] مع إسماعيل أدهم صاحب [لماذا أنا
ملحد؟!] . . ؟! . . هل يقف «المجددون لدين الإسلام» ، كى تتجدد به دنيا
المسلمين» ، مع دعاة النهضة العلمانية التى تطوى صفحة الإسلام من دنيا
وشئون وميادين العمران؟! . .

تلك هى القضية التى تستدعى «تحقيقا» نتبين به حجم ما فى دعواها من
«تزوير» . . وهو «التحقيق» الذى سنقف بوقائعه عند نماذج ثلاثة من فكر
هؤلاء الأعلام المجددين . . الطهطاوى . . والأفغانى . . والأستاذ الإمام! . .

١ - رفاعة الطهطاوى

بين التنوير الغربى .. والتجديد الإسلامى

كان رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ، ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] أول عين للشرق على الغرب فى عصرنا الحديث . . ورغم الخلل فى صور المقابلة بين حال الشرق وحال الغرب يومئذ ، إلا أن التكوين الإسلامى - الأزهرى - للرجل ، وأيضاً تمثيله لمصر الناهضة بقيادة محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ، ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] يومئذ . . قد عصماه من « الانبهار » بالغرب ، ذلك « الانبهار » الذى « أدهش » آخرين ، فشل لديهم ملكات « النقد » و « التمييز » !! . .

بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بعقريه الطهطاوى فى موقفه النقدى من الحضارة الغربية . . ذلك الموقف النقدى الذى جسد أدق المناهج وأكثرها علمية فى علاقات الحضارات المتميزة بعضها ببعض الآخر . . منهج اكتشاف ميادين الفكر التى تمثل « المشترك الإنسانى العام » ، والدعوة إلى استلهاها . . وتلك التى تمثل « الخصوصيات الحضارية » ، والدعوة إلى الاحتفاظ بالهوية الخاصة والمتميزة فيها !! . .

فالطهطاوى ، الذى قرأ أعمال فلاسفة التنوير الغربى العلمانى ، رأيناه قد ميز بين :

● الفلسفة الوضعية ، التى أثمرتها فلسفة التنوير ، تلك التى وقفت ، فى

سبل المعرفة عند «العقل والتجريب»، رافضة «الوحى والشرع» . . وبين «علوم التمدن المدنى - الطبيعية - التجريبية» . . فقبل الثانية ، لأنها «مشترك إنسانى عام»، ورفض الأولى، داعيا إلى ضرورة الاعتماد على «الشرع» مع «العقل» . . والتجريب» . . وهذا هو منهج الإسلام، الرفض لمنهاج «التنوير - الغربى - العلمانى» ! . .

● كذلك، رفض الطهطاوى - مع «الوضعية» التى تعتمد «العقل المجرى . . والنواميس الطبيعية» وحدهما - «العلمانية»، التى تجعل «العقل . . والدنيا» مرجعية للقانون، دون الشرع الإلهى . . فرأيناه يدعو إلى التلمذ على أوروبا فى العلوم الطبيعية والمدنية، التى سبق وأخذتها عن المسلمين، لأنها هى المشترك الإنسانى العام بين كل الحضارات، . . مع إحياء وتجديد وتقنين الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى، ليواكب القانون الإسلامى مستجدات «الوقت . . والحال» . . فنأخذ عن أوروبا علوم «التقدم الوطنى»، ونغترف قوانيننا من «بحر الشريعة الغراء، الذى لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى» ! ! . .

● كذلك رفض الطهطاوى «علمانية التنوير الغربى»، تلك التى «هَمَّشَت» الدين والتدين فعزلته عن شئون الحياة وميادين العمران . . رفض الطهطاوى «وضعية التنوير الغربى . . وعلمانية» . . ودعا إلى مرجعية «الشرع . . والعقل . . والتجريب»، بدلا من مرجعية «العقل المجرى . . والنواميس الكونية» وحدهما . . ودعا إلى «إسلامية» الدولة والاجتماع، «بإسلامية القانون» . . كما دعا إلى إقامة العمران البشرى والمعارف الإنسانية على كتابى: «الوحى» و«الوجود» . . فكان النموذج المتميز «للتجديد الإسلامى» عن «التنوير - الغربى - العلمانى» . .

وإذا كانت كتابات الرجل - عبر أعمال ومراحل مشروعه الفكرى - هى شاهدنا على هذا الذى نقول، فنقذف بحقه على باطل «تلاميذ التنوير

الغربى»، ليدمغه فيزهقه!! . . . فإننا سنختار من هذه الكتابات نصوصا قاطعة الدلالة على هذه الحقائق، وأيضا شاهدة على تمثيلها لموقفه الثابت من هذه القضايا، منذ أن كتب كتابه الأول - وهو في باريس - [تخليص الإبريز في تلخيص باريز] - وحتى نهايات مشروعه الفكرى . .

● فهو يرفض العلمانية الغربية، التى «همشت» الدين، وعزلته عن شئون العمران الدنيوى، وجعلته شأنا فرديا خاصا . . حتى لقد أشاعت «الكفر» فى باريس، جاعلة فيها تلك «المفارقة» بين «التقدم فى العلوم المدنية» وبين الفلسفة اللادينية، فلسفة «البدع والضلالات» . . يرفض الطهطاوى هذا . . بل ويصوغ هذا الرفض شعرا يبدأ به هذا الموقف النقدى، المحتكم للمعايير الإسلامية، فيقول :

«أوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح أمّا هذا، وحقكم، عجيب!

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية . . التى تجلب الأنس وتزين العمران .

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيره له عليه، بل هو من الفرق المُحَسَّنَة والمُقَبَّحَة بالعقل . أو فِرْقَة من الإباحين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب . . ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية . إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من البدع المخالفة لسائر الكتب السماوية» . . .

● ثم يبلغ الطهطاوى قمة الحسم فى رفض «التنوير - الغربى - العلمانى»، الذى أقام المعرفة الوضعية على «العقل المجرد» . . و«النواميس

الطبيعية» وحدهما ، قائلًا إنه لا عبرة بتحسين العقل والتجريب أو تقبيحهما إلا إذا انضم «الشرع . . . والوحي» إليهما في التحسين والتقبيح . . . يبلغ في هذا الموقف النقدي قمة الحسم ، فيقول : «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدُّ به إلا إذا قرره الشارع . . . والتكاليف الشرعية والسياسية ، التي عليها نظام العالم ، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة ، الخالية عن الموانع والشبهات ، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه ، وليس لنا أن نعتمد على ما يُحَسِّنُهُ العقل أو يُقَبِّحُهُ إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه . . .

والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع . . . ومرجعها الكتاب العزيز . . . الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول ، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق ، كشرع الزواج المفضية إلى : حفظ الأديان ، والعقول ، والأنساب ، والأموال ، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض ، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها .

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى .

ولا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حَكَّمُوا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود ، بتعدى الحدود .

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة .

ومعلوم أن الشرع لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفسد ، ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة . . .»^(١) !

(١) الطهطاوى : [الأعمال الكاملة] ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٧٩ ، ٣٢ ، ٤٧٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٣ م .

فعلى حين رفع فلاسفة التنوير الغربى شعار : « لا سلطان على العقل إلا للعقل » ، قال الطهطاوى عنهم : « لا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حَكَمُوا عقولهم » المجردة وحدها ، دون الشرع !! . .

وعلى حين قال «التنويريون العرب» ، من جيل «الرواد» : إن الدين لا علاقة له بالسياسة ، وليس مقوما من مقومات الدولة وسياستها . . قال الطهطاوى : إن السياسة ، كالشريعة ، مبنيتان على «الحكمة المعقولة لنا» أو «التعبدية» التى جاء بها الوحي عن الله ، سبحانه وتعالى . . «وكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى» !! . .

وعلى حين قال «تلاميذ التنوير المعاصر» ، عندنا : «إن العقل قرين التجريب . . والعقل ضد النقل» !! . . قال الطهطاوى : « . . ينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة» !! . .

فأى «تزوير» ذلك الذى يضع الطهطاوى ، «المجدد الإسلامى» ، فى سلة ذلك «التنوير - الغربى - العلمانى» ؟ . .

● وفى الوقت الذى أقام فيه «التنوير - الغربى - العلمانى» معارفه على ساق واحدة ، هى «كتاب الكون المنظور» ، رافضا اعتماد الوحي - كتاب الله المقروء - مصدرا لهذه المعارف . . رأينا الطهطاوى منافحا عن المنهاج الإسلامى الذى يقيم المعارف الإنسانية على كتابى : السوحى ، والكون ، لتجمع بين علوم الشرع والطبيعة ، فيتحدث عن الآمال المعلقة على أهل الأزهر الشريف ، فى أن يضيفوا «المعارف البشرية المدنية» إلى «المعارف الشرعية» ، فيقول : «إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط - بعد ولى الأمر - بهذه العصا - [عصبة طلاب الأزهر وعلمائه] - التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر :

(أ) السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة .

(ب) معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية . . .»

ويؤكد على أن مطالبنا ومقاصدنا وغاياتنا من التواصل مع الغرب الحضارى، ليست استعارة خصوصياته وإنسانياته وفلسفاته المغايرة لإسلاميتنا، وإنما استعادة «العلوم الحِكْمِيَّة» . . . الطبيعية . . . التى هى مشترك إنسانى عام . . . تلك التى أخذها المسلمون عن اليونان، ثم طوروها، وأخذها الأوربيون عن المسلمين، ثم طوروها . . . فهى طلبتنا وغايتنا، وليست «وضعية العقل لا النقل» ولا «تنوير: لا سلطان على العقل إلا للعقل»!! . . . ينبه الطهطاوى على حقيقة تمثيل هذه العلوم الطبيعية . . . المادية . . . الموضوعية . . . المحايدة «للمشترك الإنسانى العام»، فيقول لأهل الأزهري: « . . . وإن هذه العلوم الحِكْمِيَّة العملية، التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»^(٢) . . .

يقول هذا، لا «ليسهل» قبول هذه العلوم على قومه . . . فلم يقل ذلك عن فلسفة الغرب ووضعيته وتنويره وعلمانيته . . . وإنما قال ذلك فقط عن «العلوم الحِكْمِيَّة العملية»، علوم «التمدن المدنى»، وهى غير الفلسفات والإنسانيات . . . فكان عبقرى إسلاميا فى تمييزه بين ما يقبل وما يرفض فى تفاعل الحضارات! . . .

● وعلى حين عزلت «علمانية التنوير الغربى» الدين عن «عرش القانون»، وأجلست مكانه «إرادة الإنسان»، حتى ولو أحلت الحرام الدينى وحللت الحرام الدينى . . . و«المصلحة» المجردة من «الاعتبار الشرعى» . . . وما أسمته بـ «القانون الطبيعى» - الذى لم تقل لنا من الذى وضعه!؟ . . .

(٢) المصدر السابق . ج ١، ص ٥٣٣، ٥٣٤ .

على حين صنعت «علمانية التنوير الغربى» ذلك مع القانون . . وسار على دربها «التنويريون العرب» ، فصاح على عبد الرازق : «يا بعد ما بين السياسة والدين» ! . . ونفى طه حسين أن يكون الدين أو اللغة من مقومات بناء الدولة . . وتخندق «تلاميذهم» دفاعا عن «القانون الوضعى» ، ذى الفلسفة الغربية فى التشريع ، وضد «إسلامية القانون» فى المجتمعات الإسلامية . . على حين تميز «التنوير العلمانى» - فى بلاد النشأة . . وفى دوائر «التبعية» ! - بهذا الموقف من الشريعة الإسلامية . . كان الطهطاوى واضحا وحاسما فى الرفض لعلمانية القوانين فى بلادنا ، بعد أن رفض علمنتها فى الواقع الغربى ، على النحو الذى سبقت إشارتنا إليه . .

فعندما ترجم [مجموع قوانين نابليون] ، نبه فى تقديمه لطبعته ، سنة ١٢٨٣هـ - ١٨٦٦م ، على أن الغرض من ترجمته هو الإحاطة بالقوانين التى يحكم بها التجار الأجانب فى بلادهم ، لتكون على دراية بها أثناء المخالطات والمعاملات التجارية الخارجية معهم ، وذلك «حتى لا يجهل أهل هذا الوطن أصول الممالك الأخرى ، لا سيما وأن علاقات الاقتضاء ، ومناسبات الأخذ والعطاء ، تدعو إلى الإلمام بمثل تلك الأصول الوضعية ، ليكون من يتعامل معهم فى تسوية الأمور على بصيرة . . .»^(٣) !

فلم تكن ترجمة [مجموع قوانين نابليون] - «الوضعية» - لتكون قانون الحكم والتقاضى فى بلاد المسلمين ! . .

وعندما ترجم الطهطاوى [قانون أحكام التجارة] - من مجموعة قوانين نابليون - نبه مرة ثانية فى مقدمة طبعتها ، سنة ١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م على أن الغرض من ترجمتها هو «معرفة أرباب التجارة عندنا بقوانين المعاملة الجارية عند الأجانب ، والاطلاع عليها لمن يعقد عقود التجارات معهم»^(٤) . . وليس استبدالها بالفقه الإسلامى فى المعاملات التجارية ! . .

(٣) المصدر السابق . ج ٥ ، ص ٣٦٧ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٨١م

(٤) المصدر السابق . ج ٥ ، ص ٣٦٩ .

فلما لمح الطهطاوى بداية الثغرة التى تسرب منها القانون الوضعى الغربى، جزئيا، إلى دائرة جزئية محدودة، هى الفصل فى المنازعات بين التجار المصريين والأجانب فى «المجالس التجارية المختلطة»، وأواخر ستينيات القرن التاسع عشر، عندما زادت المخالطات والمعاملات مع أوروبا، بعد عقد امتياز حفر «قناة السويس». . . عند ذلك هب الرجل مدافعا عن جدارة الشريعة الإسلامية بأن تكون لها الحاكمية فى القانون كله، وعن كفاءتها فى الوفاء بجميع مقتضيات «الوقت والحال»، إذا نحن نهضنا بالاجتهاد فيها والتقنين لتراثها. . . فكتب يقول:

«إن مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعا هم هؤلاء المشاركة، وجددت فيهم وازع الحركة التجارية، وترتب على ذلك نوع انتظام، حيث ترتب الآن فى المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالى والأجانب بقوانين فى الغالب أوربية، مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاية الأمور المستيقظين. . . ولكل مجتهد نصيب. . . ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية، ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية والصلح، وغير ذلك.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشاريعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع. . .» (٥)!

(٥) المصدر السابق. ج ١، ص ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠.

هذا هو رفاة الطهطاوى . . يدعو هنا إلى «إسلامية القانون» ، ويتحدث عن «بحر الشريعة الغراء ، المتفرع المشارع ، الذى لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى» . . . والذى ارتاد ميدان «اليقظة الإسلامية الحديثة» ، عندما دعا «ولاة الأمور المستيقظين المجتهدين» إلى «توفيق تراثنا فى الفقه الإسلامى على مقتضيات الوقت والحالة» ، تحقيقا لمتطلبات «إسلامية القانون» . . .

وهو الذى دعا - كما سبقت إشارتنا - إلى «إسلامية مصادر المعرفة» ، باعتماد «الشرع» مع «النواميس الطبيعية» . . رافضا اكتفاء «التنوير الغربى» بهذه «النواميس الطبيعية» ، وإهداره للوحى والشرع . . .

كما دعا إلى «إسلامية سبل المعرفة» ، عندما رفض التحسين والتقبيح - فى «التنوير الغربى» - بالعقل المجرد والتجريب وحدهما ، معلقا التحسين والتقبيح بالعقل على تأييد الشرع لهذا التحسين والتقبيح . . مصدرا حكمه على فلسفة التنوير الغربى بأن «كتبها بأسرها محشوة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات المخالفة لسائر الكتب السماوية» . . . ومصدرا حكمه أيضا على فلاسفة «التنوير - الغربى - العلمانى» بأنهم أصحاب «النفوس القاصرة» ، الذين حَكَّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود ، بتعدى الحدود . . حدود الشرع وسياسته المبنية على الحكمة المعقولة لنا ، أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه . . . !!

هذا هو الطهطاوى . . المجدد الإسلامى . . الذى يحشره «تلامذة التنوير - الغربى - العلمانى» فى زمرة سلامة موسى . . وشبلى شميل . . وفرح أنطون . . وإسماعيل أدهم . . وأمثالهم من دعاة «العلمانية» ، ونزع «الإسلامية» عن الدولة والقانون والمجتمع والعمران . . بل ومن الدعاة إلى «الإلحاد» . . . !!

فهل هناك «تنوير» أكثر من هذا الذى يقترفه «تلامذة التنوير» ؟ . . !

٢- جمال الدين الأفغانى

بين التنوير الغربى .. والتجديد الإسلامى

عندما يوضع جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] - صاحب [الرد على الدهريين] - مع إسماعيل أدهم [١٣٢٩ - ١٣٥٩ هـ، ١٩١١ - ١٩٤٠ م] - صاحب [لماذا أنا ملحد؟] - فى «سلة» واحدة ، هى «سلة» «التنوير - الغربى - العلمانى» ، فإننا نكون بإزاء لون من الجرأة على الحق والحقيقة ، تفقد أصحابها الحد الأدنى من عدالة المفكرين وأمانة العلماء! . .

وعندما يوضع الأفغانى ، «موقف الشرق» ، و«فيلسوف الإسلام» ، مع سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] الذى قال إن الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة!! . . فإننا نكون بإزاء مستوى جرىء من مستويات «التزوير»!! . .

بل إنه عندما يوضع الأفغانى وطه حسين فى «مدرسة نهضوية» واحدة ، بزعم أنهما من رموز «التنوير» - بالمعنى الغربى - فإن الأمر يحتاج إلى مراجعة وتحقيق وتصحيح . . فطه حسين ، فى مرحلة انبهاره بالتنوير الغربى ، هو الذى قال - فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] - : إن سبيلنا إلى النهضة هو سبيل أوربا ، فالطريق واحدة فذة ليس لها تعدد « أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم»^(١) . . بينما الأفغانى هو الداعى ، فى النهضة ، إلى أن

(١) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، ج ١ ، ص ٤٥ .

يتمسك الشرقيون «بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم . . » ،
والمحذر من سلوك الطريق الغربى فى النهضة الشرقية ، إذ «لا ضرورة ، فى
إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض
الدول الغربية الأخرى . ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى
فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من
طلبه - [من دعاة التحديث على النمط الغربى] - فقد أوقر [أعجز] نفسه
وأتمه وقرأ وأعجزها وأعوزها» (٢)!!

وإذا كان دعاة «التنوير - الغربى - العلمانى» ، فى وطن العروبة وعالم
الإسلام ، من جيل «الرواد» كانوا أم من جيل «التلاميذ» ، قد اجتمعوا على
تبني نموذج التحديث الغربى ، حتى لقد اعتبر طه حسين أننا «ملزمون»
بذلك أمام أوربا!! . . إذ «التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم ،
ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع» (٣)! - على حد قوله ،
بل «اعترافه»!! . . فإن جمال الدين الأفغانى هو الذى أدان نقل «التمدن
الغربى» لينهض به الشرق الإسلامى ، حتى لقد عد أنصاره ، من دعاة
«التنوير - الغربى» ، «عملاء» يمثلون ثغرات فى جدار المقاومة الحضارية
للأمة ، بل وطلّاع لجيوش الأعداء ، يمهّدون لهم السبيل ، ويفتحون
الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم!! . . فكتب فى إدانة «التحديث على النمط
الغربى» ، و«التمدن الأوربى» الذى استورده العثمانيون ، واستلهمته مصر
فى عصر محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ، ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] . . كتب
الأفغانى فى إدانة هذا «التحديث الغربى» يقول : «لقد شيد العثمانيون عددا
من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد

(٢) [الأعمال الكاملة] ، ص ٥٣٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة ، سنة

١٩٦٨ م .

(٣) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، ج ١ ، ص ٣٦ .

الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه «تمدنا» ، وهو ، في الحقيقة ، تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني !

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ . . نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها . . وسموا أنفسهم : زعماء الحرية . . ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم . . فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم . . وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ! . . وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها . .

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يشبتون أقدامهم^(٤) ! . . .

فكيف يوضع صاحب هذه «الإدانة» لتحديث الشرق بالتنوير الغربي مع دعاة هذا التحديث بذلك التنوير ؟ . .

* * *

وإذا كان «التنوير - الغربي - العلماني» قد أزاح الدين من مرجعية النهضة والدولة والاجتماع والعمران . . ووقف بهذه المرجعية عند الواقع المادي ، وعند العقل والتجريب . . وجاء الذين انبهروا به من مفكرينا ومثقفينا فاجتمعوا جميعا على هذا الاستبعاد للدين من مرجعية النهضة

(٤) [الأعمال الكاملة] ، ص ١٩٥ - ١٩٧ .

المنشودة . . فقال على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ، ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] : « يا بعد ما بين السياسية والدين »^(٥) ! . . وقال طه حسين : « إن وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول »^(٦) ! . . وقال سلامة موسى : « إنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، وإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا . . والرابطة الحقيقية هي رابطتنا بأوربا ، التي أخذنا عنها حضارتنا وثقافتنا »^(٧) ! . . حتى لقد عد رابطة « الجامعة الإسلامية : ردة عن الوطنية »^(٨) ؟ ! .

إذا كان هذا هو موقف « التنوير - الغربى » من الدين - وهو موقف دعائه من « النخبة » التى انبهرت به - فكيف يوضع الأفغانى فى هذا المعسكر الفكرى . . وهو الرجل الذى أصبح علما ، فى تراثنا الحديث على تيار : النهضة الإسلامية ، وتجديد دين الإسلام لتجدد به دنيا المسلمين ؟ ! . . وعلمنا على الدعوة إلى رابطة « الجامعة الإسلامية » ؟ ! . .

إن إسلامية النهضة لوطن العروبة وعالم الإسلام ، واعتماد الإسلام مرجعية أولى وأساسية لتجديد شباب النهضة الإسلامية ، كما كان المرجعية الأولى والأساسية للنهضة الإسلامية الأولى ، كان مذهب الأفغانى ، الذى عاش له ، وجاهد فى سبيله ، ومات منافحا عنه ، وأقام له فى واقعنا ركائز فكرية ، وتيارا نهضويا لا زالت امتداداته وصوره المعاصرة قائمة وفاعلة حتى الآن . . . بل إننا نستطيع أن نقول إن هذا التيار وهذا المذهب فى إنهاض الأمة بالإسلام ، وفى اعتماد الإسلام المرجعية الأولى فى النهوض ، أى فى « إسلامية العمران والنهضة والحياة الإسلامية » هو النقيض للمذهب

(٥) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٦٩ . (٦) [مستقبل الثقافة فى مصر] ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٧) [اليوم والغد] ، ص ١٨٧ - ١٨٩ . (٨) المرجع السابق . ص ١٩٢ .

«التنوير - الغربى - العلمانى» الذى استعاره نفر من أبناء أمتنا طريقا للتحديث! . . .

إننا لو ذهبنا لنجمع نصوص الأفغانى التى كتبها فى «إسلامية النهضة والعمران» لاحتجنا إلى جمع الجزء الأكبر من أعماله الفكرية . . . ولذلك، فلا مفر من الوقوف عند نماذج شاهدة من هذه النصوص . . .

● لقد كان مذهبه واضحا وحاسما فى مرجعية الدين، كالمقوم الأول للاجتماع الإنسانى . . . «فالدين: قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها . . .»^(٩).

والعقائد الأساسية التى تمثل حوافز الإنسان إلى النهوض، والتبى هى بمثابة الأركان لوجود الأمم والأعمدة لبنیان اجتماعها ومدنيتها، هى عقائد جاء بها الدين . . . فلقد «أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدينتها، وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر، ويزعها عن مقارفة الفساد، ويصدها عن مقاربة ما يبیدها ويبددها:

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان ملك أرضى، وهو أشرف المخلوقات .

والثانية: يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

والثالثة: جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . . .»^(١٠).

(١٠) المصدر السابق، ص ١٤١ .

(٩) [الأعمال الكاملة]، ص ١٣١ .

فأركان وجود الأمم . . وأعمدة بنيان هيئتها الاجتماعية . . والأسس
المحكمة للمدنية . . وحوافز التقدم والارتقاء ، هي العقائد التى تكتسبها
عقول البشر من الدين !! . .

فهل فى هذا المذهب ما يجمع صاحبه بفلاسفة «التنوير - الغربى» ،
القائمة على نقض الدين ، واستبعاده من مرجعية النهضة ، والاكتفاء
والاستغناء عن الدين بالعقل والتجريب ؟! . .

● وإذا كانت «السعادة» هى المقصد الأعظم للإنسان ، فى هذه الحياة ،
وفى ما وراءها . . كانت كذلك قديما وما زالت ، وستظل المقصد الإنسانى
الأعظم . . فإن الأفغانى يقطع بأن «السبب المفرد» لهذه السعادة الإنسانية
هو الدين! . . . « . . فلم تبقى ريبة أن الدين هو السبب المفرد لسعادة
الإنسان» . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شىء من
أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه ، فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة
والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى ،
ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ، ويرفع أعلام المدنية
لطلابها ، بل يفيض على التمدين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم
بسعادة الدارين . . . » (١١) .

فالسعادة التامة . . والنعيم الكامل . . والكمال الصورى والمعنوى . .
وذروة الفضل الظاهرى والباطنى . . والمدنية المتميزة بالكمال العقلى
والنفسى - أى المادى والروحى - . . كل هذه الفضائل والنعيم من ثمرات
الدين !!

فهل فى هذا وجه شبه مع «التنوير - الغربى - العلمانى» الذى صنع إحياء
حضاريا مجردا من الدين ؟! . .

(١١) المصدر السابق . ص ١٧٣ .

● وإذا كانت «النخبة» التي تغربت ، قد بررت تبنيها للنموذج الغربى فى التنوير والنهضة . . بدعوى تماثل تطورنا الحضارى وتطور الغرب الحضارى ، ومن ثم تماثل المشكلات ، وتماثل الحلول . . فصور على عبدالرازق إسلامنا - كالنصرانية - دينا لا دولة ، ورسالة روحية لا شائبة فيها للحكم والسياسة!! . . وصور رسولنا ، ﷺ ، داعيا ومبلغا لرسالة دينية ، لم يأخذ الناس بشريعتها ، ولم يقم فيهم دولة ولا حكومة . . كما كان حال الخالين من الرسل ، الذين وقفوا عند حدود البلاغ!! . . وصور طه حسين عقلنا بأنه يونانى . . ولم يغير القرآن من يونانيته ، كما لم يغير الإنجيل من يونانية العقل الأوربى ، لأن القرآن - كما زعم - لا يعدو أن يكون مصدقا للإنجيل!! . . واجتمع هؤلاء «التنويريون - العلمانيون» على إقامة التناقض بين «العقل» و«النقل» ، فدعوا إلى «عقلانية» لا سلطان للنقل فيها ، حتى لقد كتب أحدهم يقول ملخصا مذهبهم فى «التنوير» : «إن التجريب قرين العقل . . والعقل نقيض النقل» (١٢) . . فخيروا الناس بين عقلانية لا نقل فيها - أى عقلانية ملحدة - وبين دين ووحى ونقل ، زعموا استحالة قبوله للعقل والعقلانية!! . . إذا كان هذا هو مذهب أهل «التنوير - الغربى - العلمانى» . . فكيف يسوغ لعاقل أن يضع فى سلتهم هذه جمال الدين الأفغانى ، وهو الذى تحدث عن تفرد الإسلام على كل الديانات الأخرى بـ«العقل» و«البصيرة» ، أى جمعه بين «العقل» و«الوجدان» ، كسبل للمعرفة ، ومن ثم انتفاء التناقض الذى نفذ منه «التنوير - الغربى» إلى قلعة اللاهوت النصرانى الأوربى!! . .

يقول الأفغانى عن هذه الخصوصية الإسلامية الجامعة «للعقل» و«البصيرة» إلى الحد الذى أصبح فيه «العقل الإسلامى» هو «مشرق

(١٢) د. جابر عصفور : «عن التجريب والدولة المدنية» - صحيفة [الحياة] ، عدد ١٣ يونيو ، سنة ١٩٩٣ م .

الإيمان»، والسماء التى تشرق فيها شمس العقلانية الإسلامية المتميزة!! يقول - هذا المجدد - الذى «يزور» المتغربون الحديث عنه ليضعوه فى سلة شبلى شمىل، وفرح أنطون، وسلامة موسى، وإسماعيل أدهم -! . . «إن الدين الإسلامى يكاد يكون متفردا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكييت الخاطبين فى عشواء العمائة، والقذح فى سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة . . ولما يوجد من الأديان مايساويه أو يقاربه فى هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . . .

إن العقل مشرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان . وإن فرقا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته . فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته . أما الثانى فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقود، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!» (١٣).

فهذا المذهب الإسلامى فى «العقلانية الإسلامية» المتميزة، يؤاخذ ما بين «العقل» و«الإيمان»، إلى الحد الذى يجعل فيه «العقل مشرق الإيمان»، بدون «سمائه» لا يمكن أن يطلع ويشرق «الإيمان» . . وهو مذهب يؤذّن فى أهل الفكر والرأى بتميز إسلامى يجعل من تصور مشكلات تطورنا الحضارى على النحو الذى كانت عليه مشكلات تطور حضارة الغرب، لتتأمل الحلول . . يجعل من هذا التصور «عبثا» لا يلىق! . .

(١٣) [الأعمال الكاملة]، ص ١٧٧ .

● وإذا كان هذا هو مقام الدين ، عند الأفغانى ، فى بناء الأمم ، وتأسيس المدنية ، واستنفار الشعوب للارتقاء والتقدم . . حتى لقد جعله «السبب الفرد لسعادة الإنسان» . .

وإذا كانت هذه هى رؤيته لتمييز الإسلام بالعقلانية . . وتميز عقلانيته بالإيمان . . فلم يكن غريباً أن يخالف الأفغانى أولئك الذين أرجعوا بداية تراجع المسلمين وانحطاط تمدنهم إلى النزيف المادى — «الحربى . . والاقتصادى» — الذى سببته الغزوة « الصليبية — التتية » — على امتداد قرنين من الزمان [٤٨٩ — ٦٩٠ هـ ، ١٠٩٦ — ١٢٩١ م] . . فأرجع الأفغانى بداية هذا الانحطاط إلى «الاختراق الفكرى» الذى أحدثه « الفكر الباطنى » فى تصورات المسلمين . . فبه توجهت « السهام » إلى «سبب النهوض» ، فكانت بداية التراجع والانحطاط . . «لقد ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب . والأليق أن يقال : إن ابتداء ضعف المسلمين كان يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين ، وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى» (١٤) !!

«فالدواء» الذى رآه فلاسفة التنوير الغربى لتخلفهم وانحطاطهم الحضارى — «دواء» : استبعاد الدين من مرجعية النهضة والعمران — قد رآه الأفغانى « الداء » الذى أصاب حياتنا الإسلامية ، فدخل بحضارتنا دور التراجع والانحطاط . . لقد تمثلت « المادية — اللادينية » و«العلمانية — الوضعية» لفلاسفة التنوير الغربى «الدواء» الشافى من « داء الدين واللاهوت» . . ورأى الأفغانى فى هذه «المادية — الدهرية» السبب الأول فى «الغبش» الذى أصاب تصورات المسلمين لإسلامهم ، والذى أحدث فى

(١٤) المصدر السابق . ص ١٦١ .

مسيرتهم الحضارية بداية التراجع والانحطاط! . فكيف يوضع الرجل مع دعاة هذا «التنوير - الغربى - العلمانى» فى سلة واحدة؟! .

● فإذا جاء الأفغانى إلى الحديث عن «وسائل النهوض من السقوط»، وجدناه، بعد استعراضه لمذاهب أهل الفكر فى هذا الموضوع، ومنها مذهب المتغربين، الذين يرون فى استعارة «التمدن الغربى» السبيل للنهوض، وهو المذهب الذى أدانه، بل ورأى فيه خيانة للأمة، و«خبلا جديدا»! يفتح فى جدار المقاومة الحضارية الثغرات لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات! . . . فالقلدون لتمدن الأمم الأخرى «ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها، وإنما هم حملة، نقلة! . . لا يراعون فيها النسبة بينها وبين مشارب الأمة وطباعها. . . وهم ربما لا يقصدون إلا خيرا، إن كانوا من المخلصين! . . لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابا . . لتدخل الأجانب فيهم تحت اسم: النصحاء، وعنوان: المصلحين، وطلاب الإصلاح، فيذهبون بآمتهم إلى الفناء والاضمحلال، وبئس المصير. .» (١٥)

بعد استعراض الأفغانى لمذاهب أهل الفكر فى «وسائل النهوض من السقوط»، نراه يرفض هذه المذاهب - وفى مقدمتها وعلى رأسها مذهب «استعارة التمدن الغربى» - ثم يقطع بأن لاسبيل للنهوض من هذا السقوط الحضارى الذى نحن فيه إلا بالإسلام . . فيقول :

«لا أطيل عليك بحثا، ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل، أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد نباهة . . واطلب أسباب نهوضها الأول . . إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مذك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران

(١٥) المصدر السابق. ص ١٩١ - ١٩٧ .

الخصائص ، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية . .

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة ، ولها وردت وعنها صدرت ، فماتراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً . . فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته . . ولا سبيل لليأس والقنوط ، فإن جرائم الدين متأصلة في النفوس . . والقلوب مطمئنة إليه ، وفي زواياها نور خفى من محبته ، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نصيحة واحدة يسرى نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت . . فإذا قاموا ، وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني .

ومن طلب إصلاح أمة شأنها مذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وانعكس فيها نظام الوجود ، فینعكس عليه القصد ، ولايزيد الأمة إلا نحسا ، ولايكسبها إلا تعسا .

ومن يعجب من قولي : إن الأصول الدينية الحققة تنشئ للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية ، فإن عجبى من عجبه أشد ! . ودونك تاريخ الأمة العربية . . وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية . . حتى جاءها الدين فوحدها ، وقواها ، ونور عقلها ، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم . . . » (١٦) !

(١٦) المصدر السابق . ص ١٩٧ - ١٩٩ .

هكذا قطع جمال الدين الأفغانى بأن الإسلام هو سبيل النهضة وأداة الإحياء وطريق التقدم ، والدواء الفريد من هذا السقوط الحضارى الذى نحن فيه ! . .

إنه يزكى تلك الحكمة المأثورة : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : الإسلام ! . .

وإذا كان الأفغانى قد بلور هذا المذهب فى «وسائل النهوض من السقوط» ، قبل قرن من الزمان ، عندما كتب رسالته [الرد على الدهريين] سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ . . فلقد تنبأ الرجل ، منذ ذلك التاريخ ، بالآثار المرة لشمرات التغريب والتقليد للتمدن الغربى . . فعبر هذا القرن الذى انقضى ، استعمر الغرب ديار الإسلام . . ثم نهضت الأمة لتحرير أوطانها ، مقدمة ملايين الشهداء . . فلما حانت ساعة الرحيل لجيوش الغزاة عن بلاد الإسلام ، سلم الاستعمار «الدولة» و«مؤسساتها» للنخبة التى تغربت ، والتى قام على صياغة عقولها ومناهجها وولائها الحضارى عبر هذه العقود التى هيمن فيها على منابر العلم ومؤسسات الفكر ومعاهد التعليم . . وبعد عقود من «الاستقلال» ، جربت فيها هذه «النخبة المتغربة» مذاهب الغرب فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» ، انتهى بها المطاف إلى هذا الفشل الذريع الذى يمسك بخناق الأمة فى هذه الأيام ! . . فلما استنفر هذا العجز والفشل العلمانى جماهير الأمة لتسير فى الطريق الذى رسمه رائد اليقظة الإسلامية جمال الدين الأفغانى . . طريق : النهضة بالإسلام . . وإسلامية النهضة . . رأينا هذه «النخبة المتغربة» ، من «تلاميذ» «التنوير - الغربى - العلمانى» يسعون لخلط الأوراق ، فيزورون على الأمة فكر يقظتها ، بوضعهم أسماء أعلام هذه اليقظة فى سلة دعاة التبعية الحضارية ، والتقليد للنموذج الغربى ، والانسلاخ عن الهوية الإسلامية للأمة ! ! . .

بل ورأيانهم - وتلك هى قمة الكارثة المعاصرة - يسعون ، بالعجز والفشل والفساد ، إلى «تسليم» الأوطان التى حررتها الأمة بدماء شهدائها إلى هيمنة الاستعمار الغربى من جديد!! .

إنها «الكارثة» التى تنبأ بها الأفغانى قبل قرن من الزمان ، عندما قال عن هؤلاء «الصنائع الثقافيين» ، الذين «صنعهم الغرب» ، فى بلادنا ، على عينه : «إن نتيجة هذا التقليد للتمدن الغربى عند هؤلاء «الناشئة المقلدين» ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم ، فيبالغون فى تطمين النفوس ، وتسكين القلوب ، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا متى طرق الأجانب أرضا لأية أمة ، ترى هؤلاء المتعلمين - المقلدين - فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم . . كأننا هم منهم ، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم أعظم بركة عليهم . .» (١٧)!!

هكذا قادت وتقود «التبعية الفكرية» و«التقليد للتمدن الغربى» إلى «مشاركة» بين «المركز» و«التابعين» . . وهكذا تتجلى كارثة هذه «المشاركة» ، فى مواجهة تعاظم المشروع الإسلامى المعاصر للنهضة ، والتغيير فى صورة :

● تبعية يفرضها الغرب على وطن العروبة وعالم الإسلام . . وهيمنة يحاول بها إعاقة المشروع الإسلامى للنهضة والتغيير .

● وغلو علمانى يبحث أصحابه فى «الترسانة الفكرية الغربية» عن الأسلحة القديمة التى واجه بها التنوير - الغربى - العلمانى النصرانية الأوربية فى عصورهم الوسطى والمظلمة ، ظانين صلاحها لمواجهة الإسلام ويقظته المعاصرة! . . الأمر الذى وضع هؤلاء نفر من «تلامذة التنوير الغربى» فى

(١٧) المصدر السابق . ص ١٩٧ .

موقع قريب جدا من قوى الهيمنة الغربية الضاغطة على أمة الإسلام . . وهو ما تنبأ به الأفغانى قبل قرن من الزمان! . .

ومع ذلك كله ، نراهم يبلغون «قمة» ، وإن شئت فقل «حضيض» «التزوير» ، عندما يضعون موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ورائد مشروع : «النهضة بالإسلام» في سلة المتغربين الذين دعوا إلى استبدال التمدن الغربى بالتمدن الإسلامى! . .

إننا ، بعد هذا الذى قدمناه عن الأفغانى - المجدد الإسلامى - والمعادى للتنوير الغربى العلمانى - نختم هذه الصفحات بنص صريح ومباشر يدين فيه هذا التنوير ، عندما يتحدث عن الشعب الفرنسى ، الذى ظل محافظا على عقائد التدين وخصاله حتى ظهر التنوير فهدمها ، فأصاب هذا الشعب بالضعف والتحلل والهوان - فلقد كان ذلك الشعب «مشرقا للتمدن في سائر الممالك الغربية ، وبما أحرز الفرنسيون من تلك الأصول كانت لهم الكلمة النافذة في دول الغرب إلى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحى ، حتى ظهر فيهم وولتير - [فولتير] - وروسو ، يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بإنارة الأفكار وهداية العقول ، فنبشأ قبر «أبيقور» الكلبى [٣٤١ - ٢٧٠ ق . م] وأحيا ما بلى من عظام الدهريين ، ونبذا كل تكليف دينى ، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك ، وزعما أن الآداب الإلهية جَعَلِيَّات خرافية ، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى . وجهر كلاهما بإنكار الألوهية ، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء - [برأهم الله مما قالوا] - وكثيرا ما ألف وولتير من الكتب في تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم وعيب ما جاءوا به . فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسيين ، ونالت من عقولهم ، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم . وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (في زعمهم) ، شريعة الطبيعة . وزاد بهم الهوس في بعض أيامهم ، حتى حمل لفيفا من

عامتهم على أن يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ويحملوها إلى محراب الكنيسة، ففعلوا. ونادى زعيم القوم: أيها الناس، لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ولا التماع البرق. ولا تظنوا شيئا من ذلك تهديدا لكم من إله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته. كلا، فهذه كلها آثار الطبيعة (الناتور)، ولا مؤثر في الوجود سوى (الناتور). . . وإن كانت العبادة من رغائب شهواتكم فهأى ذى (مدموازيل) أى (العدراء) قائمة في المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها إن شئتم.

والأضاليل التى بثها هذان الدهريان (وولتير وروسو) هى التى أضرمت نار الثورة الفرنسية المشهورة، ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها، فاختلقت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبل الخلاف. . . وانحصر سعى كل قبيل فى التماس ما يواتى لذته ويوافق شهوته، وأعرضوا عن منافعهم العامة، وأعقب ذلك عروض الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا.

نعم، إن نابليون الأول بذل جهده فى إعادة الديانة المسيحية إلى ذلك الشعب استدرأكا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الأضاليل» (١٨).

هكذا أدان الأفغانى، صراحة ومباشرة، فلسفة التنوير الغربى - المادى العلمانى - وفلاسفته. . . فهل بعد ذلك مجال لافتراء الذين يضعونه فى هذا التيار؟! . . .

(١٨) المصدر السابق. ص ١٦١، ١٦٢.

٣ - الإمام محمد عبده

بين التنوير الغربي .. والتجديد الإسلامي

إن الذين يخلطون بين «التجديد الإسلامي» - وهو تطوير وتجدد من داخل النسق الإسلامي، ملتزم بثوابته وفلسفته ومبادئه ومقاصده - وبين «التنوير - الغربي - العلماني» - الذي يقيم قطيعة مع الدين، عندما يعزله عن شئون الدولة والاجتماع الإنساني وال عمران البشري، مكتفيا بعالم الشهادة والعقل والتجريب - إن الذين يخلطون بين هذين النمطين من أنماط الإحياء والتقدم والنهوض، يمعنون في خلط الأوراق عندما يضعون أعلام التجديد الإسلامي - ومنهم - بل وفي مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - عندما يضعونه في سلة واحدة مع «النخبة» التي رأت أن نهضتنا الحديثة مرهونة بإدارة الظهر لخصوصيتنا الحضارية، والتبني للنموذج الغربي في النهوض والتحديث والإحياء . . فنراهم يضعون تراث محمد عبده مع فرح أنطون [١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ، ١٨٧٤ - ١٩٢٢ م]، وشبلى شميل [١٢٧٦ - ١٣٣٥ هـ، ١٨٦٠ - ١٩١٧ م]، وإسماعيل أدهم [١٣٢٩ - ١٣٥٩ هـ، ١٨١١ - ١٩٤٠ م]، ولطفى السيد [١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ، ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م]، وسلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ، ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م]، وأمثالهم من الذين دعوا إلى «استقلال» أمتنا عن ماضيها وعن محيطها، وإلى التحاقها بأوربا، زاعمين أن «العقل : يوناني»، و«الحضارة : متوسطة - أوربية» . . والطريق إلى النهضة واحدة

لاتعدد فيها، وهى أن نسير سيرة أوربا في «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . . فإسلامنا، كالنصرانية الأوروبية، دين لا دولة، ورسالة روحية لا علاقة لها بالسياسة أو الحكم . . وقرآننا كالإنجيل مجرد «بلاغ» لا علاقة له بـ «الشريعة» الحاكمة في شئون الدولة وال عمران . . وتاريخنا في الدولة، كتاريخ أوربا: استبداد حكم فيه الخلفاء بالحق الإلهى، كالبابوية الأوروبية . . ومن ثم، فإن «التنوير - الغربى - العلمانى» هو «الحل» لمشكلاتنا التى ضاهت ومثلت مشكلات التخلف الأوروبى!! . .

يخلط «تلامذة» «التنوير - الغربى - العلمانى» أوراق مشاريع «التحديث» فى عصرنا الحديث، عندما يصورونها مشروعاً واحداً، يسوقون فى الحديث عن دعائه أسماء أعلام «التجديد الإسلامى» مع أعلام «التغريب» والتحديث على النمط الغربى . . مع أن هذه القضية لم تكن على هذا النحو من «خلط الأوراق» عند جيل «الرواد» من دعاة النهضة والإحياء والتحديث، سواء منهم «المجددون الإسلاميون» أو الذين دعوا إلى تبنى النموذج الغربى فى النهوض . .

فمحمد عبده، الذى مثل أبرز عقول التجديد الإسلامى فى عصرنا الحديث، لانبالغ إذا قلنا إن خيطاً ملحوظاً ومتصلاً قد امتد عبر كل مشروعه الفكرى ليرز تميز مشروعه النهضوى والتجديدى عن النموذج الغربى فى التحديث، وذلك انطلاقاً من تميز إسلامنا عن نصرانية أوربا ولاهوت كنيستها، ومن تميز تطورنا الحضارى عن تاريخ الغرب فى التطور الحضارى . . ويكفى - مراعاة للمقام - أن نضرب على ذلك الأمثال:

● لقد خصص محمد عبده واحداً من أهم أعماله الفكرية: - كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] - ليقيم فيه الأدلة على تميز، بل وتناقض أصول الإسلام مع أصول النصرانية، كما عرفها الغرب واللاهوت الكنسى الأوروبى . . وعلى تمايز بل وتناقض الخلافة الإسلامية مع البابوية

ودولتها الثيوقراطية وسلطتها الدينية . . وعلى تميز الإسلام بالعقلانية التي لم تعرفها النصرانية . . وعلى تميز الإسلام بل وتناقضه في موقفه من العلم والعلماء ، فكرا وتاريخا ، عن النصرانية في هذا الميدان . . . فجاء هذا الكتاب بيانا لتمييز المشروع الإسلامي النهضوى عن النموذج الغربى في الإحياء والتحديث . .

ولم يستطع الدكتور طه حسين [١٣٠٦-١٣٩٣ هـ ، ١٨٨٩-١٩٧٣ م] ، وهو من أبرز دعاة السير سيرة الأوربيين في «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . . بدعوى أن عقلنا يونانى وحضارتنا أوربية وليست شرقية . . وبزعم أن إسلامنا ولغتنا العربية لا يصلح أن يكونا من مقومات بناء الدول ، كما لم تصلح النصرانية لذلك في النموذج الأوربى ! . . لم يستطع الرجل أن يخلط أوراق محمد عبده بأوراق الداعين للسير وراء النموذج الغربى في التقدم والتحديث . . فأعلن أن مشروع محمد عبده في التوفيق بين العلم والدين «لم يعد مواكبا للعصر» . ولقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية . . بل إن مذهب محمد عبده هذا ، فى حد ذاته ، لم يكن صالحا للبقاء . . !! . . وتحدث عن «الاندفاع نحو الحضارة الغربية بابتهاج - [١١] - واتخاذها مثلاً أعلى - [١١] - والنظر إلى آراء محمد عبده باعتبارها الآراء التى يتمسك بها «المحافظون» . . بل «المتخلفون»^(١) !!

فطه حسين يميز مذهبه - فى مرحلة انهياره بالنموذج الغربى - عن مذهب محمد عبده . . ويقول إن السبيل هو «الاندفاع نحو الحضارة الغربية» . . باعتبارها المثل الأعلى !! . . بدلا من مشروع محمد عبده ، الذى رآه متخلفا وباليا وغير صالح فى ذاته ، ولا يتمسك به إلا المتخلفون !! . .

فإذا كان هذا هو موقف طه حسين ، فى صراحة التمييز بين «تجديد»

(١) د. طه حسين : [من الشاطئ الآخر] ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٢ .

محمد عبده وبين تبني النموذج الغربى ، كمثّل أعلى ، وسبيل وحيد لنا فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . . فما بال «تلامذة» طه حسين يجتهدون فى إجهاد الحقيقة ، فيخلطون الأوراق . . ليس فقط أوراق محمد عبده بأوراق طه حسين ، وإنما أوراق «المجددين الإسلاميين» بأوراق سلامة موسى وفرح أنطون وشبلى شميل وإسماعيل أدهم ولطفى السيد ، وغيرهم من دعاة «التنوير - الغربى - العلمانى»^(٢) ، والذين احترف بعضهم الدعوة إلى الإلحاد . . وسوى بعضهم بين «الجامعة الإسلامية» وبين الاستعمار الإنجليزى والفرنسى . . ورأى بعضهم فى الرابطة الشرقية سخافة ، وفى الرابطة الدينية وقاحة يجب أن يترفع عنها أبناء القرن العشرين ! ! . .

● وغير اجتهد محمد عبده التمييز بين الإسلام وبين النصرانية . . وبين الشرق وبين الغرب فى الموقف من علاقة الدين بالعلم . . نجد رفضه الصريح للنموذج الحضارى الغربى ، لماديته التى ناقضت وتناقض الوسطية الإسلامية الداعية إلى الجمع ما بين المادة والروح . .

ونحن نسأل ، فى عجب ، أولئك الذين يضعون محمد عبده فى سلة الذين رأوا أن نهضتنا لا سبيل لها إلا تبنى نموذج الغرب فى المدنية والإحياء . . ألم يقرءوا نقد محمد عبده لهذه المدنية الغربية ، ورفضه لماديتها . . والذى يقول فيه : «إن هذه المدنية هى مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو «الجنية» عند قوم ، و«الليرا» عند قوم آخرين ، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك»^{(٣)؟}

وكيف يوضع محمد عبده ضمن الذين دعوا إلى النهضة بـ «التنوير - الغربى» ، وهو الذى علق على حيرة الفيلسوف الإنجليزى «سبنسر»

(٢) د. جابر عصفور: [محنة التنوير] ، ص ٣ ، ٦٦ . (٣) [الأعمال الكاملة] ، ج ٣ ص ٢٠٥ .

[١٨٢٠ - ١٩٠٣ م] - عندما لقيه في سنة ١٩٠٣ م - وتساؤمه من نتائج المادية المتفشية في أوروبا، حتى لقد «مُحِيَ الحق من عقول أهل أوربة بالمرة، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض لتتبين أيها الأقوى ليسود العالم. أو ليكون سلطان العالم»^(٤)! - وهى النبوءة التى حققتها الحروب الكونية الاستعمارية الأوربية، والصراعات والهيمنة القائمة حتى الآن - . . . ولقد علق الأستاذ الإمام، متعجبا، من عجز «فلاسفة التنوير الغربى» عن اكتشاف العلاج الروحى فى الدين . . . والذى لا علاج سواه من هذا الذى أصابهم بالقنوط . . . فقال، متعجبا: «هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الإنسان وتوفير راحته، وتعزيز نعمته، أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان، ويعرضوها على الإنسان، حتى يعرفها فيعود إليها. هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم أن يجلبوا ذلك الصدا الذى غشى الفطرة الإنسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحى؟!»

حار الفيلسوف - [سبنسر] - فى حال أوروبا، وأظهر عجزه، مع قوة العلم! . فأين الدواء؟ . الرجوع إلى الدين . . الدين هو الذى كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلى أربابها فى كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلونها . . .»^(٥)! . . .

لقد عرض لـ «الداء» الأوربى . . داء التقدم المادى، المفرغ من روحانية الدين، بسبب علمانية ومادية ووضعية «التنوير - الغربى» . . ثم قطع بأن الدين هو الدواء . . أفبعد هذا يقال إن مشروعه النهضوى كان هو مشروع الذين دعوا إلى عزل الدين عن العمران، والاكتفاء بالعقل والتجريب، لأن

(٤) انظر حوار سبنسر مع الأستاذ الإمام فى: المصدر السابق . ج ٣، ص ٤٩٢، ٤٩٣ .

(٥) المصدر السابق . ج ٣، ص ٤٩٥ .

الدين لا يصلح أن يكون من مقومات الدولة ، ولا أن يكون صديقا للعلم ، ومن ثم فإن رابطته وجامعته ردة عن الوطنية ، ووقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين؟! . . . آفي هذه «السلة» - ولا نقول «المستنقع» ! - يضع منصف ، أو عاقل ! الأستاذ الإمام؟! . . .

● وليس فقط النقد والرفض لواقع النموذج الأوربي الحديث والمعاصر . وإنما أيضا النقد والرفض لنموذجها التاريخي المتميز بالكهانة والبابوية والدولة الشيوقراطية . . . والحديث عن تميز الإسلام ، ونموذجه التاريخي عن هذا النموذج «النصراني - الغربي» ، ومن ثم خطأ دعاة «التنوير - الغربي» من أبناء جلدتنا ، الذين حاولوا تصوير تاريخنا على نمط التاريخ الغربي ، ليوهمونا بوحدة «المشكلات» تمريرا لدعوتهم إلى وحدة «الحلول» . . .

يرفض محمد عبده ذلك ، ويتحدث عن رفض الإسلام للكهانة وللسلطة الدينية التي تميز بها التاريخ الأوربي ، والتي لم يعرفها التاريخ الإسلامي ، فيقول : «إن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية . . . التي عرفتها أوربا . . . فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر . . . وهي سلطة خَوَّلَهَا الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم . . . والأمة هي التي تولّى الحاكم . . . وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه . ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة ، عند المسلمين ، بما يسميه الإفرنج «ثيوكرتيك» ، أي سلطان إلهي . . . فليس للخليفة - بل ولا للقاضي ، أو المفتي ، أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية ، قدرها الشرع الإسلامي . . . فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه . . . بل إن قلب السلطة الدينية ، والإتيان عليها من الأساس ، هو أصل من أجل أصول الإسلام . . .» (٦) !

(٦) المصدر السابق . جـ ٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ .

فهو هنا ينفي تماثل الشرق والغرب في التطور التاريخي . . ويؤكد تميز تاريخنا ، بسبب تميز الإسلام . .

● وهو لا يدع مجالاً لمن يتوهم أن انتفاء «السلطة الدينية» عن الإسلام تعنى انتفاء علاقته بـ «السلطة . . والدولة . . ونظام الملك . . والاجتماع . . والعمران» ، الأمر الذى يفتح الباب أمام المسلمين « لعلمانية التنوير الغربى » التى عزلت الدين عن هذه الميادين . .

لا يدع الأستاذ الإمام مجالاً لهذا الوهم ، فيبادر بالتأكيد على أن الإسلام عندما يرفض «السلطة الدينية» ، فإنه يرفض اعتزاله للسلطة والدولة ، لأنه ليس نصرانية تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . وإنما هو دين وشرع ، أى دين ودولة وسياسة وعمران . . فهو لا يقف عند «الاعتقاد الفردى» ، كالنصرانية . . وإنما هو نظام للفرد . . والأسرة . . والدولة جميعاً . . وبعبارة الأستاذ الإمام ، فإن الإسلام : « كمال للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظام للملك . . » . . وهو جامع لذلك بالوسطية ، التى تجمع الدين والدولة والعمران ، واقفة بالعلاقة بينهما دون « كهانة السلطة الدينية وثيوقراطيتها » وفوق « العلمانية » التى تفصل الدين عن العمران . . فالوسطية هى مذهب الإسلام الذى ميز نظامه عن كل من «الشيوقراطية» و«العلمانية» كليهما . . وفى تقرير هذا المذهب الإسلامى ، فى «إسلامية الدولة والعمران» ، يقول الأستاذ الإمام : لقد «ظهر الإسلام ، لا روحياً مجرداً ، ولا جسدياً جامداً ، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك ، آخذاً من كل القبيلين بنصيب ، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره ، ولذلك سمي نفسه : دين الفطرة . وعرف له ذلك خصومه اليوم ، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية . .

إن الإسلام دين وشرع ، فهو قد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً . . ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ

حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلا بد أن تكون في واحد، وهو السلطان أو الخليفة . . . والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده في عمله . . . فكان الإسلام: كما لا للشخص، وألفة في البيت، ونظاما للملك امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه . . .» (٧).

ولست أدري - بعد هذا الحسم والوضوح في موقف الإسلام من السياسة والدولة والعمران . . . والذي جعله «المدرسة الأولى للرقى على سلم المدنية» . . . و«الدين . . . والشرع» ، الذي تقتضى حكمة «تشريعه» وجوب قيام «سلطة تنفيذية» تنفذ أحكام «السلطة القضائية» التي تقتضى «بشريته» ، وهى سلطة «الخلافة» . . . الأمر الذى ضمن للإسلام ، بوسطيته الجامعة، أن يكون «كما لا للشخص . . . وألفة في البيت . . . ونظاما للملك» . . . حتى لقد «ميز الأمة والحضارة والتاريخ» لمن تدين به عن نظائرها لدى الذين لم يدخلوا فيه . . .

لست أدري ، بعد هذا الموقف الحاسم والواضح ، كيف يجوز لعاقل ومنصف أن يضع الأستاذ الإمام ، صاحب هذا الموقف ، في سلة واحدة مع دعاة «التنوير - الغربى - العلمانى» . . . من أمثال على عبد الرازق ، الذى قال : «يا بعد ما بين السياسة والدين»!! . . . وطه حسين ، الذى نفى صلاح الدين لأن يكون مقوما للدولة ، أو أن يكون له مدخل في السياسة؟! . . . فضلا عن سلامة موسى الذى رأى في الرابطة الدينية وقاحة يجب أن يأنف منها ويبرأ أبناء القرن العشرين؟! . . .

كيف جاز ذلك الزعم الغريب في مذهب «تلامذة التنوير - الغربى - العلمانى»؟! . . .

(٧) المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٢٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

● وهذا النفر من دعاة «التنوير - الغربى - العلمانى» ، الذين أوهموا الناس أن دعوتهم إلى إحياء تراث «التنوير» إنما هى «لمواجهة المشروع الإسلامى الداعى إلى إسلامية النهضة والدولة والمعرفة والعمران» ، بلغت بهم الجرأة حد تقديم اسم الأستاذ الإمام كواحد من الذين تصدى تراثهم ومشروعهم النهضوى لـ «إسلامية النهضة والمعرفة والعمران» . . مع أن الرجل كان فى طليعة الذين واجهوا النموذج الغربى فى التحديث ، وهو نموذج وضعى - علمانى ، وقدموا بديلا عنه : النموذج الإسلامى للإحياء والتقدم ، وهو الذى يتميز عن النموذج الغربى بالدعوة إلى «إسلامية النهضة» ، وفى كل الميادين !!! . .

إن كل الدعاة المعاصرين إلى إحياء الأمة بالإسلام ، وتجديد دنيانا بدين الإسلام ، وطبع نهضتنا بصبغة الإسلام ، واختيار الإسلام مرجعية لهذه النهضة العربية والإسلامية المنشودة . . إن كل الدعاة إلى هذا المشروع الإسلامى فى النهضة والتقدم والإحياء ، إنما هم الأبناء الشرعيون لفكر وتراث ومشروع الأستاذ الإمام . . ويكفى برهانا على هذه الحقيقة - التى لم نكن نظن أنها فى حاجة إلى برهان - أن نتأمل هذه الكلمات للأستاذ الإمام ، والتى يقول فيها إن الإسلام هو السبيل لأى إصلاح يمكن أن يكتب له الفلاح فى دنيا المسلمين . . . يقول : «إن أهل مصر قوم أذكىاء . . يغلب عليهم لين الطباع ، واشتداد القابلية للتأثر . لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية ، وهى : أن البذرة لا تنبت فى أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا ماتت البذرة ، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها ، وإنما العيب على الباذر .

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعها فيها ، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها ، فلا ينبت ، ويضيع تبعه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك

ماشوهة من أثر التربية التى يسمونها أدبية ، من عهد محمد على إلى اليوم . .
فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا - وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات -
فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى
نفوسهم

إن سبيل الدين ، لمزيد الإصلاح فى المسلمين ، سبيل لا مندوحة عنها ،
فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارضة عن صبغة الدين ، يحوجه إلى
إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شىء ، ولا يسهل عليه أن يجد من
عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق ، وصالح الأعمال ،
وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم
فى غيره ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما
لا إمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟ ! . . » (٨) .

إننا إذا تأملنا هذه النصوص للأستاذ الإمام . . ورأينا كيف رفع لمشروعه
النهضوى شعارا يقول : «إن سبيل الدين ، لمزيد الإصلاح فى المسلمين سبيل
لا مندوحة عنها . . لأن نفوسهم قد أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار
طبعها فيها ، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير
صالح للتربة التى أودعه فيها . . »

وإذا نحن تذكرنا كلمات جمال الدين الأفغانى . . عن ذات الموضوع -
سبيل الإصلاح الإسلامى - التى يقول فيها :

«إن الدين قوام الأمم ، وبه فلاحها ، وفيه سعادتها ، وعليه مدارها . .
وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان السعادة الكاملة والنعيم الكامل . .
يذهب بمعتقديه فى جواد الكمال . . ويصعد بهم إلى ذروة الفضل . . ويرفع
أعلام المدنية لطلابها . . » (٩) .

(٨) المصدر السابق . ج ٣ ، ص ١٠٩ ، ٢٣١ . (٩) [الأعمال الكاملة] ، ص ١٣١ ، ١٧٣ .

ثم استحضرنّا عبارات الطهطاوى التى يقول فيها :

«إن بحر الشريعة الغراء ، على تفرع مشاريعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى . ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية ، لأنها أصل ، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع» (١٠) .

ثم قارنا ذلك بمذاهب «التنوير - الغربى - العلمانى» فى عزل الدين عن الدولة والعمران ، وإحلال العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين ، وإقامة المعرفة الإنسانية على العقل والتجريب وعالم الشهادة مع استبعاد الوحي والغيب والوجدان من مصادر المعرفة وسبل إدراكها . . .

إذا نحن صنعنا ذلك ، أدركنا يقينا ، أننا بإزاء مشروعين للإحياء والنهضة والتحديث :

● مشروع التجديد الإسلامى . . للنهضة والإصلاح والإحياء بالاسلام ، كمرجعية تفجر فى الأمة كل الطاقات الإبداعية فى كل الميادين . . وله أعلامه الذين مثلوا مناراته الحديثة منذ الطهطاوى وحتى هذا التاريخ . . .

● ومشروع «التنوير - الغربى - العلمانى» ، الذى جاءنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة . . فانبهر به من انبهر من مفكرينا ومثقفينا - كاجتهاد خاطئ ، تم العدول عنه فى مرحلة النضوج - أو كعمالة حضارية من الكارهين لبديله المتمثل فى الإسلام !! . .

فهما مشروعان للتحديث والإحياء والتقدم . . وليس مشروعاً واحداً - «للتنوير» - كما زعم ويزعم الذين خلطوا الأوراق ، فحشروا «التجديد الإسلامى» فى زمرة «التنوير - الغربى - العلمانى» . .

* * *

(١٠) [الأعمال الكاملة] ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

إنه لا يكفي أن ينشر «تلاميذ التنوير - الغربى - العلمانى» كتابا للشيخ محمد عبده، ضمن كتب على عبد الرازق وسلامة موسى وطه حسين - من رواد «التنوير الغربى» - لإقناع الناس بأن الأستاذ الإمام قد كان من حزب التغريب، الداعى إلى السير سيرة أوربا فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . . ففكر المفكر هو الموقف الذى يحدد المعسكر الذى يقف فيه والمذهب الذى يدعو إليه والتيار الذى يبشر به بين الناس . .

بل لقد اكتشفنا أن هذا الذى صنعه «تلامذة التنوير - الغربى - العلمانى» - بنشرهم كتابا للأستاذ الإمام ضمن سلسلة «المواجهة» للمشروع الإسلامى بـ «التنوير»، إنما مثل «تزويرا» مزدوجا!! . .

فهم قد ارتكبوا «تزويرا»، وقالوا «زورا» عندما وضعوا اسمه مع دعاة العلمانية والمادية والإلحاد - من أمثال فرح أنطون . . وإسماعيل أدهم . . وشبلى شميل - وأضربهم . . بينما فكر الرجل هو على هذا النحو الذى ضربنا له الأمثال! . .

ثم هم قد صنعوا «زورا» . . وتزويرا» حتى فى الكتاب الذى نشره له فى هذه «السلسلة»، سلسلة التنوير والمواجهة . . فهذا الكتاب - وهو [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة] - قد أحدثوا فيه تزويرا لا يليق بـ «تجار الكتب» و«مزورى الطباعة»، فضلا عن أن يليق بالأساتذة والمفكرين والمثقفين من أهل «التنوير»!! . .

● لقد حدث «تزوير» فى عنوان الكتاب . . الذى كتبه الأستاذ الإمام، فى الأصل، مقالات رد بها على فرح أنطون دعواه أن النصرانية أكثر تسامحا مع العلم والعلماء من الإسلام . . وبعد أن نشرت هذه المقالات فى [المنار] جمعها الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ، ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م]، وطبعها فى كتاب مستقل عنوانه [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة] - ولقد استأذن رشيد رضا الأستاذ الإمام فى اختيار هذا العنوان فوافق عليه . . وبنص

عبارة رشيد رضا - في تأريخه للأستاذ الإمام - : «[الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] : وهو مقالات كتبها - [الأستاذ الإمام] - لمجلة المنار، ثم جردناها منها وطبعناها على حديثها، وسميناها بهذا الاسم بإذنه، فجاءت كتابا مستقلا أعيد طبعه مرارا» (١١) .

ولقد أعيد طبع هذا الكتاب، بنفس العنوان، مرتين في حياة الأستاذ الإمام، الأولى في السنة الخامسة من صدور [المنار]، والثانية سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م، ثم تكررت طبعاته بذات العنوان .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد كتب هذا الكتاب ردا على قول فرح أنطون : «إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي . ولذلك نما غرسهما في تربة أوربا وأينع، وأثمر التمدن الحديث، ولكنهما لم يتمكننا من التغلب على الاضطهاد الإسلامي . وفي هذا دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا» (١٢) . . فإن «تزوير» العنوان - بحذف كلمة «النصرانية» - يتجاوز تزوير «العنوان» إلى تزوير «رسالة الكتاب» . . .

● ولقد حدث ذلك بالفعل، فلم يقف «تزوير» «تلامذة التنوير الغربي» عند عنوان الكتاب، وإنما تجاوزوه إلى «تزوير» المحتوى، فقاموا بحذف ما كتبه الأستاذ الإمام عن النصرانية، في معرض مقارنته بين أصولها وبين أصول الإسلام، وتأثير ذلك على موقف الدينين من العلم والمدنية! . . . لقد حذفوا أكثر من ثلاثين صفحة (١٣) فيها هذه العناوين وما كتبه تحتها :

«الجواب الإجمالي للأستاذ الإمام على دعوى فرح أنطون» .

(١١) [تاريخ الأستاذ الإمام]، ج ١ ص ٧٨٧ . طبعة القاهرة، سنة ١٩٣١ م .

(١٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده]، ج ٣، ص ٢٤٨ .

(١٣) انظرها في المصدر السابق . ج ٣، ص ٢٤٧ - ٢٧٨ .

«جواب تفصيلي» . . وفيه : «نفى القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد» . .

و«تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة» .

و«طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء»

- وهى مباحث أساسية فى موضوع الكتاب - . .

بل وحذفوا ماكتبه الإمام عن أصول النصرانية - وهو من أنفس ماكتبه فى مقارنة النصرانية بالإسلام - ومنها الأصول الستة للنصرانية ، والتى قدم لها يبحث عن :

«طبيعة الدين المسيحى»

و«تمهيد» لهذه الأصول الستة . . ثم توالى عناوينها :

«الأصل الأول للنصرانية : الخوارق» . .

و«الأصل الثانى للنصرانية : سلطة الرؤساء» . .

و«الأصل الثالث للنصرانية : ترك الدنيا» . .

و«الأصل الرابع للنصرانية : الإيمان بغير المعقول» . .

و«الأصل الخامس للنصرانية : أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد» . .

و«الأصل السادس للنصرانية : التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقرين» . .

ثم حذفوا المباحث التى استخلص فيها الأستاذ الإمام دلالات هذه الأصول على موقف النصرانية من العلم والمدنية . . وهى المباحث التى ذكرها تحت عناوين :

«نتائج هذه الأصول وآثارها» . .

و«مقاومة النصرانية للعلم» . .
و«مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش» . .
و«اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة» . .
و«مقاومة السلطة المدنية وحدية الاعتقاد» . .
و«مقاومة الجمعيات العلمية والكتب» . .
و«البروتستانت والإصلاح» . .
و«الفصل بين السلطتين في المسيحية» . .
و«اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية» . .
كل هذه المباحث قد حذفها طبعة «المواجهة بالتنوير» من كتاب الأستاذ الإمام ، الذى توسلت بإدراجه فى سياق على عبد الرازق وسلامة موسى وطه حسين وفرح أنطون إلى «تزوير» التجديد الإسلامى بوضعه فى سلة «التنوير - الغربى - العلمانى» ، فارتكبت «مذبحة فكرية» قل نظيرها فى ميدان تزوير الكتب ونسخ المؤلفات!! . .
● وبعد هذا «التزوير» بالحذف والبت، اقترفت هذه الطبعة «تزويرا» آخر بالحشو والإضافة ، فأدخلت فى هذا الكتاب ما ليس فيه!! . .
لقد حشروا فى هذه الطبعة المزورة ، مباحث لاعلاقة لها بموضوع الكتاب . . وذلك مثل :
بحث : «الإنسان عالم صناعى» - وهو من مقالات صحيفة [العروة الوثقى] كتبه جمال الدين الأفغانى ، وليس الأستاذ الإمام . . ونشر فى [العروة] سنة ١٨٨٣ م . . أى قبل تأليف كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] بعشرين عاما . . ولا علاقة له بموضوع المعركة الفكرية التى كتب لها وفيها هذا الكتاب^(١٤)!! . .

(١٤) انظره فى هذه الطبعة - «المزورة» ، ص ٥ - ١٢ - طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م .

أبحاث: «المسألة الإسلامية بين هانوتو والإمام»^(١٥) . . . وهى ست مقالات كتبها الأستاذ الإمام ردا على الكاتب والسياسى الفرنسى «جابريل هانوتو» [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] . . . وليس على فرح أنطون . . . وكتبها فى سنة ١٩٠٠ م . . . أى قبل سنوات من كتابة مباحث [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] . . . ونشرها فى صحيفة [المؤيد] وليس فى [المنار] - التى رد فيها على فرح أنطون!! . . . الأمر الذى لا يترك عذرا يبرر هذا الخلط والتزوير!! . . .

لكن . . . شاء الله - ولا راد لمشيئته - أن يوقع «تلامذة التنوير - الغربى - العلمانى» فى «تزوير مادى»، اقترفوه فى حق الأستاذ الإمام، ليضاف إلى «التزوير الفكرى» الذى تمثل فى دعواهم التى ادعوها . . . والتى زعموا فيها أن تيار «التجديد الإسلامى» إنما كان يمثل فى حياتنا الفكرية دعوة إلى «التنوير - الغربى - العلمانى» . . . وهى الدعوى التى نقضناها، عندما أشرنا إلى معالم المشروع النهضوى، والطابع الإسلامى للنهضة التى جاهد فى سبيلها أعلام هذا التجديد . . . من الطهطاوى . . . إلى الأفغانى . . . إلى الأستاذ الإمام . . . وغيرهم من أعلام التجديد . . . وصدق الله العظيم إذ يعلمنا فيقول: ﴿وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١٦) . . . وإذ يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^(١٧) . . . وإذ يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾^(١٨) . . .

نعم . . . ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾! . . . صدق الله العظيم .

(١٥) انظرها فى المرجع السابق . ص ١٣ - ٩٣ . وفى [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] . ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٤٠ .

(١٦) الإسراء: ٣٦ . (١٧) الرعد: ١٦ . (١٨) السجدة: ١٨ .

وبعد ..

فلقد رأينا - عبر فصول هذه الدراسة وصفحاتها - :

● تلك الموجة الثقافية والحملة الإعلامية ، التي تعلق فيها مثقفونا العلمانيون بشعار «التنوير» ، عنوانا على حملة فكرية يواجهون بها المد الإسلامى و«المشروع الإسلامى» للنهضة والتغيير . . وهى الحملة التى أصدروا فيها سلسلة غير مسبقة من الكتب - قارب عددها الخمسين كتابا - وكانت إصداراتها تتوالى بمعدل غير مسبوق - فى كل يوم كتاب !! - حملت جميعها عنوان : «التنوير - المواجهة» . . أى مواجهة التوجه الإسلامى بـ«التنوير» !! . .

● ثم قدمنا دراسة موضوعية ، اجتهدت فى تحرير مفهوم مصطلح «التنوير» - فى نشأته الأوربية - بالقرن الثامن عشر الميلادى ، والملايسات الأوربية المتميزة لهذه النشأة . . والمواجهة التى مثلتها «فلسفة التنوير» الأوربى - الوضعية . . العلمانية - مع النصرانية والكنيسة واللاهوت . .

وعرضنا ، كذلك ، للمفهوم المغاير تماما لكلمة «التنوير» فى الاصطلاح العربى ، والمفهوم الإسلامى . . فتجلى لهذا المصطلح مفهومان متغايران ، بل ومتناقضان ، لدى الغربيين وعند الإسلاميين . .

ثم عرضنا لمفاهيم «التنوير» عند الذين رفعوه شعارا لحملتهم فى مواجهة المشروع الإسلامى . . لتبين هوية «تنويرهم» هذا . . أعربى هو؟ . . أم غربى؟ . .

● ثم أمسكنا بداية «خيوط» «فلسفة التنوير» الغربى ، فى حياتنا الفكرية الحديثة ، منذ عصر «الرواد» ، الذين اختاروا - صراحة ودون موارد - لنهضة أمتنا أن تكون على نمط النموذج الغربى فى النهوض ، فدعوا إلى أن نسير سيرة أوربا فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . .

وقد منا من المشروعات الفكرية «التنويرية» هؤلاء «الرواد» نماذج ثلاثة ، شاهدة على أن «تنويرها» إنما كان غربيا ، أرادوا به - فى صراحة لا موارد فيها - استبعاد الإسلام من «مرجعية النهضة» الشرقية ، كما صنع التنوير الغربى مع النصرانية إبان النهضة الأوربية الحديثة . . وهذه النماذج الشاهدة هى :

- ١ - نموذج الشيخ على عبد الرازق . . وعلمنة الإسلام . . والعمران . .
- ٢ - ونموذج سلامة موسى . . والتفرنج . . والانسلاخ عن الشرق . . والعروبة . . والإسلام . .

٣ - ونموذج الدكتور طه حسين . . ويونانية عقلنا الشرقى . . ومتوسطة حضارتنا . . والالتزام أمام أوربا بأن نسير سيرتها فى «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع» . .

● وبعد هذه النماذج من المشروعات الفكرية لجيل «الرواد» ، عرضنا لهوية «تنوير جيل التلاميذ» . . أغربية هى ؟ أم عربية ؟ . . ثم وقفنا - بعد تقديم الشواهد على «غربية هوية تنويرهم» - أمام نماذج ثلاثة من المشروعات الفكرية لجيل «التلاميذ» :

- ١ - نموذج تفريغ الإسلام من محتواه الدينى والإلهى والغيبى . . وذلك تحت شعارات الإسلام ، وبلغة إسلامية ، وباصطلاحات المسلمين . . واخترنا مثالا على هذا النموذج مشروع الدكتور حسن حنفى . .

٢ - ونموذج «مركسة الإسلام» . . وتقديمه «كمجرد ثورة» ، لا يعدو أن يكون «بناء فوقيا» أفرزه «البناء التحتى» المادى . . واخترنا مثالا على هذا

رسالة دكتوراه عن «القرآن وعلومه» للدكتور عبد الله خورشيد البرى . .

٣ - ونموذج التناول الهزلى ، والخالى من الأمانة والعدالة الفكرية فى التعامل مع الإسلام وفكره وتراثه وأعلامه . . وضربنا لهذا النموذج مثلاً بـ «اجتهادات» «الأستاذ» حسين أحمد أمين . .

● ثم خلصنا، بعد ذلك، إلى دراسة كشفنا بها «التزوير» الذى يقترفه دعاة «التنوير - الغربى»، عندما «يحشرون» أسماء أعلام «التجديد والاجتهاد الإسلامى»، ويضعونها فى «سلة» «التنوير - الغربى - العلمانى» . . وفى هذا المقام وقفنا، أيضاً، عند نماذج ثلاثة :

١ - نموذج رفاة الطهطاوى . . المجدد الإسلامى . . والذى كان أول عين للشرق على الغرب فى عصرنا الحديث . . وكيف كان صاحب عبقرية فى نظراته النقدية، التى رفضت «الوضعية الغربية» . . والتنوير العلمانى الغربى . . منتصراً للرؤية الإسلامية المتميزة . .

٢ - ونموذج جمال الدين الأفغانى . . رائد الدعوة إلى إنقاذ الأمة بالإسلام . . وتجديد دينها لتتجدد به دنياها . .

٣ - ونموذج الإمام محمد عبده . . المهندس الأعظم لمعالم المشروع النهضوى الإسلامى الحديث . . وهو الذى - رغم ذلك - «زور» «التنويريون - المتغربون» واحداً من أهم كتبه . . حتى يضعوه وأعلام التجديد الإسلامى فى «سلة» «التنوير - الغربى - العلمانى» ! . .

كاشفين النقاب - عبر فصول وصفحات هذا الكتاب - عن واحدة من أخطر حملات «التزوير الفكرى»، التى توسل أصحابها بمصطلحات براقة وجذابة، يعشقها «الجمهور» . . ولا يدرك تميز مفاهيمها ومضامينها فى الثقافات والحضارات المختلفة إلا «أهل الذكر والاختصاص» !! .

حتى إذا ما اختلطت الأوراق . . وأصبح «التجديد الإسلامى» «تنويرا - غربيا - علمانيا» . . حل هذا «التنوير - العلمانى» محل «التجديد - الإسلامى»، فنسخ «التنوير» إسلامنا . . وأزاحه من «مرجعية مشروعنا الحضارى» . . كما صنع التنوير الغربى مع النصرانية فى النهضة الأوربية الحديثة!! . . .

* * *

إن فلسفة التنوير الغربى قد أقامت «قطيعة معرفية كبرى» مع الموروث المسيحى الغربى . . تلك بداهة يعرفها الجميع . . وفى كتابات «الشجعان - غير المرائين» من مثقفينا المعاصرين ، الذين يدعون إلى هذا التنوير الغربى ، نجد الإعلان عن هذه الرغبة المتوخاة من تبنيه : إقامة «القطيعة المعرفية الكبرى» مع النقل الدينى والموروث الإسلامى ، وإحلال العقل والتجريب محل «النقل الدينى» ، بدلا من الجمع بينها جميعا . .

وفى دراسة «صريحة» حول هذه القضية ، ينقل كاتبها عن الباحث الفرنسى «أميل بولا» - أحد كبار الباحثين المعاصرين فى علم الاجتماع الدينى - كيف مثل التنوير «قطيعة معرفية كبرى» مع الموروث النصرانى الغربى . . ليؤكد على تماثل ملابسات التطور ومشكلاته - حتى ليدعى وجود «كهانة» فى حياتنا وفكرنا الإسلامى - ومن ثم ضرورة تبنى فلسفة التنوير الغربى لإحداث «القطيعة المعرفية الكبرى» مع الموروث الإسلامى . . . يقول «أميل بولا» :

«كان المسيحى الناتج (أو المتولد) عن حركة الإصلاح البروتستانتى حريصا - على المستوى الدينى - على عدم تقديم الطاعة إلا لله وكتابه ، لا لكهنته ولا لخليفته (أى البابا) . وأما الآن - أى مع التنوير - فقد تم اجتياز عتبة ثانية : فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله الذى يستطيع أن يحاكم الأشياء بذاتها . . .

إن هذه الأيديولوجيا - الأم التى كشفها عصر التنوير للعالم ، والتى تضاد

المسيحية عن طريق الخروج منها - تحمل اسما رمزيا ، كان مثقلا بالمعنى ومشحونا بدلالة الواقع في القرن الماضي : إنه الليبرالية . وكانت جذتها من القوة بحيث إنها قاومت كل محاولات الكاثوليكية للقضاء عليها أو على معارضتها . وكانت سلالتها التالية خصبة وصراعية داخلية ، لأنه من رحمها خرجت الاشتراكية . ومن هنا تبدو أهمية البحث عن منشأ التشكيلات الأيديولوجية وصعوبة هذا البحث . من هنا صعوبة دراسة الطريقة التي اقتسمت بها الفضاء الاجتماعى .

إن هذه الأيديولوجيا - التنوير - هى الأم ، بمعنى أن كل مايتفرع عنها يتولد عن تطویراتها وتناقضاتها ، دون أن ينقض القطيعة الإستمولوجية الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية : عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكوينى ، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير ، هذا إذا أردنا أن نختار لحظتين رمزيتين وحدّيتين . فمنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته . وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة . وانتهى عهد التعالى العمودى لكى يحل محله عهد المحسوسية والعلاقات الأفقية والحادية .

بالطبع ، يمكن للمعجم اللاهوتى القديم أن يستمر ، ولكنه لم يعد يوهم أحدا ، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى . لقد أصبح الإنسان وحده مقياسا للإنسان . وأصبح حكم الله ، والسلطات الدينية التى تنتسب إليه ، خاضعا لحكم الوعى البشرى الذى يطلق الحكم الأخير باسم الحرية ، هذه الحرية التى تمثل مكسبه الحديد ، الذى لا يزال هشاً ، ولكنه غير قابل للنقض أبدا . . .»^(١) !!

(١) انظر : هاشم صالح - مجلة [الوحدة] - التى تصدر بالمغرب - عدد فبراير - مارس ١٩٩٣ م . ص ٢٠ ، ٢١ ، وهو ينقل عن كتاب «أميل بولا» [الحرية ، العلمنة : حرب شطرى فرنسا ومبدأ الحداثة] - منشورات سيرف . باريس ، سنة ١٩٨٧ م .

- هذا هو «التنوير - الغربى» - بقلم أبنائه ، وكما يتبناه أنصاره من مثقفينا :
- قطيعة معرفية مع الموروث الدينى . . لا تكتفى بالإصلاح الدينى ، وإنما تتخذه سلما لإحلال «الخضوع للعقل» محل «طاعة الله وكتابه» . . .
 - وما «الليبرالية» و«الاشتراكية» إلا «أسماء رمزية» لأيدولوجية التنوير هذه . . وخلافهما فقط فى «الفضاء الاجتماعى» . . .
 - ومنذ تبنى فلسفة التنوير لا بد من «إزاحة الأمل بمملكة الله» وأن يستبدل بها «عصر العقل وهيمنته» . . وإزاحة «نظام النعمة الإلهية» ، ليحل محله «نظام الطبيعة» . . .
 - ولا بأس من بقاء «المعجم الدينى» فى دائرة الاستعمال . . شريطة تغيير مضامين ما فيه من مصطلحات . . «فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعانى» . . . فـ «الإنسان» حل محل «الله» . . و«حكم الإنسان» حل محل «حكم الله» . . .
- هذا هو «التنوير - الغربى» عارية فلسفته من الزينة ، وصريحة أيدولوجيته من التمويه . . .



ونحن نذكر القارئ ، أمام اعتراف فلاسفة التنوير الغربى ، بأن بقاء «المعجم الدينى» إنما هو مشروط بتغيير معانى مصطلحاته . . . كيف يدعو كتاب عنوانه [الإسلام وأصول الحكم] . . وباسم الإسلام ، إلى أن تكون مرجعية الدنيا كلها ، إلى «حرية الناس . . وماتهدىهم إليه عقولهم ، وعلومهم ، ومصالحهم ، وأهواؤهم ، ونزعاتهم»^(٢) . . دون أن يوضع «الدين» مع هذه العقول ، والعلوم ، والمصالح ، والأهواء ، والنزعات . . .

(٢) [الإسلام وأصول الحكم] ، ص ٧٨ .

فالمطلوب هو « القطيعة المعرفية الكبرى » مع الدين ، حتى ولو كانت الدعوة إلى هذه القطيعة » في كتاب عن الإسلام وأصول الحكم ، يستخدم « المعجم الديني » في الكتابة والتأليف !!

وكيف يتحول معنى « الإيمان » إلى « الالحاد » ؟ . . . في كتاب عن [التراث والتجديد] يقول صاحبه إنه يريد إعادة بناء العقيدة الإسلامية وعلومها من جديد . . . فيقول : إن « الالحاد هو التجديد . . . وهو تطابق مع الواقع . . . ووعى بالحاضر — ودرء للأخطار . . . وهو المعنى الأصلي للإيمان » . . . ولا داعي للخوف منه ، ولا من العلمانية ، فهما حتميَّان « (٣) . . .

وكيف يتحول الإسلام من « دين وعقيدة ووحى » إلى « مجرد ثورة » (٤) ؟ . . . وكيف يحل « الإنسان الكامل » محل « الله » (٥) ؟ . . .

إنها « القطيعة المعرفية الكبرى » مع الدين والموروث الديني . . . حتى مع استخدام « المعجم الديني » ، الذي يتم تغيير معاني المصطلحات والمفردات فيه !

* * *

ونحن ، في نهاية هذه الدراسة ، نريد أن نقول لمختلف الفرقاء المتصارعين في حياتنا الفكرية والثقافية :

● إننا ، في رفضنا للتنوير الغربي ، الذي يُحل الإنسان محل الله . . . لا نريد أن نحل الله محل الإنسان . . . وإنما نريد الجمع بين الإيمان بالذات الإلهية ، وبين الإيمان بالإنسان الخليفة لله في عمران الأرض . . .

(٣) د . حسن حنفى [التراث والتجديد] ، ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٤) د . عبد الله خورشيد البرى [القرآن وعلومه في مصر] ، ص ١٠٩ .

(٥) [التراث والتجديد] ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

● ونحن ، فى رفضنا للتنوير الغربى ، الذى يُحلّ العقل والتجريب محل النقل والدين . . لا نريد أن نكتفى بالنقل والدين عن العقل والتجريب . . وإنما نريد أن تصدر معرفتنا عن كتابى «الوحى» و«الوجود» . . وأن نسلك إلى هذه المعرفة سبل : «العقل» و«النقل» و«التجريب» و«الوجدان» مجتمعة ومتكاملة!! . .

● ونحن ، فى رفضنا للتنوير الغربى ، الذى يقيم «قطيعة معرفية كبرى» مع الموروث الدينى . . لا نريد أن نحل الموروث الدينى محل مستجدات التطور والعصر، فى الواقع . . وفى الفكر . . وإنما نريد أن نجعل «التجديد» - الذى يواكب التطور والمتغيرات . . مع احتفاظه بالثوابت والروح الحضارية والتواصل الحضارى - نريد أن نجعل «التجديد» بديلاً لـ «القطيعة» ولـ «الجمود» كليهما!! . .

إننا نريد «التجديد» - الذى هو «تنوير إسلامى» - ليفجر فى عقولنا وحياتنا الفكرية والعملية «نور الإسلام» و«نور الحكمة الإنسانية» معاً . . لتسير «ملكات الإنسان» فى «نور الله» . . فلا يعمى الجمود «بصيرة العقل» عن «نور الله» . . ولا تحرم «القطيعة الفكرية» هذا «العقل» من هذا «النور الإلهى»! . . نريد أن نقيم بين «العقل» وبين «النقل» هذه العلاقة المثلى ، التى عرفتتها حضارة الإسلام إبان ازدهارها وعطائها . . والتى صورها حجة الإسلام الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ، ١٠٥٨ - ١١١١ م] ، عندما قال :

«فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والأذاء .

ومثال القرآن : الشمس المنتشرة والضياء .

فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء ، المستغنى بأحدهما عن الآخر، فى غمار الأغبياء .

فالمعرض عن العقل ، مكتفياً بنور القرآن ، مثاله : المعرض لنور الشمس

مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان ! .

فالعقل مع الشرع : نور على نور»^(٦) ! . .

تلك هى دعوتنا . . وهذه هى «الرسالة» التى نرجو أن يكون قد نجح فى حملها إلى القارئ هذا الكتاب :

إماطة اللثام عن التمايز - بل والتناقض - بين «التنوير - الغربى - العلمانى» وبين «التجديد - الإسلامى» . . ودعوة مختلف الفرقاء فى حياتنا الفكرية ، المتصارعين حول هذه القضية - قضية : «هوية» مشروع نهضتنا المنشودة . . ومكانة الإسلام فى مرجعية مشروعنا النهضوى - دعوتهم جميعا إلى كلمة سواء ، تجمع عقل الأمة لمواجهة ما فرض ويفرض عليها من تحديات .

٧ من ربيع الأول سنة ١٤١٤ هـ

القاهرة

٢٥ من أغسطس سنة ١٩٩٣ م

(٦) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ، ص ٢ ، ٣ .

المصادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة :

- ١ - [صحيح البخارى] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- ٢ - [صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- ٣ - [سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- ٤ - [سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٥ - [سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- ٦ - [سنن ابن ماجه] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٧ - [سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٨ - [مسند الإمام أحمد] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .
- ٩ - [الموطأ] - للإمام مالك - طبعة دار الشعب . القاهرة .

● الكتب . . والموسوعات . . والدوريات :

د . إبراهيم بدران ،

د . محمد أسعد فارس - إعداد

: [موسوعة العلماء والمخترعين] طبعة

بيروت سنة ١٩٧٨ م .

: [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .

: [الكليات] طبعة دمشق سنة ١٩٨١ م

: [القاموس الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة

القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

: [دائرة المعارف] طبعة القاهرة .

ابن منظور

أبو البقاء الكفوى

أحمد عطية الله

الأفغانى

بطرس البستانى

- التهانوى
د. جابر عصفور
- د. جابر عصفور
- الجاحظ
- الجامعة الأمريكية - القاهرة -
جمعية المستشرقين
- حسن البنا
- د. حسن حنفى
حسين أحمد أمين
- دائرة المعارف البريطانية
ديورانت
روزنتال (م) - إشراف -
- زامبور
- د. زكى نجيب محمود - إشراف -
- سائيلانا
- سركيس - يوسف إيان -
- سلامة موسى
د. طه حسين
- : [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م .
- : [التنوير يواجه الظلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- : [محنة التنوير] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- : [رسائل الجاحظ] تحقيق : الأستاذ عبدالسلام هارون .
- طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- : [حضارة مصر الحديثة] - طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٣ م .
- : [دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية الثانية - القاهرة - دار الشعب .
- : [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة دار الشهاب . القاهرة .
- : [التراث والتجديد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م
- : [حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية] طبعة بيروت . سنة ١٩٨٥ م .
- : [الاجتهاد في الإسلام : حق هو أم واجب ؟] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- : «مادة : تنوير» .
- : [قصة الحضارة] الطبعة العربية . القاهرة .
- : [الموسوعة الفلسفية] - السوفيتية - ترجمة : سمير كرم .
- طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .
- : [معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- : [الموسوعة الفلسفية المختصرة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
- : [القانون والمجتمع] - بحث - ضمن كتاب [تراث الإسلام] ترجمة : جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- : [معجم المطبوعات العربية والمعربة] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- : [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- : [الفتنة الكبرى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤ م .
- : [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

- : [فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .
- : [من الشاطئ الآخر] ترجمة : عبد الرشيد الصادق المحمودى - طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .
- : [لجنة مشروع الدستور] - محضر اجتماع - طبعة وزارة الإرشاد القومى - القاهرة .
- : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٧٣ - ١٩٨١ م .
- : [القرآن وعلموه فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- : [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- : [الفصحى والعامة والحوار] طبعة الرياض . سنة ١٩٩٠ م .
- : [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ .
- : [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م .
- : [ابن رشد وفلسفته] طبعة الإسكندرية سنة ١٩٠٣ م .
- : [تاريخ الفكر المصرى الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- : [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .
- : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- : [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م .
- : [كتاب الإسلام وأصول الحكم فى الميزان] طبعة القاهرة . سنة ١٩٩٣ م .
- : [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة . سنة ١٩٣١ م .
- : [الإسلام والخلافة فى العصر الحديث] طبعة القاهرة . سنة ١٩٧٧ م .
- : [النظريات السياسية الإسلامية] طبعة القاهرة . سنة
- الطهطاوى - رفاعة رافع -
- د . عبد الله خورشيد البرى
على عبد الرازق (الشيخ)
د . على عقله عرسان
- الغزالى - أبو حامد -
- فرح أنطون
د . لويس عوض
- محمد بخيت المطيعى (الشيخ)
- محمد حميد الله الحيدرابادى -
تحقيق -
- د . محمد الدسوقي
- د . محمد رجب بيومى
- محمد رشيد رضا (الشيخ)
د . محمد ضياء الدين الرئيس

١٩٦٠ م.

د. محمد عابد الجابري

: [يقظة الوعي العربى فى المغرب] - ضمن كتاب [تطور

الوعى القومى فى المغرب العربى] طبعة بيروت سنة

١٩٨٦ م.

: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة

بيروت سنة ١٩٧٢ م. . والقاهرة سنة ١٩٩٣ م.

: [الإسلام والرد على منتقديه] - مع آخرين - طبعة القاهرة

سنة ١٩٢٨ م.

: [الإسلام بين العلم والمدنية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

: [الغزو الفكرى وهم أم حقيقة؟] طبعة القاهرة سنة

١٩٨٩ م.

: [إسلامية المعرفة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م.

: [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة

١٩٨٩ م.

: [الإسلام وفلسفة الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م.

: [الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية] طبعة

القاهرة سنة ١٩٨٨ م.

: [العلمانية ونهضتنا الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م.

: [الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين] طبعة

القاهرة سنة ١٩٩٢ م.

: [قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية]

طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

: [جمال الدين الأفغانى المفترى عليه] طبعة القاهرة سنة

١٩٨٤ م.

: [الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل]

طبعة دمشق سنة ١٩٨٩ م.

: [الإسلام وحقوق الإنسان] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م.

: [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م.

: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار

الشعب . القاهرة .

: [التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ] دراسة وتحقيق :

محمد مختار المصرى (باشا)

محمد فؤاد عبد الباقي

- د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- مجمع اللغة العربية - القاهرة -
ميشيل عفلق
- : [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- : [الكتابات السياسية الكاملة] طبعة بغداد . ١٩٨٧ -
١٩٨٨ م .
- : [المستشرقون] طبعة القاهرة . سنة ١٩٦٤ م .
- نجيب العقيقى
نيكسون (ريتشارد)
- : [الفرصة السانحة] ترجمة : أحمد صدقى مراد . طبعة
القاهرة سنة ١٩٩٢ م .
- وينسك (أ . ي)
- : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة
ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .
- يوسف المغربى
- : [دفع الإصر عن كلام أهل مصر] تحقيق : عبد السلام
أحمد عواد . طبعة موسكو سنة ١٩٦٨ م .

● دوريات :

- [الحياة] - لندن . .
- [المصور] - القاهرة . .
- [الأهرام] - القاهرة . .
- [رسالة الإسلام] - القاهرة . .
- [السياسة] - القاهرة . .
- [الجمهورية] - القاهرة . .
- [الوفد] - القاهرة . .
- [العربى] - الكويت . .
- [الوحدة] - المغرب . .

الفهرس

صفحة

تمهيد	٥
التنوير: غربى؟ .. أم عربى؟!	١١
التنوير العلمانى : فى جيل «الرواد»	٣٤
١ - علمنة الإسلام .. والعمران	٣٨
٢ - التفرنج .. والانسلاخ من الشرق والعروبة والإسلام	٩٧
٣ - العقل اليونانى .. والحضارة المتوسطية	١٥٨
وتنوير جيل «التلاميذ» .. غربى؟ .. أم عربى؟!	١٨١
١ - تفرغ الإسلام من محتواه	١٨٨
٢ - مركسة الإسلام	١٩٨
٣ - الهزل .. وغيبة العدالة فى تناول الإسلام	٢٠٥
التجديد الإسلامى وتزوير تلامذة التنوير	٢٢٣
١ - رفاعة الطهطاوى .. بين التنوير الغربى .. والتجديد الإسلامى	٢٢٩
٢ - جمال الدين الأفغانى .. بين التنوير الغربى .. والتجديد الإسلامى	٢٣٨
٣ - الإمام محمد عبده .. بين التنوير الغربى .. والتجديد الإسلامى	٢٥٣
وبعد	٢٦٩
المصادر	٢٧٨
الفهرس	٢٨٣
للمؤلف	٢٨٤

للمؤلف

أ- تأليف :

- ١ - معالم المنهج الإسلامى - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩١ م .
- ٢ - الإسلام وفلسفة الحكم - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م .
- ٣ - الإسلام وأصول الحكم - دراسة ووثائق - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٨٥ م .
- ٤ - معركة الإسلام وأصول الحكم - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م .
- ٥ - الإسلام والسياسة - الرد على شبهات العلمانيين - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٩٢ م .
- ٦ - الإسلام والفنون الجميلة - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩١ م .
- ٧ - الإسلام والمستقبل - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٦ م .
- ٨ - الإسلام وحقوق الإنسان - ضرورات لا حقوق - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م .
- ٩ - الإسلام والثورة - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ١٠ - الإسلام والعروبة - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ١١ - إسلامية المعرفة - دار الشرق الأوسط - القاهرة - سنة ١٩٩٢ م .
- ١٢ - الدين والدولة - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - سنة ١٩٨٦ م .
- ١٣ - الإسلام وقضايا العصر - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ١٤ - الإسلام والوحدة القومية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة ١٩٧٩ م .
- ١٥ - الإسلام والسلطة الدينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت .
- ١٦ - الإسلام والحرب الدينية - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٢ م .
- ١٧ - الإسلام والعروبة والعلمانية - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨١ م .
- ١٨ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية - دار ثابت - القاهرة - سنة ١٩٨٢ م .
- ١٩ - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٢٠ - هل الإسلام هو الحل ؟ لماذا . وكيف - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م .
- ٢١ - تهافت الغلو العلماني - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م .

- ٢٢ - العلمانية ونهضتنا الحديثة - دار الشروق - القاهرة - ١٩٨٦ م .
- ٢٣ - أزمة الفكر الإسلامى المعاصر - دار الشرق الأوسط - القاهرة - سنة ١٩٩٠ م .
- ٢٤ - الغزو الفكرى : وهم أم حقيقة ؟ - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٢٥ - الاستقلال الحضارى - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م .
- ٢٦ - الطريق إلى اليقظة الإسلامية - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٠ م .
- ٢٧ - تيارات الفكر الإسلامى - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩١ م .
- ٢٨ - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩١ م .
- ٢٩ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية - دار الشروق - القاهرة - ١٩٨٨ م .
- ٣٠ - المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد - دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٨٣ م .
- ٣١ - عندما أصبحت مصر عربية - دار قتيبة - دمشق - سنة ١٩٨٩ م .
- ٣٢ - معارك العرب ضد الغزاة - المركز العربى للنشر - القاهرة - سنة ١٩٩١ م .
- ٣٣ - العرب والتحدى - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩١ م .
- ٣٤ - مسلمون ثوار - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٣٥ - نصر أبو زيد والتفسير الماركسى للإسلام . دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٥ م .
- ٣٦ - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين - دار الصحوة - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م .
- ٣٧ - سلامة موسى : اجتهدا خاطئ أم عمالة حضارية ؟ - دار الصحوة - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م .
- ٣٨ - رؤية إسلامية لمشروع مؤتمر السكان - مركز التوثيق - سنة ١٩٩٤ م .
- ٣٩ - الفريضة الغائبة : عرض وحوار وتقييم - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٣ م .
- ٤٠ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٤ م .
- ٤١ - إستراتيجية التنصير فى العالم الإسلامى - مركز دراسات العالم الإسلامى - مالطا - سنة ١٩٩٢ م .
- ٤٢ - قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م .
- ٤٣ - إسرائيل : هل هى سامية ؟ - دار الكاتب العربى - القاهرة - سنة ١٩٦٨ م .
- ٤٤ - ظاهرة القومية فى الحضارة العربية - الكويت - رابطة الأدب - سنة ١٩٨٣ م .
- ٤٥ - رحلة فى عالم الدكتور محمد عمارة - دار الكتاب الحديث - بيروت - سنة ١٩٨٩ م .
- ٤٦ - نظرية الخلافة الإسلامية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - سنة ١٩٨٠ م .
- ٤٧ - الإسلام بين التنوير والتزوير - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م .
- ٤٨ - أزمة العقل العربى - مناظرة - دار الآفاق الدولية - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م .
- ٤٩ - المواجهة بين الإسلام والعلمانية - مناظرة - دار الآفاق الدولية - القاهرة - سنة ١٤١٣ هـ .
- ٥٠ - تهاافت العلمانية - مناظرة دار الآفاق الدولية - القاهرة - سنة ١٤١٣ هـ .

- ٥١ - الحركة الإسلامية - رؤية مستقبلية - بالإشتراك مع آخرين - الكويت - سنة ١٩٨٩ م .
- ٥٢ - العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب - دارالثقافة الجديدة - القاهرة - سنة ١٩٧٨ م .
- ٥٣ - الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - سنة ١٩٧٨ م .
- ٥٤ - عمر بن عبد العزيز - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٥٥ - جمال الدين الأفغانى : موقظ الشرق - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٥٦ - جمال الدين الأفغانى المفتى عليه - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٥٧ - محمد عبده : تجديد الدنيا بتجديد الدين - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٥٨ - محمد عبده : سيرته وأعماله - دار القدس - بيروت - سنة ١٩٧٨ م .
- ٥٩ - عبد الرحمن الكواكبي - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٦٠ - أبو الأعلى المودودى - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٧ م .
- ٦١ - رفاعه الطهطاوى - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٦٢ - على مبارك - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٦٣ - قاسم أمين - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٨ م .
- ٦٤ - الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكرى والمعارك الفكرية - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - سنة ١٩٩٢ م .
- ٦٥ - نظرة جديدة إلى التراث - دار قتيبة - دمشق - سنة ١٩٨٨ م .
- ٦٦ - التراث فى ضوء العقل - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ٦٧ - القومية العربية - دار الفكر - القاهرة - سنة ١٩٥٨ م .
- ٦٨ - فجر اليقظة القومية - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ٦٩ - العروبة فى العصر الحديث - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ٧٠ - الأمة العربية وقضية الوحدة - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ٧١ - ثورة الزنج - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٠ م .
- ٧٢ - دراسات فى الوعى بالتاريخ - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ٧٣ - الفكر القائد للثورة الإيرانية - دار ثابت - القاهرة - سنة ١٩٨٢ م .

ب - دراسة وتحقيق :

- ٧٤ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- ٧٥ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م .
- ٧٦ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة ١٩٧٥ م .

- ٧٧ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة ١٩٧٣ م.
- ٧٨ - الأعمال الكاملة لعلى مبارك - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة ١٩٧٩ م.
- ٧٩ - الأعمال الكاملة لقاسم أمين - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م.
- ٨٠ - رسائل العدل والتوحيد - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٧ م.
- ٨١ - كتاب الأموال - لأبى عبيد القاسم بن سلام - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م.
- ٨٢ - فصل المقال - لابن رشد - دار المعارف - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م.
- ٨٣ - رسالة التوحيد - للإمام محمد عبده - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م.
- ٨٤ - الإسلام والمرأة - للإمام محمد عبده - دار المستقبل العربى - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م.
- ٨٥ - التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ - لمحمد مختار المصرى - المؤسسة العربية - بيروت - سنة ١٩٨٠ م.

ج- بالاشتراك مع آخرين :

- ٨٦ - القرآن - المؤسسة العربية - بيروت - سنة ١٩٧٢ م.
- ٨٧ - محمد ﷺ - المؤسسة العربية - بيروت - سنة ١٩٧٢ م.
- ٨٨ - عمر بن الخطاب - المؤسسة العربية - بيروت - سنة ١٩٧٣ م.
- ٨٩ - على بن أبى طالب - المؤسسة العربية - بيروت - سنة ١٩٧٤ م.

د- تحت الطبع :

- ٩٠ - الأمن الاجتماعى - من منظور إسلامى .
- ٩١ - معالم المشروع الحضارى الإسلامى .
- ٩٢ - الحوار فريضة إسلامية .
- ٩٣ - الإسلام فى عيون غربية .
- ٩٤ - تراثنا : كيف نحياه ؟
- ٩٥ - العلمانية بين الغرب والإسلام - دار الصحوة - القاهرة .
- ٩٦ - الجديدي فى المخطط الغربى تجاه المسلمين - دار الصحوة - القاهرة .
- ٩٧ - العالم الإسلامى والمتغيرات الدولية الراهنة - دار الصحوة - القاهرة .
- ٩٨ - عالمنا : حضارة ؟ أم حضارات ؟ - دار الصحوة - القاهرة .
- ٩٩ - الثوابت والمتغيرات فى فكر اليقظة الإسلامية الحديثة .
- ١٠٠ - التعددية .
- ١٠١ - الغرب والإسلام .

- ١٠٢ - التحرير الإسلامى للمرأة .
١٠٣ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .
١٠٤ - كيف نتعامل مع التراث ؟
١٠٥ - الإبداع الفكرى وخصوصية الحضارة الإسلامية .
١٠٦ - التيار القومى والإسلام .
١٠٧ - ثقافتنا : النموذج . . والانتحاء .

رقم الايداع : ٢٨٨٥ / ٩٦

I.S.B.N. 977 - 09 - 0321 - 3

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الإسلام بين التنوير والتزوير

في هذا الكتاب ينبهنا الدكتور محمد عمارة إلى أننا قد أصبحنا أمام درجة من الاستقطاب في حياتنا الفكرية والثقافية، تقترب من الطائفية الثقافية، ومن الغلو الذي تقطع أطرافه كل الحبال مع الآخر، وهو ما يهددنا جميعاً بنزيف داخلي شديد الإنهاك وطويل المدى، يحرسه الخارج، الذي لا يرى إلا مصالحه وهيمته، ولا يقنع بأقل من التبعية له والذوبان فيه!! وهو ما يستدعى وقفة مع الذات.. أي مع كل التيارات الفكرية المنتسبة حقاً إلى هذه الذات الوطنية.. والقومية.. والإسلامية.. وقفة تستهدف حواراً وطنياً وقومياً وإسلامياً لاكتشاف معالم عقد الاستقلال الوطني والقومي والحضاري.. فلا بد من الاتفاق على تحقيق استقلال الوطن أولاً، ليتمكن، بعد ذلك، كل صاحب أيديولوجية من التبشير بأيديولوجيته في هذا الوطن المستقل.

وإذا كان السبيل إلى هذه الغاية حواراً فكرياً نعالج به هذا الانقسام الفكري غير المسبوق في تاريخنا، فإن شرطاً من شروط نجاح هذا الحوار هو تحرير المفاهيم والمضامين للمصطلحات المتداولة بين تياراتنا الفكرية، ليتحقق للمتحاورين الحديث بلغة واحدة!!.. إنقاذاً لحوارنا المنشود من المصير البائس حوار الطرشان!!..

وهذه الدراسة تضع عقول مختلف الفرقاء أمام مضمون مصطلح «التنوير»، تكتشف حقيقته، وحقيقة «الأرض المشتركة» بين الفرقاء «المتصارعين» باسمه وحوله!! وتبين حجم «الخداع المفاهيمي» الذي يسببه استخدام «المصطلح» الواحد بمفاهيم وخلفيات ومضامين مختلفة. بل ومتباينة، وأحياناً متناقضة.

تلك هي مهمة الدراسة، التي ندعو الله أن يجعلها إسهاماً في الدعوة بالتي هي أحسن إلى كلمة سواء.

To: www.al-mostafa.com